لمزيد من الكتب والأبحاث زوروا موقعنا مكتبة فلسطين للكتب المصورة
https://palstinebooks.blogspot.com

التسهيل لتأويل التنزيل

تفسير سورة مريم

في سؤال وجواب

تأليف
أبي عبد الله مصطفى بن العدوي

مكتبة مكة

التسهيل لتأويل التنزيل

تفسير سورة مريم عليها السلام

في سؤال وجواب

تأليف
أبي عبد الله مصطفى بن العدوي

مكتبة مكة

بسم الله الرحمن الرحيم

تفسير سورة مريم

ربنا تقبل منا
إنك أنت السميع العليم

حقوق الطبع محفوظة

الطبعة الأولى
(١٤٢٦ هـ ـ ٢٠٠٥م)

رقم الإيداع
(١٥٠٤٢ / ٢٠٠٥م)

مكتبة مكة

١٠ ش طه الحكيم أما استديو فينوس
ت: ٠٤٠٣٢٩٥٧٤٥ جوال: ٠١٢٣٤٨٩٨٥٣

المقدمة

بسم الله الرحمن الرحيم

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا من يهده الله فلا مضل له، ومن يُضلل فلا هادي له وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأشهد أن محمداً عبده ورسوله.

أما بعد:

فإن أصدق الحديث كتاب الله وخير الهدي هدي محمد ﷺ وشر الأمور محدثاتها وكل محدثة بدعة وكل بدعة ضلاله.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلا تَمُوتُنَّ إِلاَّ وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٢].

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيراً وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيباً﴾ [النساء: ١].

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلاً سَدِيداً ﴿٧٠﴾ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزاً عَظِيماً﴾ [الأحزاب: ٧٠، ٧١]

وبعد:

فهذا تفسير سورة مريم في صورة السؤال والجواب، ضمن مشروع

التسهيل لتأويل التنزيل الذي هو تفسير القرآن في سؤال وجواب الذي قد أُنجز منه للآن ـ بحمد الله ـ ما يقارب ستة عشر مجلدًا يسَّر الله إتمامه، وتقوم بنشره مكتبة مكة في طنطا جزىٰ الله صاحبها خيراً ونفع به.

أقدم هذا التفسير سائلاً الله تبارك وتعالىٰ أن يتقبله مني بقبول حسن، وأن يثيبنا عليه وأن يتجاوز عن هفواتي وزلاتي، وأن ينفع به الإسلام والمسلمين وصلِّ اللهم علىٰ نبينا محمد وسلم والحمد لله رب العالمين.

كتبه

أبو عبدالله

مصطفى بن العدوي

س: اذكر كلمة مجملة عن هذه السورة الكريمة المباركة؟

ج: أقول، وبالله التوفيق:

لقد افتتحت هذه السورة المباركة الكريمة ببعض الأحرف المقطعة التي بُدئت بها بعض سور الكتاب العزيز.

تلك الأحرف التي سيقت للتحدي ولا يعلم معناها إلا الله سبحانه وتعالىٰ.

ثم بعد ذلك تذكير بجملةٍ من أنواع التذكير.

تذكيرٌ بأنبياء الله عليهم الصلاة والسلام وبعض ما حدث لهم، كزكريا عليه السلام وولده يحيىٰ عليه السلام، ثم مريم عليها السلام وولدها عيسىٰ ﷺ.

ثم التذكير بالخليل إبراهيم عليه السلام.

وإسحاق ويعقوب، وكذا موسىٰ وهارون.

وإسماعيل وإدريس، وآدم ونوح عليهم جميعًا صلوات الله وسلامه.

ودائمًا في التذكير بأنبياء الله عليهم السلام، فوائد، منها تثبيت الفؤاد، كما قال تعالىٰ: ﴿وَكُلاًّ نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ﴾ [هود: ١٢٠].

وحمل علىٰ التأسي والتصبر كما قال تعالىٰ: ﴿فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُوْلُوا الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ﴾ [الأحقاف: ٣٥].

وكذا الادِّكار والاعتبار، كما قال تعالىٰ: ﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُوْلِي الأَلْبَابِ﴾ [يوسف: ١١١].

وحملت السورة المباركة في ثناياها أيضًا تذكيرًا بأمور أُخر كالتذكير بالبعث في قوله تعالىٰ في شأن يحيىٰ عليه السلام: ﴿وَسَلامٌ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا﴾ [مريم: ١٥].

وكذا في قول عيسىٰ عليه السلام: ﴿وَالسَّلامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدتُّ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا﴾ [مريم: ٣٣].

وكذا في قوله تعالىٰ: ﴿فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا مِن مَّشْهَدِ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ [مريم: ٣٧].

وكذا في قوله تعالىٰ: ﴿أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ يَوْمَ يَأْتُونَنَا﴾ [مريم: ٣٨].

وكذا في قوله تعالىٰ: ﴿وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ الْحَسْرَةِ﴾ [مريم: ٣٩].

وكذا في قوله تعالىٰ: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَرِثُ الأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا وَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ﴾ [مريم: ٤٠].

وكذا في قوله تعالىٰ: ﴿فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا﴾ [مريم: ٥٩].

وكذا في قوله تعالىٰ: ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَحْشُرَنَّهُمْ وَالشَّيَاطِينَ﴾ [مريم: ٦٨].

وكذا قوله تعالىٰ: ﴿وَيَأْتِينَا فَرْدًا﴾ [مريم: ٨٠].

وقوله تعالىٰ: ﴿وَكُلُّهُمْ آتِيهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَرْدًا﴾ [مريم: ٩٥].

إلىٰ غير ذلك من الآيات.

وأيضًا تحمل السورة بين طياتها تذكيرًا بالصلاة في قول عيسىٰ عليه السلام: ﴿وَأَوْصَانِي بِالصَّلاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا﴾ [مريم: ٣٢].

وكذا تحذيرًا من تركها إذ قال تعالىٰ: ﴿فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهَوَاتِ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا﴾ [مريم: ٥٩].

وكذا بعض مشاهد القيامة والجنة والنار في قوله تعالىٰ: ﴿فَوَرَبِّكَ

لَنَحْشُرَنَّهُمْ وَالشَّيَاطِينَ ثُمَّ لَنُحْضِرَنَّهُمْ حَوْلَ جَهَنَّمَ جِثِيًّا (٦٨) ثُمَّ لَنَنزِعَنَّ مِن كُلِّ شِيعَةٍ أَيُّهُمْ أَشَدُّ عَلَى الرَّحْمَنِ عِتِيًّا﴾ [مريم: ٦٩] وقوله: ﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا﴾ [مريم: ٧١].

وكذا في قوله تعالى: ﴿يَوْمَ نَحْشُرُ الْمُتَّقِينَ إِلَى الرَّحْمَنِ وَفْدًا (٨٥) وَنَسُوقُ الْمُجْرِمِينَ إِلَى جَهَنَّمَ وِرْدًا﴾ [مريم: ٨٥، ٨٦].

وقوله تعالى: ﴿إِن كُلُّ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتِي الرَّحْمَنِ عَبْدًا﴾ [مريم: ٩٣].

وكذا في قوله تعالى: ﴿جَنَّاتِ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدَ الرَّحْمَنُ عِبَادَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّهُ كَانَ وَعْدُهُ مَأْتِيًّا (٦١) لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا إِلَّا سَلَامًا وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيًّا﴾ [مريم: ٦١، ٦٢].

وكذلك في هذه السورة المباركة تقرير وحدانية الله عزَّ وجل ونفي الشريك والولد وقد تكرر هذا كثيراً في هذه السورة المباركة، فمن ذلك قوله تعالى: ﴿مَا كَانَ لِلَّهِ أَن يَتَّخِذَ مِن وَلَدٍ سُبْحَانَهُ إِذَا قَضَى أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ﴾ [مريم: ٣٥].

وكذا قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا (٨٨) لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِدًّا (٨٩) تَكَادُ السَّمَوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ الْأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا (٩٠) أَن دَعَوْا لِلرَّحْمَنِ وَلَدًا (٩١) وَمَا يَنبَغِي لِلرَّحْمَنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا﴾ [مريم: ٨٨-٩٢].

وكذلك في ثناياها، وفي خاتمتها تذكيرٌ بالقرون التي أبادها الله عزَّ وجل وأفناها؛ لعلَّ متعظًا أن يتعظ ومُدكرًا أن يدكر.

قال تعالى: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هُمْ أَحْسَنُ أَثَاثًا وَرِءْيًا﴾ [مريم: ٧٤].

وقال تعالى: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هَلْ تُحِسُّ مِنْهُم مِّنْ أَحَدٍ أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزًا﴾ [مريم: ٩٨].

وفي ثنايا السورة فتحٌ لباب التوبة أمام التائبين حتى لا ييأس أحدٌ من رحمة الله، وذلك في قوله تعالى: ﴿إِلاَّ مَن تَابَ وَآمَنَ..﴾ [مريم: ٦٠].

وفي ثناياها أن من سلك طريق الهداية سهله الله له وزاده هداية: ﴿وَيَزِيدُ اللَّهُ الَّذِينَ اهْتَدَوْا هُدًى﴾ [مريم: ٧٦].

وفي ثناياها أن الأعمال تكتب: ﴿كَلاَّ سَنَكْتُبُ مَا يَقُولُ﴾ [مريم: ٧٩].

وفي ثناياها الحث على الباقيات الصالحات: ﴿وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ مَّرَدًّا﴾ [مريم: ٧٦].

وفي ثناياها تحذير من الشيطان وخطواته: ﴿يَا أَبَتِ لا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ﴾ [مريم: ٤٤].

وحث على التذكير بالقرآن في قوله تعالى: ﴿لِتُبَشِّرَ بِهِ الْمُتَّقِينَ وَتُنذِرَ بِهِ قَوْمًا لُّدًّا﴾ [مريم: ٩٧].

وفي ثناياها تذكير ببداية الخلق: ﴿أَوَلا يَذْكُرُ الإِنسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِن قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْئًا﴾ [مريم: ٦٧].

وفي ثناياها أن الكفر من أسباب خراب العالم.

وذلك من قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا (٨٨) لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِدًّا (٨٩) تَكَادُ السَّمَوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ الأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا (٩٠) أَن دَعَوْا لِلرَّحْمَنِ وَلَدًا﴾ [مريم: ٨٨-٩١].

وفي ثناياها الاهتمام بمصالح العباد وترتيب أحوالهم حتى ولو بعد الممات

وذلك في قول زكريا عليه السلام: ﴿وَإِنِّي خِفْتُ الْمَوَالِيَ مِن وَرَائِي..﴾ [مريم: ٥].

وفي السورة الكريمة شيء من التفصيل في قصة مريم عليها السلام وكيف حملته وكيف أتت به قومها تحمله، وبعض ما قاله لها قومها، وما أجابت به، وما أجاب به ولدها نبي الله عيسىٰ عليه السلام.

وإقراره ـ عليه السلام ـ بالعبودية لله عزَّ وجل فقد قال في أول كلمة نطق بها: ﴿إِنِّي عَبْدُ اللهِ..﴾ [مريم: ٣٠].

وكذا تفصيلٌ في شأن زكريا عليه السلام ودعائه بالولد وبشارته بذلك.

وفي ثناياها بيان أن الأمور مقدرة، قال تعالىٰ: ﴿فَلَا تَعْجَلْ عَلَيْهِمْ إِنَّمَا نَعُدُّ لَهُمْ عَدًّا﴾ [مريم: ٨٤].

وفي ثناياها تبرؤ الآلهة من عابديها: ﴿كَلَّا سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا﴾ [مريم: ٨٢].

إلىٰ غير ذلك من الفوائد التي لا تنتهي من هذه السورة المباركة.

وكذا في ثنايا السورة تثار جملة مسائل من الفقه فمن ذلك حكم تمني الموت يُثار عند قول مريم عليها السلام: ﴿يَا لَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَذَا وَكُنتُ نَسْيًا مَّنسِيًّا﴾ [مريم: ٢٣] ومتىٰ يشرع هذا التمني، ومتىٰ لا يُشرع؟

وأيضًا حكم البكاء في الصلاة عند قوله تعالىٰ: ﴿خَرُّوا سُجَّدًا وَبُكِيًّا﴾ [مريم: ٥٨].

وكذلك ففي طيَّات هذه السورة المباركة، وبين ثناياها آداب عامة، وآداب خاصة، فتبين السورة بعض آداب الدعاء:

ومن ذلك كونه كان خفيًّا.

ومن ذلك تقديم الدعاء بشيء من التوسلات.

كالتوسل بإظهار الضعف والعجز بين يدي الله عزَّ وجل.

والتوسل بسابق إحسان الله للعبد.

وكذا بيان سبب الدعوة التي يدعو بها الشخص.

وكذا الثقة في الله عزَّ وجل وأنه قادرٌ على كل شيء.

وكذا تذكير المعتدين بالله، من قول مريم عليها السلام: ﴿إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمَنِ مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيًّا﴾ [مريم: ١٨].

وكذا تأدب جبريل عليه السلام والملائكة إذ قالوا: ﴿وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلاَّ بِأَمْرِ رَبِّكَ﴾ [مريم: ٦٤].

واعترافهم بالضعف والعجز ووصفهم الله بالكمال: ﴿لَهُ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا وَمَا خَلْفَنَا وَمَا بَيْنَ ذَلِكَ وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا﴾ [مريم: ٦٤].

وكذا حملت السورة بيان وجوه الحق في المسائل المختلف فيها وتقريرها بقوة وصراحة ووضوح.

كما قال تعالى: ﴿ ذَلِكَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ قَوْلَ الْحَقِّ الَّذِي فِيهِ يَمْتَرُونَ﴾ [مريم: ٣٤].

وكما في قوله تعالى: ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَحْشُرَنَّهُمْ وَالشَّيَاطِينَ﴾ [مريم: ٦٨].

وكذا القوة في الدعوة إلى المباهلة في قوله تعالى: ﴿قُلْ مَن كَانَ فِي الضَّلالَةِ فَلْيَمْدُدْ لَهُ الرَّحْمَنُ مَدًّا﴾ [مريم: ٧٥].

وكذا الرد الجميل الحسن على الإنسان الكافر القائل: أئذا ما مت لسوف أُخرج حيًّا، إذ قال الله سبحانه: ﴿أَوَلا يَذْكُرُ الإِنسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِن قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْئًا﴾ [مريم: ٦٧].

وكذلك تحث عدة أيات من هذه السورة المباركة على بر الوالدين والإحسان إليهما.

كما في قوله تعالى بشأن يحيى عليه السلام: ﴿وَبَرًّا بِوَالِدَيْهِ وَلَمْ يَكُن جَبَّارًا عَصِيًّا﴾ [مريم: ١٤].

وقول عيسى عليه السلام: ﴿وَبَرًّا بِوَالِدَتِي﴾ [مريم: ٣٢].

وكذا قول الخليل إبراهيم عليه السلام لأبيه: ﴿ سَلامٌ عَلَيْكَ ﴾ [مريم: ٤٧].

وكذلك في هذه السورة المباركة الكريمة طائفة من المعجزات والآيات الدالة على قدرة الله سبحانه وتعالى.

فمن ذلك أن زكريا عليه السلام رُزق بيحيى بعد أن بلغ من الكبر عتيًّا وكانت امرأته عاقراً.

وأيضًا في عدم استطاعة زكريا عليه السلام الكلام عندما حملت امرأته بيحيى عليه السلام.

وأيضًا في كون مريم عليها السلام حملت بعيسى من غير زوج.

وأيضًا قوله تعالى: ﴿قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا﴾ [مريم: ٢٤].

وكذا نطق عيسى عليه السلام في المهد ومخاطبته القوم.

وكذا رفع إدريس عليه السلام مكانًا عليًّا.

ثم تختم السورة الكريمة ببشارة وإنذار وتحذير، بشارة لأهل الإيمان: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَنُ وُدًّا﴾ [مريم: ٩٦] أي محبة في قلوب العباد.

وبشارة بالقرآن، وما فيه من البشارات ﴿لِتُبَشِّرَ بِهِ الْمُتَّقِينَ﴾ [مريم: ٩٧].

وتحذير لأعداء الدين وأهل الجدل والخصومات ﴿وَتُنذِرَ بِهِ قَوْمًا لُّدًّا﴾ [مريم: ٩٧].

وكذا تذكير بمصارع الغابرين: ﴿هَلْ تُحِسُّ مِنْهُم مِّنْ أَحَدٍ أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزًا﴾ [مريم: ٩٨].

نفعنا الله بكتابه ورزقنا الادِّكار والاتعاظ والاعتبار وأسكننا ربنا فسيح الجنان.

والحمد لله رب العالمين.

* * *

سُورَةُ مَرْيَم

ترتيبها ١٩ — آياتها ٩٨

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

كٓهيعٓصٓ ﴿١﴾ ذِكْرُ رَحْمَتِ رَبِّكَ عَبْدَهُۥ زَكَرِيَّآ ﴿٢﴾
إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥ نِدَآءً خَفِيًّا ﴿٣﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّى وَهَنَ ٱلْعَظْمُ
مِنِّى وَٱشْتَعَلَ ٱلرَّأْسُ شَيْبًا وَلَمْ أَكُنۢ بِدُعَآئِكَ رَبِّ
شَقِيًّا ﴿٤﴾ وَإِنِّى خِفْتُ ٱلْمَوَٰلِىَ مِن وَرَآءِى وَكَانَتِ
ٱمْرَأَتِى عَاقِرًا فَهَبْ لِى مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا ﴿٥﴾ يَرِثُنِى وَيَرِثُ
مِنْ ءَالِ يَعْقُوبَ ۖ وَٱجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا ﴿٦﴾ يَٰزَكَرِيَّآ
إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَٰمٍ ٱسْمُهُۥ يَحْيَىٰ لَمْ نَجْعَل لَّهُۥ مِن قَبْلُ سَمِيًّا
﴿٧﴾ قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِى غُلَٰمٌ وَكَانَتِ ٱمْرَأَتِى
عَاقِرًا وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ ٱلْكِبَرِ عِتِيًّا ﴿٨﴾ قَالَ كَذَٰلِكَ
قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَىَّ هَيِّنٌ وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِن قَبْلُ وَلَمْ تَكُ
شَيْـًٔا ﴿٩﴾ قَالَ رَبِّ ٱجْعَل لِّىٓ ءَايَةً ۚ قَالَ ءَايَتُكَ أَلَّا
تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ ثَلَٰثَ لَيَالٍ سَوِيًّا ﴿١٠﴾ فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ
مِنَ ٱلْمِحْرَابِ فَأَوْحَىٰٓ إِلَيْهِمْ أَن سَبِّحُوا۟ بُكْرَةً وَعَشِيًّا ﴿١١﴾

﴿يَٰيَحۡيَىٰ خُذِ ٱلۡكِتَٰبَ بِقُوَّةٖۖ وَءَاتَيۡنَٰهُ ٱلۡحُكۡمَ صَبِيّٗا ١٢
وَحَنَانٗا مِّن لَّدُنَّا وَزَكَوٰةٗۖ وَكَانَ تَقِيّٗا ١٣ وَبَرَّۢا بِوَٰلِدَيۡهِ وَلَمۡ
يَكُن جَبَّارًا عَصِيّٗا ١٤ وَسَلَٰمٌ عَلَيۡهِ يَوۡمَ وُلِدَ وَيَوۡمَ يَمُوتُ
وَيَوۡمَ يُبۡعَثُ حَيّٗا ١٥﴾

س: اذكر معنى ما يلي:

كهيعص - نادى - نداءً - خفيًا - وَهن - اشتعل الرأس شيبًا ولم أكن بدعائك رب شقيًّا - خفت الموالي - من ورائي - امرأتي - عاقرًا - فهب لي من لدنك - وليًّا - واجعله رب رضيًّا - سميًّا - أنى يكون - من الكبر عتيًّا - قال كذلك - هين - ولم تك شيئًا - اجعل لي آية - آيتك - ثلاث ليال سويًّا - المحراب - فأوحى إليهم - سبحوا - بكرةً - عشيًّا - خذ الكتاب بقوة - آتيناه - الحكم صبيًّا - حنانًا - من لدنا - زكاةً - تقيًّا - برًّا بوالديه - جبارًا - عصيًّا - سلام عليه.

ج:

الكلمة	معناها
﴿كٓهيعٓصٓ﴾	حروف مقطعةٌ بُدئت بها بعض السور، الله أعلم بمعناها، وقد قال بعض العلماء: إنها سيقت للتحدي والإعجاز[1].
﴿نَادَىٰ﴾	دعا - سأل.

(١) وجه ذلك أنها أحرفٌ تعرفونها، تقرءونها وتكتبونها، لكن لا تستطيعون أن تجعلوا منها قرآنًا ولا سورة ولا آية.

الكلمة	معناها
﴿ نداءً خفيًا ﴾	دعاءً في السرِّ والخفاء .
﴿ خفيًا ﴾	سرًّا(١) .
﴿ وَهَن ﴾	ضعف ـ رقَّ من الكِبر ـ نَحَلَ .
﴿ وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ ﴾	امتلأ الرأس ـ اضطرم المشيب في السواد، انتشر بياض الشيب فيه .
﴿ شَيْبًا ﴾	بياضًا .
﴿ وَلَمْ أَكُنْ بِدُعَائِكَ رَبِّ شَقِيًّا ﴾	لم يتسبب دعائي لك في شقائي ـ لم أعهد منك إلا الإجابة في الدعاء، ولم تردني قط فيما سألتك .
﴿ خِفْتُ الْمَوَالِيَ ﴾	خفت من الموالي .
﴿ الْمَوَالِيَ ﴾	أبناء عمومتي وعصبتي .
﴿ من ورائي ﴾	من بعدي .
﴿ امْرَأَتِي ﴾	زوجتي .
﴿ عاقرا ﴾	لا تلد ـ لا تحبل .
﴿ فَهَبْ لي ﴾	فارزقني .
﴿ من لَّدُنكَ ﴾	من عندك .
﴿ وَلِيًّا ﴾	ولدًا ـ وارثًا ومعينًا .
﴿ وَاجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا ﴾	واجعله يا رب مرضيًّا ترضاه أنت ثم يرتضيه عبادُك دينًا وخُلقًا ـ راضيًا بقضائك وقدرك، أي : مرضيًّا عندك وعند

(١) انظر أثر قتادة عند الطبري (٢٣٤٧٧).

الكلمة	معناها
	خلقك في دينه وخُلُقه .
﴿ سَمِيًّا ﴾	شبيهًا - مسمًّى باسمه (أي : لم يكن أحدٌ من قبله اسمه يحيىٰ) . وقيل : لم تلد العواقر قبله مثله .
﴿ أَنَّىٰ يَكُونُ ﴾	من أي وجهٍ يكون - من أي وجهٍ يأتي .
﴿ بلغت من الْكِبرِ عتيًا ﴾	بلغت أشد الكبر[1] - تقدم بي العمر جدًّا ، ويبس عظمي ولم يعد فيه لقاحٌ ولا جماع .
﴿ قَالَ كَذَلِكَ ﴾	الأمر كما ذكرت .
﴿ هَيِّنٌ ﴾	سهلٌ - يسيرٌ .
﴿ وَلَمْ تَكُ شَيْئًا ﴾	ولم تك شيئًا ذا قيمة ، ولم تك شيئًا يُذكر[2] .
﴿ اجْعَل لِّي آيَةً ﴾	اجعل لي علامة ودلالة (استدل بها علىٰ أن امرأتي قد حملت) .
﴿ آيَتُكَ ﴾	دليلك وعلامتك (علىٰ أن امرأتك حملت) .
﴿ ثَلاثَ لَيَالٍ سَوِيًّا ﴾	ثلاث ليالٍ وأنت سويٌّ صحيح لست بمريض لا تمنعك من الكلام آفة ، إنما المنع بلا سبب ظاهر .

(١) وكل متناهٍ إلىٰ غايته في شيءٍ فهو عاتٍ فيه فالعاتي في الكبر هو الذي تقدم به السن جداً . والعاتي في الظلم هو شديد الظلم جداً ، وهو الذي بلغ في الظلم غاية .

(٢) كما قال تعالىٰ : ﴿هل أتىٰ علىٰ الإنسان حين من الدهر لم يكن شيئًا مذكوراً﴾ .

الكلمـــــة	معنـــاهـــــــا
﴿الْمِحْرَابِ﴾	المصلى[١] والمحراب أشرف المجالس وأرفعها .
﴿فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ﴾	فأشار إليهم - فأمرهم - فكتب إليهم .
﴿سَبِّحُوا﴾	صَلُّوا - قولوا : سبحان الله .
﴿بُكْرَةً﴾	عند البكور (أي : صباحًا) أول النهار .
﴿عَشِيًّا﴾	في وقت العشي - آخر النهار .
﴿خُذِ الْكِتَابَ بِقُوَّةٍ﴾	أقبل على الكتاب (قيل : هو التوراة) بجدٍّ واجتهادٍ وحرصٍ - تعلَّم الكتاب .
﴿آتَيْنَاهُ﴾	أعطيناه .
﴿الْحُكْمَ﴾	الفهم (لكتاب الله) والعلم والجد والعزم والإقبال على الخير .
﴿صَبِيًّا﴾	في حال صباه (قبل البلوغ) - صغيرٌ حدث .
﴿حَنَانًا﴾	رحمة - محبةً - تعطفًا - تعظيمًا - شفقةً .
﴿مِن لَدُنَّا﴾	من عندنا[٢] (لا يملكها غيرنا) .

(١) ودليله ﴿فنادته الملائكة وهو قائم يصلي في المحراب﴾ .

(٢) قد رُوي عن ابن عباس أنه قال : لا أدري ما الحنان؟ (الطبري أثر ٢٣٥٦٠) .

وقد أورد له الحافظ ابن كثير إسنادًا صحيحًا من طريق ابن جريج قال : أخبرني عمرو بن دينار أنه سمع عكرمة عن ابن عباس قال : لا والله لا أدري ما حنانًا؟

الكلمة	معناها
﴿ زَكَاةً ﴾	طهارةً من الذنوب والمعاصي واستعمالاً للبدن في طاعةِ ربِّه .
﴿ تَقِيًّا ﴾	مُتقيًا لله مجتنبًا محارمه ، خائفًا من عقابه مسارعًا إلى طاعته . وقيل : طهر فلم يعمل ذنبًا .
﴿ بَرًّا بِوَالِدَيْهِ ﴾	مُطيعًا لوالديه مُحبًّا لهما - مسارعًا في الطاعة والمحبة مُحسنًا إليهما - لطيفًا بهما .
﴿ جَبَّارًا ﴾	مستكبرًا - عاقًّا .
﴿ عَصِيًّا ﴾	ذو عصيانٍ - متمردًا - مخالفًا الأمر .
﴿ وَسَلَامٌ عَلَيْهِ ﴾	أمانٌ عليه .

بعض الكلام على الحروف المقطعة

س: اذكر بعض أقوال أهل العلم في تفسير قوله تعالى: ﴿كهيعص﴾.

ج: لأهل العلم في ذلك جملة أقوال:

أحدها: أن الكاف والهاء والياء والعين والصاد بدايات لأسماء من أسماء الله عزَّ وجل.

دلَّ كل حرف منها على اسم من أسمائه سبحانه وتعالى، فقالوا:

الكاف كبير (أي اسم الله الكبير)، وقيل كافٍ (أي اسم الله الكافي).

وقيل: إنها حرف من حروف اسمه الذي هو كريم.

والهاء: هاد.

والياء: يمين، وقيل حرف من حروف اسمه الذي هو (حكيم).

وقيل هي حرفٌ من قول القائل (يا من يجير ولا يجار عليه).

والعين من عالم، وقيل حرف من حروف اسمه الذي هو عزيزٌ، وقيل: عدلٌ.

وأما الصاد: فقالوا صادق.

وقال آخرون من أهل العلم: إن ﴿كَهيعَص﴾ كلها اسم الله عزَّ وجل، وأوردوا أثرًا عن عليٍّ رضي الله عنه أنه كان يقول يا ﴿كَهيعَص﴾ اغفر لي.

وقال غيرهم من أهل العلم: إنها اسمٌ من أسماء القرآن.

وثمَّ وجه رابع حاصله: أن هذه أحرف مقطعة بدُئت بها بعض السور، ولا يعلم معناها إلا الله عزَّ وجل، فلم يرد تفسيرٌ صريح لها في الكتاب ولا في السنة (فيما علمنا) فترك العلم بتأويلها إلى الله أسلم وأحكم.

ثم إن من العلماء من قال: إنها سيقت للتحدي، فكأن المعنى (ك، هـ، ي، ع، ص): أحرف تعرفونها، تقرءونها وتكتبونها، ولكن لا تستطيعون أن تؤلفوا منها قرآنًا، ولا سورةً ولا آية.

والعلم عند الله تعالى.

* * *

س: ورد أن جعفر بن أبي طالب رضي الله عنه قرأ صدر هذه السورة المباركة (سورة مريم) على النجاشي وأساقفته، اذكر الحديث بذلك، مع بيان صحته ومن أخرجه؟

ج: أما الحديث فهو حديث حسن الإسناد، وقد أخرجه الإمام أحمد(١) وغيره من حديث أم سلمة زوج النبي ﷺ قالت: «لما نزلنا أرض الحبشة جاورنا بها خير جار (النجاشي)، أمنا على ديننا وعبدنا الله تعالى لا نؤذى ولا نسمع شيئًا نكرهه، فلما بلغ ذلك قريشًا ائتمروا أن يبعثوا إلى النجاشي فينا رجلين جلدين وأن يهدوا للنجاشي هدايا مما يستطرف من متاع مكة، وكان من أعجب ما يأتيه منها إليه الأدم فجمعوا له أدمًا كثيرًا، ولم يتركوا من بطارقته بطريقًا إلا أهدوا له هدية، ثم بعثوا بذلك عبدالله بن أبي ربيعة ابن المغيرة المخزومي وعمرو بن العاص بن وائل السهمي وأمروهما أمرهم،

---

(١) أحمد في «المسند» (٥/ ٢٩٠) و(١/ ٢٠٢).

وقالوا لهما: ادفعا إلىٰ كل بطريق هديته قبل أن تكلموا النجاشي فيهم ثم قدموا للنجاشي هداياه ثم سلوه أن يسلمهم إليكم قبل أن يكلمهم.

قالت: فخرجا فقدما علىٰ النجاشي ونحن عنده بخير دارٍ وخير جارٍ فلم يبق من بطرقته بطريق إلا دفعا إليه هديته قبل أن يكلما النجاشي، ثم قالا لكل بطريق منهم إنه قد صبأ إلىٰ بلد الملك منا غلمان سفهاء فارقوا دين قومهم ولم يدخلوا في دينكم وجاءوا بدين مبتدع لا نعرفه نحن ولا أنتم، وقد بعثنا إلىٰ الملك فيهم أشراف قومهم لنردهم فإذا كلمنا الملك فيهم فأشيروا عليه بأن يُسلمهم إلينا ولا يكلمهم؛ فإن قومهم أعلىٰ بهم عينًا وأعلم بما عابوا عليهم فقالوا: نعم. ثم إنهما قربا هداياهم إلىٰ النجاشي فقبلها منهما ثم كلماه فقالا له: أيها الملك إنه قد صبأ إلىٰ بلدك منا غلمان سفهاء فارقوا دين قومهم ولم يدخلوا في دينك وجاءوا بدين مبتدع لا نعرفه نحن ولا أنت، وقد بعثنا إليك فيهم أشراف قومهم من آبائهم وأعمامهم وعشائرهم لتردهم إليهم، فهم أعلىٰ بهم عينًا وأعلم بما عابوا عليهم وعاتبوهم فيه.

قالت: ولم يكن شيء أبغض إلىٰ عبدالله بن أبي ربيعة وعمرو بن العاص من أن يسمع النجاشي كلامهم، فقالت بطارقته حوله: صدقوا أيها الملك، قومهم أعلىٰ بهم عينًا وأعلم بما عابوا عليهم فأسلمهم إليهما فليردانهم إلىٰ بلادهم وقومهم.

قالت: فغضب النجاشي ثم قال: لا هايْمُ الله إذًا لا أسلمهم إليهما ولا أكاد قومًا جاوروني ونزلوا بلادي واختاروني علىٰ من سواي حتىٰ أدعوهم فأسألهم ما يقول هذان في أمرهم، فإن كانوا كما يقولون أسلمتهم إليهما ورددتهم إلىٰ قومهم، وإن كانوا علىٰ غير ذلك منعتهم منهما وأحسنت

جوارهم ما جاوروني.

قالت: ثم أرسل إلى أصحاب رسول الله ﷺ فدعاهم، فلما جاءهم رسوله اجتمعوا ثم قال بعضهم لبعض: ما تقولون للرجل إذا جئتموه قالوا: نقول والله ما علمنا وما أمرنا به نبينا ﷺ، كائن في ذلك ما هو كائن.

فلما جاءوه وقد دعا النجاشي أساقفته فنشروا مصاحفهم حوله ليسألهم فقال: ما هذا الدين الذي فارقتم فيه قومكم ولم تدخلوا في ديني ولا في دين أحد من هذه الأمم؟ قالت: فكان الذي كلمه جعفر بن أبي طالب فقال له: أيها الملك كنا قومًا أهل جاهلية نعبد الأصنام ونأكل الميتة ونأتي الفواحش ونقطع الأرحام ونسيء الجوار يأكل القوي منا الضعيف، فكنا على ذلك حتى بعث الله إلينا رسولاً منا نعرف نسبه وصدقه وأمانته وعفافه، فدعانا إلى الله تعالى لنوحده ونعبده ونخلع ما كنا نعبد نحن وآباؤنا من دونه من الحجارة والأوثان، وأمر بصدق الحديث وأداء الأمانة وصلة الرحم وحسن الجوار والكف عن المحارم والدم، ونهانا عن الفواحش وقول الزور وأكل مال اليتيم وقذف المحصنة، وأمرنا أن نعبد الله وحده لا نشرك به شيئًا، وأمرنا بالصلاة والزكاة والصيام قال: فعدد عليه أمور الإسلام، فصدقناه وآمنا به واتبعناه على ما جاء به، فعبدنا الله وحده فلم نشرك به شيئًا، وحرمنا ما حرم علينا، وأحللنا ما أحل لنا فعدا علينا قومنا فعذبونا ففتنونا عن ديننا ليردونا إلى عبادة الأوثان من عبادة الله وأن نستحل ما كنا نستحل من الخبائث، ولما قهرونا وظلمونا وشقوا علينا وحالوا بيننا وبين ديننا خرجنا إلى بلدك، واخترناك على من سواك ورغبنا في جوارك ورجونا أن لا نظلم عندك أيها الملك.

قالت: فقال له النجاشي: هل معك ما جاء به عن الله من شيء؟

قالت: فقال له جعفر: نعم.

فقال له النجاشي: فاقرأه عليَّ.

فقرأ عليه صدراً من «كهيعص».

قالت: فبكى والله النجاشي حتى أخضل لحيته، وبكت أساقفته حتى أخضلوا مصاحفهم حين سمعوا ما تلا عليهم، ثم قال النجاشي: إن هذا والذي جاء به موسى ليخرج من مشكاة واحدة، انطلقا فوالله لا أسلمهم إليكم أبدًا ولا أكاد.

قالت أم سلمة رضي الله عنها: فلما خرجا من عنده قال عمرو بن العاص: والله لآتِيَنَّهُ غداً أعيبهم عنده ثم أستأصل به خضراءهم.

قالت: فقال له عبدالله بن أبي ربيعة - وكان أتقى الرجلين فينا - لا تفعل فإن لهم أرحامًا وإن كانوا قد خالفونا.

قال: والله لأخبرنه أنهم يزعمون أن عيسى ابن مريم عليه السلام عبد.

قالت: ثم غدا عليه الغد فقال له: أيها الملك إنهم يقولون في عيسى ابن مريم قولاً عظيمًا، فأرسل إليهم فسلهم عما يقولون فيه.

قالت أم سلمة: فأرسل إليهم يسألهم عنه قالت: ولم ينزل بنا مثلها، فاجتمع القوم فقال بعضهم لبعض: ماذا تقولون في عيسى إذا سألكم عنه؟ قالوا: نقول والله فيه ما قال الله سبحانه وتعالى وما جاء به نبينا ﷺ، كائنًا في ذلك ما هو كائن.

فلما دخلوا عليه قال لهم: ما تقولون في عيسى ابن مريم؟ فقال له جعفر بن أبي طالب رضي الله عنه نقول فيه الذي جاء به نبينا ﷺ، هو عبدالله ورسوله وروحه وكلمته ألقاها إلى مريم العذراء البتول قالت: فضرب

النجاشي يده على الأرض فأخذ منها عوداً ثم قال ما عدا عيسى ابن مريم ما قلت، هذا العود، فناخرت بطارقته حوله حين قال ما قال، فقال: وإن نخرتم والله اذهبوا فأنتم سيوم بأرضي - والسيوم الآمنون - من سبّكم غرم، ثم من سبكم غرم، ثم من سبكم غرم، فما أحب أن لي دير ذهب وأني آذيت رجلاً منكم، والدير بلسان الحبشة الجبل، ردوا عليهما هداياهما فلا حاجة لنا بها فوالله ما أخذ الله مني الرشوة حين رد عليّ ملكي فآخذ الرشوة فيه، وما أطاع فيّ الناس فأطيعهم فيه قالت: فخرجا من عنده مقبوحين مردوداً عليهما ما جاءا به، وأقمنا عنده بخير دار مع خير جار.

قالت: فوالله إنا على ذلك إذ نزل به - يعني من ينازعه في ملكه - قالت: فوالله ما علمنا حزناً قط كان أشد من حزن حزناه عند ذلك تخوفاً أن يظهر ذلك على النجاشي فيأتي رجل لا يعرف من حقنا ما كان النجاشي يعرف منه.

قالت: وسار النجاشي وبينهما عرض النيل قالت: فقال أصحاب رسول الله ﷺ من رجل يخرج حتى يحضر وقعة القوم ثم يأتينا بالخبر قالت: فقال الزبير بن العوام رضي الله عنه: أنا، قالت: وكان من أحدث القوم سنًّا، قالت: فنفخوا له قربة فجعلها في صدره ثم سبح عليها حتى خرج إلى ناحية النيل التي بها ملتقى القوم، ثم انطلق حتى حضرهم قالت: ودعونا الله تعالى للنجاشي بالظهور على عدوه والتمكين له في بلاده، واستوثق عليه أمر الحبشة فكنا عنده في خير منزل حتى قدمنا على رسول الله ﷺ وهو بمكة».

* * *

س: على أي أساس رفع ﴿ذِكْرُ﴾ في قوله تعالى: ﴿ذِكْرُ رَحْمَتِ رَبِّكَ عَبْدَهُ زَكَرِيَّا﴾ وما معنى ذلك؟

ج: الذي اختاره الطبري في ذلك: أن ﴿ذِكْرُ﴾ رفع بمضمر محذوف، فالمعنى (هذا ذِكرُ) كما في قوله تعالى: ﴿بَرَاءَةٌ مِّنَ اللهِ وَرَسُولِهِ﴾ [التوبة: ١] أي هذه براءة، وكما في قوله تعالى: ﴿سُورَةٌ أَنزَلْنَاهَا﴾ [النور: ١] أي هذه سورةٌ أنزلناها.

وقال آخرون من أهل العلم: إن ﴿ذِكْرُ﴾ مرفوعة على أنها خبرٌ فالمعنى مما سنذكره عليك ذكر رحمة ربك.

وقال آخرون: المعنى: فيما يُقص عليكم ذكر رحمة ربك.

* * *

س: على أي أساس نصب العبد في قوله تعالى: ﴿عَبْدَهُ زَكَرِيَّا﴾؟

ج: قال بعض أهل العلم في ذلك إن العبد نصب بالرحمة فهذا كقول القائل: ذِكر ضَربِ زيدٍ عَمراً، فـ«عمراً» منصوب بالضرب.

* * *

شيءٌ من قصة زكريا عليه السلام وكذا ولده يحيى عليه السلام

س: وضح المعنى الإجمالي لقوله تعالى: ﴿ذِكْرُ رَحْمَتِ رَبِّكَ عَبْدَهُ زَكَرِيَّا﴾.

ج: المعنى، والله تعالى أعلم، هذا ذِكر رحمة ربك بعبده زكريا.

ويحتمل المعنى أيضًا: هذا ذِكر ربك عبده زكريا برحمته.

وأيضًا يحتمل: هذا ذِكرٌ لرحمة الله بعبده زكريا.

وأيضًا يحتمل: سنقص عليك، وسنذكر لك رحمة الله عزَّ وجل بعبده زكريا.

* * *

س: ماذا كان يعمل زكريا عليه السلام؟ وما المستفاد من ذلك؟

ج: كان زكريًّا عليه السلام يعمل نجارًا، أخرج ذلك مسلم[1] في «صحيحه» والمستفاد من ذلك الحرص على الأكل من عمل اليد فهو بلا شك أولى من التسوُّل وسؤال الناس، وهكذا كان الأنبياء عليهم الصلاة والسلام يأكلون من عمل أيديهم، فيعملون بأيديهم ويتاجرون ويرعون الأغنام إلى غير ذلك من الأعمال الطيبة الحلال.

---

(١) مسلم (٢٣٧٩).

فقد أمر الله عزَّ وجل نوحًا عليه السلام فقال له: ﴿وَاصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا﴾ [هود: ٣٧].

وقال موسى عليه السلام، لما سئل عن التي في يمينه فقال: ﴿هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّأُ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَى غَنَمِي وَلِيَ فِيهَا مَآرِبُ أُخْرَى﴾ [طه: ١٨].

وقال الله لداود عليه السلام: ﴿أَنِ اعْمَلْ سَابِغَاتٍ وَقَدِّرْ فِي السَّرْدِ﴾ [سبأ: ١١].

وقال نبينا ﷺ: «ما بعث اللهُ نبيًّا إلا يرعى الغَنَمَ».

قالوا: وأنت يا رسول الله؟ قال: «نعم، كنتُ أرعاها على قراريطَ لأهلِ مكةَ»(١).

وقد قال الله تبارك وتعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ إِلاَّ إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِي الأَسْوَاقِ﴾ [الفرقان: ٢٠].

وفي «الصحيح» عن رسول الله ﷺ قال: «ما أكلَ أحدٌ طعامًا قطُّ خيرًا من أن يأكلَ من عملِ يدِه، وإن نبي الله داود عليه السلام كانَ يأكلُ من عمل يده»(٢).

وفي «الصحيحين» مرفوعًا: «والذي نفسي بيده لأن يأخذ أحدكم حبله فيحتطبَ على ظهره خيرٌ له من أن يأتيَ رجلاً فيسأله أعطاه أو منعه»(٣).

* * *

---

(١) البخاري (٢٢٦٢).

(٢) البخاري (٢٢٠٧).

(٣) البخاري (١٤٧٠) ومسلم (١٠٤٢).

سبب إخفاء الدعاء

س: لماذ نادى زكريا عليه السلام ربَّه تبارك وتعالى نداء خفيًّا؟

ج: قال بعض أهل العلم: إنما ناداه نداء خفيًّا كراهية للرياء وبُعداً عن الرياء.

وقال بعض العلماء: إنه نادىٰ ربَّه نداء خفيًّا لئلا يُنسب في طلب الولد إلىٰ الرعونة لكونه أصبح كبيراً.

أي: حتىٰ لا يقول قومه: انظروا إلىٰ هذا الشيخ الكبير الذي قد بلغ من الكبر عتيًّا، واشتعلت رأسه شيباً، وكانت امرأته عاقراً، انظروا إليه يدعو بالذرية والولد!! فيتهمونه بما لا يليق به فيأثمون بذلك.

ويؤخذ من هذا أن الشخص لا يفعل أمام الأشخاص ما تنكره عقولهم وقلوبهم إلا بعد تمهيدٍ وتوطئةٍ وإعلام وإفهام، هذا في غالب الأحوال.

وقد قال عليٌّ رضي الله عنه: حدِّثُوا الناس بما يعرفون؛ أتحبون أن يكذب الله ورسوله[(١)].

وقال النبي ﷺ لعائشة رضي الله عنها: **«لولا حداثةُ عهد قومك بالكفر لنقضتُ الكعبة وجعلتُها على أساسِ إبراهيمَ»**[(٢)].

وفي بعض الروايات في «الصحيح» كذلك: **«فأخاف أن تنكر قلوبهم أن**

---

(١) البخاري (١٢٧).

(٢) البخاري (١٥٨٥) ومسلم (١٣٣٣).

أُدخل الجَدْر في البيت وأن ألصق بابه بالأرض»[١] .

قال القرطبي رحمه الله: واختلف في إخفائه هذا النداء؛ فقيل: أخفاه من قومه لئلا يلام على مسألة الولد عند كبر السن؛ ولأنه أمر دنيوي، فإن أجيب فيه نال بغيته، وإن لم يجب لم يعرف بذلك أحد.

وقيل: مخلصًا فيه لم يطلع عليه إلا الله تعالى.

وقيل: لما كانت الأعمال الخفية أفضل وأبعد من الرياء؛ أخفاه.

وقيل: ﴿خَفِيًّا﴾ سرًّا من قومه في جوف الليل؛ والكل محتمل والأوّل أظهر؛ والله أعلم.

وقال الشنقيطي رحمه الله تعالى: وإنما كان الإخفاء أفضل من الإظهار؛ لأنه أقرب إلى الإخلاص، وأبعد من الرياء.

فقول من قال: إن سبب إخفائه دعاءه - أنه خوفه من قومه أن يلوموه على طلب الولد، في حالة لا يمكن فيها الولد عادة لكبر سنه وسن امرأته، وكونها عاقرًا.

وقول من قال: إنه أخفاه لأنه طلب أمر دنيوي، فإن أجاب الله دعاءه فيه نال ما كان يريد.

وإن لم يجبه لم يعلم ذلك أحد، إلى غير ذلك من الأقوال، كل ذلك ليس بالأظهر.

والأظهر: أن السر في إخفائه هو ما ذكرنا من كون الإخفاء أفضل من الإعلان في الدعاء.

❊ ❊ ❊

(١) البخاري (١٥٨٤).

استحباب إخفاء الدعاء

س: اذكر بعض الأدلة على استحباب(١) إخفاء الدعاء.

ج: من الأدلة على ذلك ما يلي:

قول الله تبارك وتعالى: ﴿ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً إِنَّهُ لا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾ [الأعراف: ٥٥].

وقد ذكر الله في كتابه نبيًّا كريمًا رضي عن فعله وزكّاه وهو زكريا عليه السلام، فقال سبحانه: ﴿إِذْ نَادَى رَبَّهُ نِدَاءً خَفِيًّا﴾ [مريم: ٣].

وكان النبي ﷺ يقوم من الليل إذا غلب على ظنه أن عائشة قد نامت فيفزع إلى الصلاة سائلاً ربه مستغفراً ويتجه إلى بقيع الغرقد يدعو هنالك للأموات.

أخرج الإمام مسلم(٢) في «صحيحه» من حديث عائشة رضي الله عنها قالت: فقَدْتُ رسولَ الله ﷺ ليلةً من الفراشِ، فالتمستُه فوقعت يدي على بطن قدميه وهو في المسجد، وهُما منصوبتان، وهو يقول: «اللهم أعوذ

(١) وهناك مواطن كان النبي ﷺ يُظهر فيها الدعاء.

وذلك ـ والله أعلم ـ كالقنوت في الصلوات والنوازل والاستسقاء وخطب الجمعة والأعياد، وقول (آمين) في الصلاة، والأدعية العامة وكل ما ورد نحوه عن رسول الله ﷺ. وعمومًا فالنفل في الغالب يُخفى، والفرض يُجهر به، فصلاة النفل في البيت أفضل وصلاة الفرض في المسجد أوجب.

(٢) مسلم (حديث ٤٨٦).

برضاك من سخطك، وبمعافاتك من عقوبتك وأعوذ بك منك، لا أحصي ثناء عليك أنت كما أثنيت على نفسك».

وأخرج مسلم في «صحيحه» أيضًا من حديث عائشة رضي الله عنها قالت: لما كانت ليلتي التي كان النبي ﷺ فيها عندي، انقلب فوضع رداءه، وخلع نعليه، فوضعهما عند رجليه، وبسط طرف إزاره على فراشه فاضطجع، فلم يلبث إلا ريثما ظن أن قد رقدت، فأخذ رداءه رُوَيْدًا، وانتعل رويدًا، وفتح الباب فخرج، ثم أجافه رويدًا، فجعلت دِرْعي في رأسي واختمرتُ، وتقنَّعْتُ إزاري ثم انطلقت على إثره، حتى جاء البقيع فقام، فأطال القيام، ثم رفع يديه ثلاث مرات، ثم انحرف فانحرفت فأسرع فأسرعت، فهرول فهرْوَلْتُ، فأحضر فأحضرت فسبقتُهُ فدخلتُ فليس إلا أن اضطجعت فدخل، فقال: «**مالك يا عائش؟ حشيا رَابِيَةً!**» قالت: قلتُ: لا شيء، قال: «**لتخبريني أو لَيخبرنِّي اللطيف الخبير**» قالت: قلتُ: يا رسول الله، بأبي أنت وأمِّي، فأخبرتُهُ، قال: «**فأنتِ السَّوادُ الذي رأيتُ أمامي**» قُلْتُ: نعم، فلَهَدَنِي في صَدْري لهدةً أوْجعتني.

* * *

س: اذكر بعض فوائد النداء الخفي؟

ج: لإخفاء الدعاء جملة من الفوائد، ذكرها العلامة ابن القيم رحمه الله تعالى فقال: وفي إخفاء الدعاء فوائد عظيمة:

أحدها: أنه أعظم إيمانًا؛ لأن صاحبه يعلم أن الله يسمع دعاءه الخفي، وليس كالذي قال: إن الله يسمع إن جهرنا، ولا يسمع إن أخفينا.

وثانيها: أنه أعظم في الأدب والتعظيم، ولهذا لا تخاطب الملوك ولا تسأل برفع الأصوات، وإنما تخفض عندهم الأصوات، ويخفض عندهم الكلام بمقدار ما يسمعونه ومن رفع صوته لديهم مقتوه، ولله المثل الأعلىٰ، فإذا كان ربنا يسمع الدعاءَ الخفيَّ فلا يليق بالأدب بين يديه إلا خفض الصوت به.

ثالثها: أنه أبلغ في التضرع والخشوع الذي هو روح الدعاء ولبُّه ومقصوده.

فإن الخاشع الذليل الضارع إنما يسأل مسألة مسكين ذليل، قد انكسر قلبه، وذلت جوارحه، وخشع صوته، حتىٰ إنه ليكاد تبلغ به ذلته ومسكنته، وكسرته، وضراعته إلىٰ أن ينكسر لسانه فلا يطاوعه بالنطق، فقلبه سائل طالب مبتهل، ولسانه لشدة ذله وضراعته ومسكنته ساكت، وهذه الحالة لا يتأتىٰ معها رفع الصوت بالدعاء أصلاً.

ورابعها:أنه أبلغ في الإخلاص.

وخامسها: أنه أبلغ في جمعيّة القلب علىٰ الله في الدعاء، فإن رفع الصوت يفرقه ويشتته، فكلما خفض صوته كان أبلغ في حمده وتجريد همته وقصده للمدعو، سبحانه وتعالىٰ.

وسادسها: وهو من النكت السريَّة البديعة جداً ـ أنه دالٌّ علىٰ قُرْبِ صاحبه من الله، وأنه لاقترابه منه، وشدة حضوره يسأله مسألة أقرب شيء إليه.

فيسأله مسألة مناجاة القريب للقريب، لا مسألة نداء البعيد للبعيد، ولهذا أثنىٰ سبحانه وتعالىٰ علىٰ عبده زكريا بقوله: ﴿إِذْ نَادَى رَبَّهُ نِدَاءً خَفِيًّا﴾ [مريم: ٣]

فكلما استحضر القلب قرب الله تعالىٰ منه، وأنه أقرب إليه من كل قريب، وتصور ذلك أخفىٰ دعاءه، ما أمكنه ولم يتأتَّ له رفع الصوت به، بل يراه غير مستحسن، كما أن من خاطب جليسًا له يسمع خفيَّ كلامه فبالغ في رفع الصوت استهجن ذلك منه، ولله المثلُ الأعلىٰ سبحانه.

وقد أشار النبي ﷺ إلىٰ هذا المعنىٰ بعينه بقوله في الحديث الصحيح - لما رفع الصحابة أصواتهم بالتكبير وهم معه في السفر - فقال: **«أربعوا على أنفسكم، فإنكم لا تدعون أصمَّ ولا غائبًا، إنكم تدعون سميعًا قريبًا أقربَ إلى أحدكم من عنق راحلته»**.

وقال تعالىٰ: **﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾** [البقرة: ١٨٦] وقد جاء أن سبب نزولها: أن الصحابة قالوا: يا رسول الله، ربنا قريب فنناجيه، أم بعيد فنناديه؟ فأنزل الله عز وجل: **﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾** وهذا يدل علىٰ إرشادهم للمناجاة في الدعاء، لا للنداء الذي هو رفع الصوت فإنهم عن هذا سألوا، فأجيبوا بأن ربهم تبارك وتعالىٰ قريب لا يحتاج في دعائه وسؤاله إلىٰ النداء، وإنما يسأل مسألة القريب المناجىٰ، لا مسألة البعيد المنادَىٰ.

وهذا القرب من الداعي هو قرب خاص، ليس قربًا عامًّا من كل أحد، فهو قريب من داعيه وقريب من عابده، و **«أقرب ما يكون العبدُ من ربِّه وهو ساجد»** وهو أخص من قرب الإنابة وقرب الإجابة، الذي لم يُثبت أكثر المتكلمين سواه، بل هو قرب خاص من الداعي والعابد، كما قال النبي ﷺ راويًا عن ربِّه تبارك وتعالىٰ: **«من تقرَّب مني شِبْرًا تقربتُ منه ذراعًا ومن تقرَّب مني ذراعًا تقرَّبتُ منه بَاعًا»** فهذا قربه من عابده.

وأما قربه من داعيه وسائله، فكما قال تعالىٰ: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾ [البقرة:١٨٦].

وقوله: ﴿ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً﴾ [الأعراف: ٥٥] فيه الإشارة والإعلام بهذا القرب.

وأما قربه تبارك وتعالىٰ من مُحبِّه فنوع آخر وبناء آخر، وشأن آخر، كما قد ذكرناه في كتاب «التحفة المكيّة» علىٰ أن العبارة تنبو عنه ولا تحصل في القلب حقيقة معناه أبدًا، لكن بحسب قوة المحبة وضعفها يكون تصديق العبد بهذا القرب.

وإيَّاك ثم إيَّاك أن تعبر عنه بغير العبارة النبويّة، أو يقع في قلبك غير معناها ومرادها فتزلَّ بك قَدَمٌ بعد ثبوتِها، وقد ضعف تمييز خلائق في هذا المقام وساء تعبيرهم فوقعوا في أنواع من الطامَّات والشطح، وقابلهم من غلظ حجابه، فأنكر محبة العبد لربه جملة وقربه منه وأعاد ذلك إلىٰ مجرد الثواب المخلوق فهو عنده المحبوب القريب ليس إلا.

وقد ذكرنا من طرق الرد علىٰ هؤلاء وهؤلاء في كتاب «التحفة» أكثر من مائة طريق.

والمقصود ها هنا: الكلام علىٰ هذه الآية.

وسابعها: أنه أدعىٰ إلىٰ دوام الطلب والسؤال، فإن اللسان لا يمل والجوارح لا تتعب، بخلاف ما إذا رفع صوته فإنه قد يكِلُّ لسانه وتضعف بعض قواه.

وهذا نظير من يقرأ ويكرر رافعًا صوته، فإنه لا يطول له ذلك بخلاف من يخفض صوته.

وثامنها: أن إخفاء الدعاء أبعد له من القواطع والمشوشات والمضعفات، فإن الداعي إذا أخفى دعاءه لم يَدرِ به أحدٌ فلا يحصل له هناك تشويش ولا غيره، وإذا جهر به تفطنت له الأرواح الشريرة والباطولية الخبيثة من الجن والإنس، فشوشت عليه ولابد، ومانعته وعارضته ولو لم يكن من ذلك إلا أن تعلقها به يفرق عليه همته فيضعف أثر الدعاء لكفى، ومن له تجربة يعرف هذا فإذا أسر الدعاء وأخفاه أمن هذه المفسدة.

وتاسعها: أن أعظم النعم هو الإقبال على الله، والتعبد له، والانقطاع إليه والتبتل إليه ولكل نعمة حاسد على قدرها، دقت أو جلَّت، ولا نعمة أعظم من هذه النعمة، فأنفس الحاسدين المنقطعين متعلقة بها، وليس للمحسود أسلم من إخفاء نعمته عن الحاسد، وألا يقصد إظهارها له.

وقد قال يعقوب ليوسف: ﴿**لَا تَقْصُصْ رُءْيَاكَ عَلَى إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْدًا إِنَّ الشَّيْطَانَ لِلإِنسَانِ عَدُوٌّ مُّبِينٌ**﴾ [يوسف: ٥].

وكم من صاحب قلب وجمعيَّة وحال مع الله قد تحدَّث بها وأخبر بها فسلبه إيَّاها الأغيار، فأصبح يقلب كفيه.

ولهذا يوصي العارفون والشيوخ بحفظ السر مع الله وألا يُطلعوا عليه أحدًا ويتكتمون به غاية التكتُّم كما أنشد بعضهم في ذلك:

من ساررُوه فأبدى السر مجتهدًا ... لم يأمنوه على الأسرار ما عاشا
وأبعدوه فلم يظفر بقربهم ... وأبدلوه مكان الأنس إيحاشا
لا يأمنون مذيعًا بعض سرهم ... حاشا ودادهم من ذلكم حاشا

والقوم أعظم شيء كتمانًا لأحوالهم مع الله وما وهب الله لهم من مجبته والأُنس به وجمعيّة القلب عليه، ولاسيما للمبتدئ والسالك.

فإذا تمكن أحدهم وقوي وثبتت أصول تلك الشجرة الطيبة التي أصلها ثابت وفرعها في السماء في قلبه بحيث لا يخشىٰ من العواصف، فإنه إذا أبدىٰ حاله وشأنه مع الله ليقتدىٰ به ويؤتم به لم يبالِ، وهذا باب عظيم النفع وإنما يعرفه أهله.

وإذا كان الدعاء المأمور بإخفائه يتضمن دعاء الطلب والثناء والمحبة والإقبال علىٰ الله فهو من أعظم الكنوز التي هي أحق بالإخفاء والستر عن أعين الحاسدين، وهذه فائدة شريفة نافعة.

وعاشرها: أن الدعاء هو ذكر للمدعو سبحانه متضمن للطلب منه والثناء عليه بأسمائه وأوصافه، فهو ذكر وزيادة، كما أن الذكر سُمِّي دعاء لتضمنه الطلب كما قال النبي ﷺ: «**أفضل الدعاء الحمدُ لله**» فسمىٰ «الحمد لله» دعاء، وهو ثناء محض؛ لأن الحمد يتضمن الحب والثناء.

والحب أعلىٰ أنواع الطلب للمحبوب، فالحامد طالب لمحبوبه، فهو أحق أن يسمىٰ داعيًا من السائل الطالب من ربه حاجة ما.

فتأمل هذا الموضع فإذا تأملته لا تحتاج إلىٰ ما قيل: إن الذاكر متعرض للنوال وإن لم يكن مصرحًا بالسؤال، فهو داعٍ بما تضمنه ثناؤه من التعرض، كما قال أميَّة بن أبي الصلت في ممدوحه:

أأذكر حاجتي، أم قد كفاني ... حباؤك؟ إن شيمتك الحباء
إذا أثنى عليك المرءُ يومًا ... كفاه من تعرُّضِه الثناءُ

وعلىٰ هذه الطريقة التي ذكرناها فنفس الحمد والثناء متضمن لأعظم الطلب وهو طلب المحب، فهو دعاء حقيقة، بل أحق أن يسمىٰ دعاء من غيره من أنواع الطلب الذي هو دونه.

والمقصود: أن كل واحد من الدعاء والذكر يتضمن الآخر ويدخل فيه.

وقد قال تعالىٰ: ﴿وَاذْكُر رَّبَّكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً وَدُونَ الْجَهْرِ مِنَ الْقَوْلِ﴾ [الأعراف: ٢٠٥] فأمر تعالىٰ نبيَّه أن يذكره في نفسه.

قال مجاهد وابن جريج: أمر أن يذكره في الصدر بالتضرع والاستكانة دون رفع الصوت أو الصياح.

وقد تقدم حديث أبي موسىٰ كنا مع النبي ﷺ في سفر فارتفعت أصواتُنا بالتكبير فقال: «**يا أيها الناس أَربعوا على أنفسكُم**[١]، **فإنكم لا تدعون أصمَّ ولا غائبًا، إنما تدعون سميعًا قريبًا أقربَ إلى أحدكُم من عنق راحلته**».

وتأمل كيف قال في آية الذِّكر: ﴿وَاذْكُر رَّبَّكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً﴾ [الأعراف: ٢٠٥] وفي آية الدعاء: ﴿ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً﴾ [الأعراف: ٥٥] فذكر التضرع فيهما معًا، وهو التذلل والتمسكن والانكسار، وهو روح الذكر والدعاء، وخص الدعاء بالخفية لما ذكرنا من الحِكم وغيرها.

وخص الذكر بالخيفة لحاجة الذاكر إلىٰ الخوف، فإن الذِّكر يستلزم المحبة ويثمرها ولابد.

فمن أكثر من ذكر الله أثمرَ له ذلك محبته، والمحبة، ما لم تقرن بالخوف، فإنها لا تنفع صاحبها بل قد تضره، لأنها توجب الإدلال والانبساط، وربما آلت بكثير من الجُهَّال المغرورين إلىٰ أنهم استغنوا بها عن الواجبات وقالوا: المقصود من العبادات إنما هو عبادة القلب وإقباله علىٰ الله ومحبته له وتألهه له، فإذا حصل المقصود فالاشتغال بالوسيلة باطل.

---

(١) أربعوا: أي: ترفقوا بأنفسكم.

ولقد حدثني رجل أنه أنكر على رجل من هؤلاء خلوة له ترك فيها حضور الجمعة، فقال له الشيخ: أليس الفقهاء يقولون إذا خاف على شيء من ماله فإن الجمعة تسقط عنه؟ فقال له: بلى.

فقال له: فقلب المريد أعز عليه من ضياع عشرة دراهم، أو كما قال.

وهو إذا خرج ضاع قلبه فحفظه لقلبه عذر مسقط للجمعة في حقه.

فقال له: هذا غرور، بل الواجب عليه الخروج إلى أمر الله وحفظ قلبه مع الله.

فالشيخ المربي العارف يأمر المريد بأن يخرج إلى الأمر ويراعي حفظ قلبه، أو كما قال.

فتأمل هذا الغرور العظيم كيف آل بهؤلاء إلى الانسلاخ عن الإسلام، جملة فإن من سلك هذا المسلك انسلخ عن الإسلام العام كانسلاخ الحية من قشرها، وهو يظن أنه من خاصة الخاصة، وسبب هذا عدم اقتران الخوف من الله بحبه وإرادته، ولهذا قال بعض السلف: من عبد الله بالحب وحده فهو زنديق، ومن عبده بالخوف وحده فهو حروري، ومن عبده بالرجاء وحده فهو مرجئ. ومن عبده بالحب والخوف والرجاء فهو مؤمن.

وقد جمع تعالى هذه المقامات الثلاث بقوله: ﴿**أُولَٰئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ**﴾ [الإسراء: ٥٧]، فابتغاء الوسيلة هو محبته الداعية إلى التقرب إليه. ثم ذكر بعدها الرجاء والخوف، فهذه طريقة عباده وأوليائه.

وربما آل الأمر بمن عبده بالحب المجرد إلى استحلال المحرمات، ويقول: المحب لا يضره ذنب. وقد صنف بعضهم في ذلك مصنفًا وذكر فيه أثرًا

مكذوبًا: «إذا أحب الله العبد لم تضره الذنوب»، وهذا كذب قطعًا منافٍ للإسلام.

فالذنوب تضر بالذات لكل أحد كضرر السم للبدن، ولو قدر أن هذا الكلام صح عن بعض الشيوخ.

وأما عن رسول الله ﷺ ـ فمعاذ الله من ذلك ـ فله محمل، وهو أنه إذا أحبه لم يدعه حبه إياه إلىٰ أن يصر علىٰ ذنب؛ لأن الإصرار علىٰ الذنب منافٍ لكونه محبًّا لله، وإذا لم يصر علىٰ الذنب بل بادر إلىٰ التوبة النصوح منه، فإنه يمحىٰ أثره ولا يضره الذنب، وكلما أذنب وتاب وأناب إلىٰ الله زال عنه أثر الذنب وضرره، فهذا المعنىٰ صحيح.

والمقصود: أن تجريد الحب والذكر عن الخوف يوقع في هذه المعاطب، فإذا اقترن بالخوف جمعه علىٰ الطريق وردَّه إليها كلما شرد، فكأن الخوف سوط يضرب به مطيته لئلا تخرج عن الدرب، والرجاء حادٍ يحدوها يطيب لها السير، والحب قائدها وزمامها الذي يسوقها.

فإذا لم يكن للمطية سوط ولا عصا تردها إذا حادت عن الطريق، وتركت تركب التعاسيف خرجت عن الطريق وضلت عنها، فما حفظت حدود الله ومحارمه.

وما وصل الواصلون إليه بمثل خوفه ورجائه ومحبته، فمتىٰ خلا القلب عن هذه الثلاثة فسد فسادًا لا يرجىٰ صلاحه أبدًا، ومتىٰ ضعف فيه شيء من هذه ضعف إيمانه بحسبه.

فتأمل أسرار القرآن وحكمته في اقتران الخيفة بالذكر، والخفية بالدعاء، مع دلالته علىٰ اقتران الخيفة بالدعاء والخفية بالذكر أيضًا، فإنه قال:

﴿وَاذْكُر رَّبَّكَ فِي نَفْسِكَ﴾ فلم يحتج بعدها أن يقول: «خفية» وقال في الدعاء: ﴿وَادْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا﴾ [الأعراف:٢٠٦]، فلم يحتج أن يقول في الأولى: ادعوا ربكم تضرعًا وخفية، فانتظمت كل واحدة من الآيتين للخيفة والخفية والتضرع أحسن انتظام، ودلت على ذلك أكمل دلالة.

وذكر الطمع الذي هو الرجاء في آية الدعاء؛ لأن الدعاء مبني عليه، فإن الداعي ما لم يطمع في سؤاله ومطلوبه لم تتحرك نفسه لطلبه، إذ طلبُ ما لا طمع فيه ممتنعٌ.

وذكر الخوف في آية الذكر لشدة حاجة الخائف إليه كما تقدم، فذكر في كل آية ما هو اللائق بها والأولى بها من الخوف والطمع.

فتبارك من أنزل كلامه شفاء لما في الصدور وهدىً ورحمة للمؤمنين.

* * *

س: متى وأين دعا زكريا عليه السلام بهذا الدعاء؟

ج: دعا بهذا الدعاء عندما دخل على مريم عليها السلام المحراب فوجد عندها رزقًا.

قال تعالى: ﴿كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزْقًا قَالَ يَا مَرْيَمُ أَنَّى لَكِ هَذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِندِ اللهِ إِنَّ اللهَ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٣٧﴾ هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُ قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِن لَّدُنكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ﴾ [آل عمران: ٣٧، ٣٨].

فقوله: ﴿هُنَالِكَ﴾ تحتمل هنالك في ذاك المكان، وذاك الزمان.

وفي هذا فضل مجالسة الصالحين، فقد استفاد زكريا عليه السلام من مريم

عليها السلام من تذكيرها له بأن الله يرزق من يشاء بغير حساب فشجعته على الدعاء وسؤال الله من واسع فضله.

* * *

س: لماذا ذُكر العظم دون غيره في قوله: ﴿إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي﴾؟

ج: أجاب على ذلك الزمخشري[1] بقوله:

وإنما ذكر العَظْم لأنه عمود البدن. وبه قوامه، وهو أصل بنائه. فإذا وهن تداعى وتساقطت قوته. ولأنه أشد ما فيه وأصلبه. فإذا وهن كان ما وراءَه أوهن. ووحَّده، لأن الواحد هو الدال على معنى الجنسية، المنبئة عن شمول الوهن بكل فرد من أفراده.

* * *

(١) ولا يخفى ما عليه الزمخشري من اعتزال، والمذكور هنا نقلاً عن القاسمي عن الزمخشري.

أنواع من التوسلات بين يدي الدعاء

س: في قوله ﴿إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا﴾ نوعٌ من أنواع التوسل، وضح هذا النوع، مع بيان المراد من قوله: ﴿إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا﴾.

ج: هذا توسلٌ بإظهار الضعف بين يدي الله عزَّ وجل وهو نوعٌ حسنٌ من أنواع التوسلات .

أما المراد من قوله: ﴿إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا﴾ فهو الإخبار عن الضعف والكِبرَ اللَّذين اعترياه، وكذا دلائلهما الظاهرة الباطنة .

* * *

س: وضح معنى قوله ﴿وَلَمْ أَكُن بِدُعَائِكَ رَبِّ شَقِيًّا﴾.

ج: المعنى، والله تعالى أعلم: ولم أكن شقيًّا يا رب لما دعوتك من قبل، فقد دعوتك فاستجبت لي ولم تجعلني شقيًّا بالرد والحرمان، فالذي تردُّ عليه دعوته ولا تستجاب ويُحرم يُعدُّ شقيًّا، أما زكريا عليه السلام فقد كان يُجب إذا سأل ربه ودعاه .

قال القرطبي رحمه الله:

قال العلماء: يستحب للمرء أن يذكر في دعائه نِعَم الله تعالى عليه وما يليق بالخضوع؛ لأن قوله تعالى: ﴿وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي﴾ إظهار للخضوع .

وقوله: ﴿ وَلَمْ أَكُنْ بِدُعَائِكَ رَبِّ شَقِيًّا ﴾ إظهار لعادات تفضله في إجابته أدعيته؛ أي: لم أكن بدعائي إياك شقيًا؛ أي: لم تكن تخيب دعائي إذا دعوتك؛ أي: إنك عودتني الإجابة فيما مضى.

يقال: شقي بكذا أي: تعب فيه ولم يحصل مقصوده.

وعن بعضهم أن محتاجًا سأله وقال: أنا الذي أحسنتَ إليه في وقت كذا، فقال: مرحبًا بمن توسل بنا إلينا؛ وقضى حاجته.

وقال الشنقيطي رحمه الله تعالى في «أضواء البيان»:

وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة: ﴿ وَلَمْ أَكُنْ بِدُعَائِكَ رَبِّ شَقِيًّا ﴾، أي: لم أكن بدعائي إياك شقيًا، أي: لم تكن تخيب دعائي إذا دعوتك، يعني: أنك عودتني الإجابة فيما مضى.

والعرب تقول: شقي بذلك إذا تعب فيه ولم يحصل مقصوده.

وربما أطلقت الشقاء على التعب، كقوله تعالى: ﴿إِنَّ هَذَا عَدُوٌّ لَّكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقَى ﴾ [طه: ١١٧]. وأكثر ما يستعمل في ضد السعادة.

ولا شك أن إجابة الدعاء من السعادة، فيكون عدم إجابته من الشقاء.

❊ ❊ ❊

س: في قول نبي الله زكريا عليه السلام: ﴿وَلَمْ أَكُن بِدُعَائِكَ رَبِّ شَقِيًّا﴾ نوع توسل، وضح هذا النوع.

ج: هذا النوع من أنواع التوسل هو توسلٌ بسابق الإحسان. فزكريا عليه السلام يتوسل إلى ربِّه سبحانه وتعالى بسابق إحسان الله تعالى إليه فكأنه

قال: يا من دعوتك فاستجبت لي وأكرمتني ومننت عليَّ وأعطيتني ولم تحرمني، يا رب يا من صفته الكرم والإحسان والجود والكرم والفضل، ها أنذا أدعوك فلا تردني، فقد تعودت منك المن والعطاء.

قال الطبري رحمه الله: وقوله: ﴿وَلَمْ أَكُنْ بِدُعَائِكَ رَبِّ شَقِيًّا﴾ يقول: ولم أشقَ يا رب بدعائك، لأنك لم تخيب دعائي قبلُ إذ كنت أدعوك في حاجتي إليك، بل كنت تجيب وتقضي حاجتي قِبَلك.

قال القرطبي رحمه الله:

وقوله: ﴿وَلَمْ أَكُنْ بِدُعَائِكَ رَبِّ شَقِيًّا﴾ إظهار لعادات تفضله في إجابته أدعيته؛ أي: لم أكن بدعائي إياك شقيًّا؛ أي لم تكن تخيب دعائي إذا دعوتك؛ أي: إنك عودتني الإجابة فيما مضى.

يقال: شقي بكذا أي تعب فيه ولم يحصل مقصوده.

وعن بعضهم أن محتاجًا سأله وقال: أنا الذي أحسنتَ إليه في وقت كذا؛ فقال: مرحبًا بمن توسل بنا إلينا؛ وقضى حاجته.

* * *

س: على أي شيء خاف زكريا عليه السلام من الموالي؟

ج: قال بعض العلماء: خاف زكريا الموالي أن يرثوه وقد استبعد الحافظ ابن كثير هذا الوجه وقال: إن النبي أعظم منزلة وأجلُّ قدرًا من أن يشفق على ماله إلى ما هذا حدُّه: أن يأنف من وراثة عصباته له ويسأل أن يكون له ولد فيحوز ميراثه دونهم.

وأورد أيضًا أن زكريا كان نجارًا والنجار لا يجمع مالاً كثيرًا. وأورد

حديث: «لا نورث ما تركنا فهو صدقة».

وقال آخرون: خاف زكريا عليه السلام الموالي أن لا يقيموا الدين وأن يتصرفوا في الناس من بعده تصرفًا سيئًا وأن لا يسوسوا الناس سياسة حسنة.

فقد كانت بنو إسرائيل تسوسهم أنبياؤهم، كلما هلك نبيٌّ خلفه نبيٌّ آخر، فنظر نبي الله زكريا عليه السلام فيمن حوله من بني إسرائيل فلم يَرَ كفؤًا يقيم الدين من بعده، ويسوس الناس سياسة حسنة من بعده فسأل ربه ولدًا صالحًا يقيم أمر الله في بني إسرائيل ويقودهم بشريعته.

وذهب آخرون من أهل العلم إلىٰ أنه عليه السلام خشي أذية عصبته له، وحمل قوله: ﴿مِن وَرَائِي﴾ أي من أمامي ومن حولي، وقد ورد في هذا المعنىٰ خبر مرسل[١] قال فيه قتادة: ذُكر لنا أن نبي الله ﷺ كان إذا قرأ هذه الآية وأتىٰ علىٰ ﴿يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ﴾ قال: رحم الله زكريا ما كان عليه من ورثته؟!!

وفي رواية: يرحم الله زكريا وما كان عليه من ورثته؟! ويرحم الله لوطًا إن كان ليأوي إلىٰ ركن شديد.

* * *

س: وضح معنى قوله: ﴿وَإِنِّي خِفْتُ الْمَوَالِيَ﴾.

ج: قال الشنقيطي رحمه الله:

معنىٰ قوله: ﴿خِفْتُ الْمَوَالِيَ﴾ أي: خفت أقاربي وبني عمي وعصبتي:

(١) أخرجه الطبري (٢٣٥٠٠، ٢٣٥٠١) ومراسيل قتادة من ضعاف المراسيل.

أن يضيعوا الدين بعدي، ولا يقوموا لله بدينه حق القيام، فارزقني ولداً يقوم بعدي بالدين حق القيام.

* * *

س: يستحب للدعاة إلى الخير والقائمين على أعمال البر إذا أرادوا سفراً أو مغادرة للمكان أو استشعروا الموت أن يوكلوا بعدهم من يقوم بما كانوا يقومون به من أعمال البر والمعروف دلّل على ذلك.

ج: من الأدلة على ذلك ما يلي:

قول زكريا عليه السلام: ﴿**وَإِنِّي خِفْتُ الْمَوَالِيَ مِن وَرَائِي وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا فَهَبْ لِي مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا ﴿٥﴾ يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ وَاجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا**﴾.

قال السعدي رحمه الله تعالى في «تفسيره»:

وذلك أن الله تعالى، اجتبى واصطفى، زكريا عليه السلام لرسالته، وخصه بوحيه.

فقام بذلك قيام أمثاله من المرسلين، ودعا العباد إلى ربه، وعلمهم ما علمه الله، ونصح لهم في حياته وبعد مماته، كإخوانه من المرسلين، ومن اتبعهم.

فلما رأى من نفسه الضعف، وخاف أن يموت، ولم يكن أحد ينوب منابه في دعوة الخلق إلى ربهم والنصح لهم، شكا إلى ربه ضعفه الظاهر والباطن، وناداه نداء خفيًا، ليكون أكمل، وأفضل، وأتم إخلاصًا.

وقول نبي الله موسى عليه السلام لأخيه هارون: ﴿**اخْلُفْنِي فِي قَوْمِي**

وَأَصْلِحْ وَلا تَتَّبِعْ سَبِيلَ الْمُفْسِدِينَ ﴾ [الأعراف: ١٤٢].

وقول النبي ﷺ لعلي رضي الله عنه: «**أما ترضى أن تكونَ مني بمنزلة هارونَ من موسى**»(١) وذلك لما تركه في المدينة لما ذهب النبي ﷺ لغزوة تبوك فقال له عليٌّ: تخلفني مع النساء والصبيان؟

وقوله عليه الصلاة والسلام: «**فإنه من يعشْ منكم بعدي فسيرى اختلافًا كثيرًا فعليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين تمسكوا بها وعضوا عليها بالنواجذ، وإياكم ومحدثاتِ الأمورِ، فإن كلَّ محدثةٍ بدعةٌ، وكلَّ بدعة ضلالة..**»(٢).

* * *

س: اذكر بمزيد من الإيضاح معنى قوله: ﴿ وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا ﴾.

ج: وقوله تعالىٰ في هذه الآية الكريمة: ﴿**وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا**﴾ ظاهر في أنها كانت عاقرًا في زمن شبابها.

والعاقر: هي العقيم التي لا تلد وهو يطلق علىٰ الذكر والأنثىٰ، فمن إطلاقه علىٰ الأنثىٰ هذه الآية، وقوله تعالىٰ عن زكريا أيضًا: ﴿**وَقَدْ بَلَغَنِيَ الْكِبَرُ وَامْرَأَتِي عَاقِرٌ**﴾ [آل عمران: ٤٠].

ومن إطلاقه علىٰ الذكر قول عامر بن الطفيل:

لبئس الفتى إن كنت أعور عاقرًا ... جبانًا فما عذري لدى كل محضر

(١) أخرجه مسلم (حديث ٢٤٠٤).

(٢) صحيح، أخرجه أبو داود وغيره بنحوه (٤٦٠٧).

وقد أشار تعالىٰ إلىٰ أنه أزال عنها العقم، وأصلحها، فجعلها ولودًا بعد أن كانت عاقرًا في قوله عز وجل: ﴿فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَوَهَبْنَا لَهُ يَحْيَى وَأَصْلَحْنَا لَهُ زَوْجَهُ﴾ [الأنبياء: ٩٠] فهذا الإصلاح هو كونها صارت تلد بعد أن كانت عقيمًا.

* * *

س: وضح معنى قوله: ﴿وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا﴾.

ج: المعنىٰ، والله تعالىٰ أعلم: أي لا تلد من حين شبابها.

قال القاسمي رحمه الله:

﴿وَلَمْ أَكُنْ بِدُعَائِكَ رَبِّ شَقِيًّا﴾ أي ولم أكن بدعائي إياك خائبًا في وقت لم أعوّد منك إلا الإجابة في الدعاء، ولم تردّني قط.

وهذا توسل منه إلىٰ الله تعالىٰ بما سلف له معه من الاستجابة، إثر تمهيد ما يستدعي الرحمة ويستجلب الرأفة، من كبز السن وضعف الحال.

فإنه تعالىٰ بعد ما عوَّد عبده بالإجابة دهرًا طويلاً، لا يكاد يخيبه أبدًا. لا سيما عند اضطراره وشدة افتقاره.

* * *

س: وضح معنى قوله: ﴿يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ﴾.

ج: أما قوله: ﴿يَرِثُنِي﴾ فمن العلماء من قال: يرث أموالي إذا أنا متُّ.

وقال آخرون: بل يرث علمي ونبوتي، فإن الأنبياء لا يورثون، فقد قال رسول الله ﷺ: «لا نُورَّثُ ما تركْنَا فهو صدقةٌ»(١).

(١) البخاري (٦٧٢٧) وله عدة طرق عن النبي ﷺ ومسلم (١٧٥٨).

أما قوله: ﴿وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ﴾ أي ويرث نبوة آل يعقوب.

واختار ابن كثير رحمه الله تعالىٰ هذا الوجه الأخير، وكان مما ذكره أن قال: قد ثبت في «الصحيحين» من غير وجه، أن رسول الله، ﷺ، قال: «**لا نورَّث، ما تركْنا فهو صدقة**».

وفي رواية عند الترمذي بإسناد صحيح: «**نحنُ معشرَ الأنبياءِ - لا نورَّث**».

وعلىٰ هذا فتعين حمل قوله: ﴿فَهَبْ لِي مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا ۝٥ يَرِثُنِي﴾ علىٰ ميراث النبوة؛ ولهذا قال: ﴿وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ﴾ كقوله: ﴿وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُودَ﴾ [النمل:١٦]، أي: في النبوة، إذ لو كان في المال لما خصه من بين إخوته بذلك، ولما كان في الإخبار بذلك كبير فائدة، إذ من المعلوم المستقر في جميع الشرائع والملل - أن الولد يرث أباه، فلولا أنها وراثة خاصة لما أخبر بها، وكل هذا يقرره ويثبته ما صح في الحديث: «**نحن معاشرَ الأنبياء - لا نورَّث، ما تَركنا فهو صدقة**».

وقال القرطبي رحمه الله:

قال النحاس: فأما معنىٰ: ﴿يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ﴾ فللعلماء فيه ثلاثة أجوبة:

قيل: هي وراثة نبوّة.

وقيل: هي وراثة حكمة.

وقيل: هي وراثة مال.

فأما قولهم: وراثة نبوّة فمحال؛ لأن النبوّة لا تورث، ولو كانت تورث لقال قائل: الناس ينتسبون إلىٰ نوح عليه السلام وهو نبيّ مرسل.

ووراثة العلم والحكمة مذهب حسن؛ وفي الحديث: «**العلماء ورثة الأنبياء**».

وأما وراثة المال، فلا يمتنع، وإن كان قوم قد أنكروه لقول النبي ﷺ: «**لا نورث ما تركنا صدقة**» فهذا لا حجة فيه؛ لأن الواحد يخبر عن نفسه بإخبار الجمع.

وقد يُؤوَّل هذا بمعنى: لا نُورث، الذي تركناه صدقة؛ لأن النبيّ ﷺ لم يخلّف شيئًا يورث عنه؛ وإنما كان الذي أباحه الله عز وجل إياه في حياته بقوله تبارك اسمه: ﴿**وَاعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَيْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ**﴾ [الأنفال: ٤١] لأن معنى ﴿لله﴾ لسبيل الله، ومن سبيل الله ما يكون في مصلحة الرسول ﷺ ما دام حيًّا؛ فإن قيل: ففي بعض الروايات: «**إنا معاشرَ الأنبياءِ لا نورِّث ما تَرَكْنا صدقة**» ففيه التأويلان جميعًا؛ أن يكون «ما» بمعنى «الذي».

والآخر لا يورث من كانت هذه حاله.

وقال أبو عمر: واختلف العلماء في تأويل قوله عليه السلام: «**لا نورَّث ما تركْنا صدقة**» على قولين:

أحدهما: وهو الأكثر وعليه الجمهور ـ أن النبي ﷺ لا يورث وما ترك صدقة.

والآخر: أن نبينا عليه الصلاة والسلام لم يُورَث؛ لأن الله تعالى خصه بأن جعل ماله كله صدقة زيادة في فضيلته، كما خُصَّ في النكاح بأشياء أباحها له وحرمها على غيره؛ وهذا القول قاله بعض أهل البصرة منهم ابن عُلَية، وسائر علماء المسلمين على القول الأوّل.

تنبيه: الوارد مرفوعًا عن رسول الله ﷺ، والذي قد يستدل به البعض علىٰ صحة القول الأول في تفسير: ﴿يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ﴾ بأنها وراثة المال، ألا وهو ما ورد عن قتادة أن رسول الله ﷺ قال: «**يرحم الله زكريا وما كان عليه من ورثه...**» الحديث.

ونحوه عن الحسن البصري: «قال رسول الله ﷺ. . .» فهذا وذاك ضعيفان، فكلاهما مرسل، وفضلاً عن إرسالهما فالسند إليهما فيه ضعف، وكذلك فمراسيل قتادة والحسن البصري من أضعف المراسيل.

* * *

س: من هم آل يعقوب؟

ج: قال القرطبي رحمه الله:

قوله تعالىٰ: ﴿مِنْ آلِ يَعْقُوبَ﴾ قيل: هو «يعقوب»، إسرائيل، وكان زكريا متزوجًا بأخت مريم بنت عمران، ويرجع نسبها إلىٰ يعقوب؛ لأنها من ولد سليمان بن داود وهو من ولد يهوذا بن يعقوب، وزكريا من ولد هارون أخي موسىٰ، وهارون وموسىٰ من ولد لاوي بن يعقوب، وكانت النبوّة في سبط يعقوب بن إسحاق.

وقيل: المعنيُّ بـ«يعقوب» هاهنا: يعقوب بن ماثان أخو عمران بن ماثان أبي مريم، أخوان من نسل سليمان بن داود عليهما السلام؛ لأن يعقوب وعمران ابنا ماثان، وبنو ماثان رؤساء بني إسرائيل؛ قاله مقاتل وغيره.

وقال الكلبي: وكان آل يعقوب أخواله، وهو يعقوب بن ماثان، وكان فيهم الملك، وكان زكريا من ولد هارون بن عمران أخي موسىٰ.

* * *

بعض آداب الدعاء المستنبطة من دعاء زكريا عليه السلام

س: اذكر بعض آداب الدعاء المستفادة من دعاء زكريا عليه السلام.

ج: من هذه الآداب ما يلي:

أولاً: إخفاء الدعاء: وهذا أبعدُ عن الرياء، ثم إن فيه امتثالاً لأمر الله إذ قال: ﴿ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً﴾ وقد قدمنا جملةً من الفوائد لإخفاء الدعاء.

هذا، ومن العلماء من لفت النظر إلى شيءٍ من فوائد إخفاء الدعاء هاهنا فقال: إن زكريا عليه السلام قد تقدم به السنُّ ووهن عظمه واشتعل رأسه شيبًا وكانت امرأته عاقراً، فإذا دعا ـ وهو على تلك الحال وبالوصف المذكور ـ أمام قومه فسيسخرون منه ويتهمونه في عقله، فحتى لا يهلك قومه في شأنه، ولا يعذبوا بسببه أخفى عنهم هذا الدعاء، والله أعلم.

ثانيًا: من الآداب أيضًا: إظهار الضعف والعجز بين يدي الله عزَّ وجل عند الدعاء، وذلك من قوله: ﴿إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا﴾ فهو نوع توسلٍ بإظهار الضعف والعجز.

ثالثًا: من الآداب أيضًا التوسل إلى الله بسابق إحسانه، وذِكر سابق نعمه وذلك من قوله: ﴿وَلَمْ أَكُنْ بِدُعَائِكَ رَبِّ شَقِيًّا﴾.

رابعًا: بيان قدرة الله عزَّ وجل والتوسل إليه بذلك، وهذا مأخوذ من

قوله: ﴿ وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا ﴾ أي وأنت يا رب قادرٌ على إصلاحها وجعلها تنجب، وقد كان. فذلك أحد الوجوه في تفسير قوله تعالى: ﴿ وَأَصْلَحْنَا لَهُ زَوْجَهُ ﴾ [الأنبياء: ٩٠].

خامسًا: بيان سبب الدعوة التي يدعو بها، وذلك من قوله: ﴿ وَإِنِّي خِفْتُ الْمَوَالِيَ مِن وَرَائِي ﴾ ومن قوله: ﴿يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ ﴾.

سادسًا: أن الدعوة ليس فيها إثمٌ ولا قطيعةُ رحم، ولا يراد بها الكبر والتجبر على الناس، وذلك مأخوذٌ من قوله: ﴿وَاجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا ﴾، ومن قوله في آية أخرى: ﴿ رَبِّ هَبْ لِي مِن لَّدُنكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ ﴾ [آل عمران: ٣٨].

سابعًا: استحباب الدعاء بالذرية الصالحة، وقد قال زكريا عليه السلام: ﴿ رَبِّ لا تَذَرْنِي فَرْدًا وَأَنتَ خَيْرُ الْوَارِثِينَ ﴾ [الأنبياء: ٨٩].

وفيه أيضًا: الثناء على الله والإقرار له بأنه حي لا يموت.

* * *

س: كيف قال زكريا عليه السلام حينما سأل ربه الولد ﴿يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ﴾ وقد قال النبي محمد ﷺ «لا نورث...»[(١)] ؟

ج: وجه الجواب أن يُقال: إن قوله ﴿يَرِثُنِي﴾ أي يرث علمي ونبوتي، ونحوه وورث سليمان داود، والله تعالى أعلم.

* * *

---

(١) البخاري (٦٧٢٧) ومسلم (١٧٥٨).

س: هل يجوز تسمية المولود قبل ولادته؟

ج: نعم، تجوز تسمية المولود قبل ولادته وكذا بعد ولادته.

أما قبل ولادته: فدليل ذلك قوله تعالىٰ: ﴿**إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ اسْمُهُ يَحْيَىٰ**﴾ فالذي سماه يحيىٰ هو الله سبحانه وتعالىٰ سماه قبل ولادته.

وكذا قوله تعالىٰ: ﴿**فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ وَمِن وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ**﴾ [هود: ٧١].

وقوله تعالىٰ: ﴿**إِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ**﴾ [آل عمران: ٤٥].

أما بعد ولادته: ففي «الصحيحين»(١) من حديث أبي موسىٰ رضي الله عنه قال: وُلد لي غلام فأتيت به النبي ﷺ فسماه إبراهيم.

* * *

س: في قوله تعالى: ﴿إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ اسْمُهُ يَحْيَىٰ﴾ منقبةٌ عظيمةٌ لنبي الله يحيى عليه السلام. وضح هذه المنقبة.

ج: وجه هذه المنقبة أن الله عزَّ وجل هو الذي سماه، ولم يَكِلْ تسميته إلىٰ أبيه.

ونحو هذه منقبة لعيسىٰ عليه السلام أيضًا، فالذي سماه هو الله، إذ قد قال تعالىٰ: ﴿**يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ**﴾ [آل عمران: ٤٥].

* * *

---

(١) البخاري (٦١٩٨) ومسلم (٢١٤٥).

س: لأهل العلم قولان في تفسير قوله تعالى: ﴿لَمْ نَجْعَل لَّهُ مِن قَبْلُ سَمِيًّا﴾ اذكرهما.

ج: **أما الوجه الأول:** فهو أن المعنى: لم نجعل من قبل من تسمى بيحيى، أي: لم يتسمَّ أحدٌ قبله بـ«يحيى».

أما الوجه الثاني: فالمراد: لم نجعل له شبيهًا ولا مثيلاً ولا نظيرًا.

قال الشنقيطي رحمه الله تعالى في كتابه «أضواء البيان»:

وقوله في هذه الآية الكريمة: ﴿**لَمْ نَجْعَل لَّهُ مِن قَبْلُ سَمِيًّا**﴾ اعلم أولاً: أن السميَّ يطلق في اللغة العربية إطلاقين: الأول قولهم: فلان سمي فلان أي مسمى باسمه.

فمن كان اسمهما واحدًا فكلاهما سمي الآخر أي مسمًّى باسمه.

والثاني: إطلاق السمي يعني المسامي أي المماثل في السمو والرفعة والشرف، وهو «فعيل» بمعنى «مفاعل» من السمو بمعنى العلو والرفعة، ويكثر في اللغة إتيان الفعيل بمعنى المفاعل، كالقعيد والجليس بمعنى المقاعد والمجالس.

والأكيل والشريب بمعنى المؤاكل والمشارب، وكذلك السميُّ بمعنى المسامي أي المماثل في السمو.

فإذا علمت ذلك ـ فاعلم أن قوله هنا: ﴿**لَمْ نَجْعَل لَّهُ مِن قَبْلُ سَمِيًّا**﴾ أي لم نجعل من قبله أحدًا يتسمى باسمه؛ فهو أول من كان اسمه «يحيى».

وقول من قال: إن معناه لم نجعل له سميًا أي نظيرًا في السمو والرفعة غير صواب لأنه ليس بأفضل من إبراهيم وموسى ونوح، فالقول الأول هو الصواب.

وممن قال به ابن عباس وقتادة والسدي وابن أسلم وغيرهم.

ويروى القول الثاني عن مجاهد وابن عباس أيضًا.

وإذا علمت أن الصواب أن معنى قوله: ﴿لَمْ نَجْعَل لَّهُ مِن قَبْلُ سَمِيًّا﴾ أي لم نسمِّ أحدًا باسمه قبله ـ فاعلم أن قوله: ﴿رَّبُّ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَاعْبُدْهُ وَاصْطَبِرْ لِعِبَادَتِهِ هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا﴾ [مريم: ٦٥] معناه: أنه تعالى ليس له نظير ولا مماثل يساميه في العلو والعظمة والكمال على التحقيق.

وقال بعض العلماء: وهو مروي عن ابن عباس ﴿هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا﴾ هل تعلم أحدًا يسمى باسمه الرحمن جل وعلا. والعلم عند الله تعالى.

* * *

س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِن قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْئًا﴾.

ج: المعنى، والله تعالى أعلم، أن زكريا عليه السلام لما ذكر لربه تبارك وتعالى وربُّه أعلم، أنه قد بلغ من الكبر عتيًا وأن امرأته كانت عاقرًا، قال الله له(١): ﴿كذلك﴾ أي الأمر كما ذكرت يا زكريا من أنك قد بلغت من الكبر عتيًا وأن امرأتك كانت عاقرًا، ولكن هذا أمرٌ سهل عليَّ، أمرُ الغلام الذي بشرتك به وخلقه وإيجاده وولادته ﴿هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ﴾ أي: سهلٌ ويسيرٌ عليَّ، فقوله: ﴿هُوَ﴾ أي: خلق الغلام.

---

(١) ومن العلماء من قال: إن قائلَ ﴿كذلك﴾ هو جبريل عليه السلام. قاله بأمر الله عزَّ وجل.

قال الطبري رحمه الله تعالى:

يقول تعالىٰ ذكره: قال الله لزكريا مجيبًا له: ﴿قَالَ كَذَٰلِكَ﴾ يقول: هكذا الأمر كما تقول من أنّ امرأتك عاقر، وأنك قد بلغت من الكبر العتي، ولكن ربك يقول: خلْق ما بشَّرتك به من الغلام الذي ذكرت لك أن اسمه (يحيىٰ) عليَّ هين، فهو إذن من قوله: ﴿قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ﴾ كناية عن الخلق.

وقوله: ﴿وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِن قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْئًا﴾ يقول تعالىٰ ذكره وليس خلق ما وعدتك أن أهبه لك من الغلام الذي ذكرت لك أمره منك مع كبر سنك، وعقم زوجتك بأعجب من خلقك، فإني قد خلقتك، فأنشأتك بشراً سويًّا من قبل خلقي ما بشرتك بأني واهبه لك من الولد، ولم تك شيئًا، فكذلك أخلق لك الولد الذي بشرتك به من زوجتك العاقر، مع عِتيك ووهن عظامك، واشتعال شيب رأسك.

❊ ❊ ❊

س: ما وجه قوله تعالى: ﴿وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِن قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْئًا﴾؟

ج: وجه ذلك، والله تعالىٰ أعلم، أن رزقي لك بولدٍ، مع كونك قد بلغت من الكبر عتيًّا، ومع أن زوجتك كانت عاقرًا ليس بأشدَّ ولا أعظم من خلقي لك، فقد خلقتك ولم تك شيئًا.

❊ ❊ ❊

س: كيف يسأل نبي الله زكريا عليه السلام ربَّه تبارك وتعالى أن يرزقه الولد ثم يقول: ﴿رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا...﴾؟

ج: أما قول زكرياء عليه السلام ﴿رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ ...﴾ فليس معناه استبعاد الولد، ولا شك في قدرة الله على أن يرزقه الولد وهو بهذه الصفة.

وكيف يكون ذلك، وكيف يظن ذلك، وهو المبتدئ بالسؤال إذ قال: ﴿فهب لي من لدنك وليًّا..﴾؟!!

أما الجواب على السؤال فله وجوه:

أحدها: أنه سأل عن الصفة والكيفية التي سيأتيه الولد عليها، هل سأرجع شابًّا يا رب، وهل سترجع امرأتي فتاة وتكون محلاًّ للإنجاب؟ أم أنني سأرزق الولد وأنا على هذه الصفة وزوجتي على تلك الحال؟!!

الوجه الثاني: أنه إنما سأل لِيُعاد ذِكر البشارة على مسمعه فالشخص إذا أتاه خبرٌ سارٌّ أحب أن يتكرر على سمعه هذا الخبر.

الوجه الثالث: وهو وجهٌ ضعيف، أنه كان بين دعائه وبشارته زمنٌ طويلٌ إلى حد أنه قد نسي، ووجه الضعف على هذا الوجه بيِّنٌ وذلك لأن زكرياء عليه السلام إنما دعا وهو كبير وذلك بدليل قوله: ﴿رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا﴾.

وأظهر هذه الوجوه أولها، والله تعالى أعلم.

ثم إنه الوجه الذي اختاره ابن جرير الطبري رحمه الله حيث قال:

يقول تعالىٰ ذكره: قال زكريا لما بشره الله بيحيىٰ: ﴿رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلامٌ﴾، ومن أي وجه يكون لي ذلك، وامرأتي عاقر لا تحبل، وقد ضعُفتُ من الكبر عن مباضعة النساء أبأن تقوّيني علىٰ ما ضعفت عنه من ذلك، وتجعل زوجتي ولوداً، فإنك القادر علىٰ ذلك وعلىٰ ما تشاء، أم بأن أنكح زوجة غير زوجتي العاقر؟ يستثبت ربه الخبر، عن الوجه الذي يكون من قبله له الولد، الذي بشره الله به، لا إنكاراً منه ﷺ حقيقة كون ما وعده الله من الولد، وكيف يكون ذلك منه إنكاراً لأن يرزقه الولد الذي بشَّره به، وهو المبتدئ مسألة ربه ذلك بقوله: ﴿فَهَبْ لِي مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا ۝ يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ﴾ بعد قوله: ﴿إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا﴾.

وقال الحافظ ابن كثير رحمه الله: هذا تعجبٌ من زكريا عليه السلام حين أُجيب إلىٰ ما سأل وبُشِّر بالولد ففرح فرحًا شديداً وسأل عن كيفية ما يولد له، والوجه الذي يأتيه منه الولد مع أنه امرأته عاقر لا تلد من أول عمرها مع كبرها، ومع أنه قد كبر وعتا.

وقال الشنقيطي رحمه الله تعالى في تفسيره «أضواء البيان»:

فإن قيل: ما وجه استفهام زكريا في قوله: ﴿أَنَّى يَكُونُ لِي غُلامٌ﴾ مع علمه بقدرة الله تعالىٰ علىٰ كل شيء؟

فالجواب: من ثلاثة أوجه قد ذكرناها في كتابنا «دفع إيهام الاضطراب عند آيات الكتاب» في سورة «آل عمران» وواحد منها فيه بُعدٌ؛ وإن روي عن عكرمة والسدي وغيرهما.

الأول ـ أن استفهام زكريا استفهام استخبار واستعلام؛ لأنه لا يعلم هل

الله يأتيه بالولد من زوجه العجوز على كبر سنهما على سبيل خرق العادة، أو يأمره بأن يتزوج شابة، أو يردهما شابين؟ فاستفهم عن الحقيقة ليعلمها.

ولا إشكال في هذا، وهو أظهرها.

الثاني: أن استفهامه استفهام تعجب من كمال قدرة الله تعالى.

الثالث - وهو الذي ذكرنا أن فيه بعداً هو ما ذكره ابن جرير عن عكرمة والسدي: من أن زكريا لما نادته الملائكة وهو قائم يصلي في المحراب أن الله يبشرك بيحيى، قال له الشيطان: ليس هذا نداء الملائكة، وإنما هو نداء الشيطان، فداخل زكرياء الشك في أن النداء من الشيطان، فقال عند ذلك الشكّ الناشئ عن وسوسة الشيطان قبل أن يتيقن أنه من الله: ﴿أَنَّى يَكُونُ لِي غُلامٌ﴾ ولذا طلب الآية من الله على ذلك بقوله: ﴿رَبِّ اجْعَل لِّي آيَةً﴾ الآية.

وإنما قلنا: إن هذا القول فيه بعدٌ لأنه لا يلتبس على زكرياء نداء الملائكة بنداء الشيطان.

* * *

س: لماذا سأل زكريا عليه السلام ربَّه تبارك وتعالى آية؟

ج: الظاهر، والله أعلم أنه سأل ربه علامة ودليلاً يدله على أن امرأته قد حملت، أي: أن سؤال الآية كان لمعرفة وقت حمل امرأته، ليأخذ لذلك أهبته ويستعد له استعداده ويعمل بمقتضيات ذلك.

ووجه آخر: طلب آية تدله على أن البشرى منه بيحيى لا من الشيطان.

ووجه ثالث: أنه سأل ربه آية لمزيد من الطمأنينة.

قال الحافظ ابن كثير رحمه الله:

﴿قَالَ رَبِّ اجْعَل لِّي آيَةً﴾ أي: علامة ودليلاً على وجود ما وعدتني لتستقر نفسي ويطمئن قلبي بما وعدتني كما قال الخليل إبراهيم عليه السلام: ﴿رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن قَالَ بَلَى وَلَكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي﴾ [البقرة: ٢٦٠].

أما ما أورده الطبري بإسناد حسن عن قتادة أنه قال: ﴿قَالَ آيَتُكَ أَلاَّ تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلاثَ لَيَالٍ سَوِيًّا﴾ من غير بأس ولا خرس، وإنما عوقب بذلك لأنه سأل آية بعد ما شافهته الملائكته مشافهة، أُخذ بلسانه حتى ما كان يفيض الكلام إلا أومأ إيماء.

فهذا وجهٌ ضعيفُ المعنى، ولا أظن أبدًا أن هذا المنع من الكلام يُعدُّ عقابًا، والله تعالى أعلم.

* * *

س: وضح معنى قوله: ﴿آيَتُكَ أَلاَّ تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلاثَ لَيَالٍ سَوِيًّا﴾.

ج: المعنى، والله تعالى أعلم، دلالتك على ما سألت عنه بشأن بشارتنا لك بالولد أنك تُمنع من الكلام لمدة ثلاث ليال، من غير مرضٍ ألمَّ بك، ولا سقم حلَّ بك.

ووجه آخر قريب: العلامة التي تستدل بها على أن امرأتك قد حملت بيحيى أنك ستُمنع من الكلام ثلاث ليالٍ متصلة من غير مرض ولا خرس ولا سقم ولا آفة.

وقد قال الله تبارك وتعالى في سورة «آل عمران» ﴿آيَتُكَ أَلاَّ تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلاثَةَ أَيَّامٍ إِلاَّ رَمْزًا﴾ [آل عمران: ٤١].

قال الحافظ ابن كثير رحمه الله:

وهذا دليل على أنه لم يكن يكلم الناس في هذه الليالي الثلاث وأيامها ﴿إِلاَّ رَمْزًا﴾ أي: إشارة؛ ولهذا قال في هذه الآية الكريمة: ﴿فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ مِنَ الْمِحْرَابِ﴾ أي: الذي بشِّر فيه بالولد: ﴿فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ﴾ أي: أشار إشارة خفية سريعة: ﴿أَن سَبِّحُوا بُكْرَةً وَعَشِيًّا﴾ أي: موافقة له فيما أمر به في هذه الأيام الثلاثة، زيادة على أعماله وشكرًا لله على ما أولاه.

قال الشنقيطي رحمه الله في «أضواء البيان»:

وقوله في هذه الآية الكريمة: ﴿آيَتُكَ أَلاَّ تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلاثَ لَيَالٍ سَوِيًّا﴾ أي علامتك على وقوع ذلك ألا تكلم الناس، أي أن تمنع الكلام فلا تطيقه ثلاث ليالٍ بأيامهن في حال كونك سويًّا، أي: سوي الخلق، سليم الجوارح، ما بك خرس ولا بكم ولكنك ممنوع من الكلام على سبيل خرق العادة، كما قدمنا في «آل عمران».

أما ذكر الله فليس ممنوعًا منه بدليل قوله في «آل عمران»: ﴿وَاذْكُر رَّبَّكَ كَثِيراً وَسَبِّحْ بِالْعَشِيِّ وَالإِبْكَارِ﴾.

وقول من قال: إن معنى قوله تعالى: ﴿ثَلاثَ لَيَالٍ سَوِيًّا﴾ أي: ثلاث ليال متتابعات - غير صواب، بل معناه هو ما قدمنا من كون اعتقال لسانه عن كلام قومه ليس لعلة ولا مرض حدث به؛ ولكن بقدرة الله تعالى وقد قال تعالى هنا: ﴿ثَلاثَ لَيَالٍ﴾ ولم يذكر معها أيامها، ولكنه ذكر الأيام في «آل عمران»، في قوله: ﴿قَالَ آيَتُكَ أَلاَّ تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلاثَةَ أَيَّامٍ﴾ الآية.

فدلت الآيتان على أنها ثلاث ليالٍ بأيامهن.

وقوله تعالى في هذه الآية: ﴿أَلاَّ تُكَلِّمَ النَّاسَ﴾ يعني: إلا بالإشارة أو

الكتابة، كما دل عليه قوله هنا: ﴿فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ أَن سَبِّحُوا بُكْرَةً وَعَشِيًّا﴾، وقوله في «آل عمران»: ﴿قَالَ آيَتُكَ أَلاَّ تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلاثَةَ أَيَّامٍ إِلاَّ رَمْزًا﴾ الآية؛ لأن الرمز: الإشارة والإيماء بالشفتين والحاجب.

* * *

س: اذكر بمزيد من الإيضاح معنى قوله تعالى: ﴿فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ﴾.

ج: قال الشنقيطي رحمه الله تعالى في «أضواء البيان»:

والإيحاء في قوله: ﴿فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ أَن سَبِّحُوا﴾ الآية، قال بعض العلماء: هو الإشارة وهو الأظهر بدليل قوله: ﴿إِلاَّ رَمْزًا﴾ كما تقدم آنفا.

وقال أيضًا:

والوحي: في لغة العرب يطلق على كل إلقاء في سرعة وخفاء. ولذلك أطلق على الإلهام، كما في قوله تعالى: ﴿وَأَوْحَى رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ﴾ [النحل:٦٨] الآية.

وعلى الإشارة كما هو الظاهر في قوله تعالى: ﴿فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ أَن سَبِّحُوا﴾ الآية.

ويطلق على الكتابة كما هو القول الآخر في هذه الآية الكريمة. وإطلاق الوحي على الكتابة مشهور في كلام العرب.

* * *

س: ما المراد بقوله تعالى: ﴿سَبِّحُوا بُكْرَةً وَعَشِيًّا﴾؟

ج: لأهل العلم في ذلك وجهان:

أحدهما: أن المراد بالتسبيح ذكر الله عزَّ وجل المتضمن قول: «سبحان الله».

الثاني: أن المراد بالتسبيح بكرة وعشيًّا :الصلاة في هذين الوقتين.

* * *

س: قوله تعالى: ﴿يَا زَكَرِيَّا إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلامٍ اسْمُهُ يَحْيَى..﴾ تضمن محذوفًا وضح هذا المحذوف.

ج: قال الحافظ ابن كثير رحمه الله تعالى: هذا الكلام يتضمن محذوفًا وهو: أنه أُجيب إلى ما سأل في دعائه.

* * *

س: لقد بُشِّر إبراهيم عليه السلام على الكبر بإسحاق، وكذا بُشِّرت زوجته سارة عليها السلام، فما الفارق بين هذه البشارة لزكريا وزوجته وبين البشارة لإبراهيم وسارة عليهما السلام؟

ج: الفارق يتمثل في أن زكريا عليه السلام كان لا يولد له وكذلك امرأته كانت عاقرًا، أما إبراهيم عليه السلام فكان يُولد له، فقد رزق من قبل بإسماعيل عليه السلام.

قال الحافظ ابن كثير رحمه الله:

وهذا دليل على أن زكريا ـ عليه السلام ـ كان لا يولد له، وكذلك امرأته كانت عاقرًا من أول عمرها، بخلاف إبراهيم وسارة ـ عليهما السلام ـ فإنهما إنما تعجبا من البشارة بإسحاق على كبرهما لا لعقرهما؛ ولهذا قال: ﴿أَبَشَّرْتُمُونِي عَلَى أَن مَّسَّنِيَ الْكِبَرُ فَبِمَ تُبَشِّرُونَ﴾ [الحجر:٥٤]. مع أنه قد كان ولد له قبله إسماعيل بثلاث عشرة سنة، وقالت امرأته: ﴿يَا وَيْلَتَى أَأَلِدُ وَأَنَا عَجُوزٌ وَهَذَا بَعْلِي شَيْخًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ (٧٢) قَالُوا أَتَعْجَبِينَ مِنْ

أَمْرِ اللهِ رَحْمَتُ اللهِ وَبَرَكَاتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ إِنَّهُ حَمِيدٌ مَّجِيدٌ ﴾ [هود: ٧٢، ٧٣].

* * *

س: النعم تحتاج إلى مزيد من الشكر، وضح ذلك من قصة نبي الله زكريا عليه السلام؟ وكذا من غيرها.

ج: إيضاحه أن زكريا عليه السلام لما بُشر بيحيى عليه السلام أُمر أن يقدم لذلك شكرًا إذ الله قال: ﴿ **وَاذْكُر رَّبَّكَ كَثِيراً وَسَبِّحْ بِالْعَشِيِّ وَالإِبْكَارِ** ﴾ [آل عمران: ٤١].

فامتثل ذلك عليه السلام، وأمر قومه بذلك: ﴿ **فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ مِنَ الْمِحْرَابِ فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ أَن سَبِّحُوا بُكْرَةً وَعَشِيًّا** ﴾ أي: شكرًا لله على ما امتن به وتفضل وأنعم.

أما من غير هذه القصة، فقد قال تعالى لنبيه محمد ﷺ: ﴿ **إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ ۝١ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ** ﴾ [الكوثر: ١-٢].

وقال: ﴿ **أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَى ۝٦ وَوَجَدَكَ ضَالاً فَهَدَى ۝٧ وَوَجَدَكَ عَائِلاً فَأَغْنَى** ﴾ [الضحى: ٦-٨] ثم أمره فقال: ﴿ **فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلا تَقْهَرْ ۝٩ وَأَمَّا السَّائِلَ فَلا تَنْهَرْ ۝١٠ وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ** ﴾ [الضحى: ٩-١٠].

وكذلك قال تعالى: ﴿ **لإِيلافِ قُرَيْشٍ ۝١ إِيلافِهِمْ رِحْلَةَ الشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ ۝٢ فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ ۝٣ الَّذِي أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَآمَنَهُم مِّنْ خَوْفٍ** ﴾ [قريش: ١-٤].

* * *

س: ما المراد بالكتاب في قوله تعالى: ﴿يَا يَحْيَى خُذِ الْكِتَابَ بِقُوَّةٍ﴾؟

ج: المراد بالكتاب، والله تعالى أعلم: التوراة.

* * *

س: قوله تعالى: ﴿يَا يَحْيَى خُذِ الْكِتَابَ بِقُوَّةٍ﴾ تضمن محذوفًا وضحه.

ج: إيضاحه فيما ذكره الحافظ ابن كثير رحمه الله تعالى حيث قال:

وهذا أيضًا تضمن محذوفًا تقديره: أنه وجد هذا الغلام المبشر به، وهو: يحيى عليه السلام، وأن الله علمه الكتاب، وهو التوراة التي كانوا يتدارسونها بينهم، ويحكم بها النبيون الذين أسلموا للذين هادوا، والربانيون والأحبار، وقد كان سِنُّه إذ ذاك صغيرًا، فلهذا نوه بذكره، وبما أنعم به عليه وعلى والديه، فقال: ﴿يَا يَحْيَى خُذِ الْكِتَابَ بِقُوَّةٍ﴾، أي: تعلم الكتاب، ﴿بِقُوَّةٍ﴾، أي: بجد، وحرص، واجتهاد، ﴿وَآتَيْنَاهُ الْحُكْمَ صَبِيًّا﴾ أي: الفهم والعلم، والجد والعزم، والإقبال على الخير، والإكباب عليه، والاجتهاد فيه، وهو صغير حدث.

* * *

س: وضح المعنى الإجمالي لقوله تعالى ﴿يَا يَحْيَى خُذِ الْكِتَابَ بِقُوَّةٍ﴾.

ج: المعنى، والله تعالى أعلم، أن الله تبارك وتعالى بعد أن رزق زكريا عليه السلام بيحيى، قال جل ذِكره ليحيى عليه السلام: يا يحيى أقبل على التوراة واعمل بما فيها بجدٍّ واجتهادٍ.

وقد صح عن ابن زيد[١] أنه قال: القوة أن يعمل ما أمره الله به، ويُجانب فيه ما نهاه الله.

قال الحافظ ابن كثير رحمه الله تعالى في تفسير قوله تعالى: ﴿**يَا يَحْيَى خُذِ الْكِتَابَ بِقُوَّةٍ**..﴾ وهذا أيضًا تضمن محذوفًا تقديره: أنه وجد هذا الغلام المبشر به، وهو: يحيى عليه السلام، وأن الله علمه الكتاب، وهو التوراة التي كانوا يتدارسونها بينهم، ويحكم بها النبيون الذين أسلموا للذين هادوا، والربانيون والأحبار، وقد كان سنه إذ ذاك صغيرًا، فلهذا نوه بذكره، وبما أنعم به عليه وعلى والديه، فقال: ﴿**يَا يَحْيَى خُذِ الْكِتَابَ بِقُوَّةٍ**﴾، أي: تعلم الكتاب ﴿**بِقُوَّةٍ**﴾، أي: بجد، وحرص، واجتهاد ﴿**وَآتَيْنَاهُ الْحُكْمَ صَبِيًّا**﴾ أي: الفهم والعلم، والجد والعزم، والإقبال على الخير، والإكباب عليه، والاجتهاد فيه، وهو صغير حدث.

* * *

س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿وَحَنَانًا مِّن لَّدُنَّا﴾.

ج: قال بعض أهل العلم: ورحمةً منا به ومحبةً منا له آتيناه الحكم صبيًّا.

قال الحافظ ابن كثير رحمه الله تعالى:

فالحنان: هو المحبة في شفقة وميل، كما تقول العرب: حنت الناقة على ولدها، وحنت المرأة على زوجها، ومنه سميت المرأة حَنّة من الحَنّة وحنَّ الرجلُ إلى وطنه، ومنه التعطُّف والرحمة. كما قال الشاعر:

تَحَنَّنْ عَلَيَّ هَدَاكَ المَلِيكُ ... فإن لكُلِّ مقام مقالاً

* * *

(١) الطبري (٢٣٥٤٧).

س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿وَحَنَانًا مِّن لَّدُنَّا وَزَكَاةً وَكَانَ تَقِيًّا﴾.

ج: المعنى، والله تعالى أعلم، ورحمةً منًّا بيحيى عليه السلام، ومحبةً منا له، وتعطفًا منا عليه آتيناه الحكم صبيًّا، وكذا زكيناه فجعلناه زكيًّا طاهرًا من الذنوب والمعاصي، فقد كان عليه السلام من فضل الله عليه، تقيًّا.

قال الشنقيطي رحمه الله:

وقوله في هذه الآية الكريمة: ﴿وَحَنَانًا﴾ معطوف على ﴿الْحُكْمَ﴾ أي: وآتيناه حنانًا من لدنا.

والحنان: هو ما جبل عليه من الرحمة، والعطف والشفقة.

وإطلاق الحنان على الرحمة والعطف مشهور في كلام العرب، ومنه قولهم: حنانك وحنانيك يا رب، بمعنى رحمتك. ومن هذا المعنى قول امرئ القيس:

أبنت الحارث الملك بن عمرو ... له ملك العراق إلى عمان
ويمنحها بنو شمجي بن جرم ... معيزهم حنانك ذا الحنان

يعني رحمتك يا رحمن.

وقول طرفة بن العبد:

أبا منذر أفنيت فاستبق بعضنا ... حنانيك بعض الشر أهون من بعض

وقول منذر بن درهم الكلبي:

وأحدث عهد من أمينة نظرة ... على جانب العلياء إذ أنا واقف
فقالت حنان ما أتى بك هاهنا ... أذو نسب أم أنت بالحي عارف

فقوله: ﴿وَحَنَانًا﴾ أي: أمري حنان؛ أي: رحمة لك، وعطف وشفقة عليك ـ وقول الحطيئة أو غيره:

تحنن عليَّ هداك المليك ... فإن لكل مقام مقالا

وقوله تعالى: ﴿مِّن لَّدُنَّا﴾ أي: من عندنا، وأصح التفسيرات في قوله ﴿وَزَكَاةً﴾ أنه معطوف على ما قبله أي: أو أعطيناه زكاة، أي: طهارة من أدران الذنوب والمعاصي بالطاعة، والتقرب إلى الله بما يرضيه.

* * *

س: الرحمة المقذوفة[1] في قلوب العباد لشيءٍ ما إنما هي من الله عزَّ وجل، دلِّل على ما نقول.

ج: من الأدلة على ذلك قوله تعالى: ﴿وَحَنَانًا مِّن لَّدُنَّا وَزَكَاةً﴾.

وقوله تعالى في شأن موسى عليه السلام ﴿وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّي وَلِتُصْنَعَ عَلَى عَيْنِي﴾ [طه:٣٩].

* * *

س: وضح المعنى الإجمالي لقوله تعالى: ﴿وَبَرًّا بِوَالِدَيْهِ وَلَمْ يَكُن جَبَّارًا عَصِيًّا﴾:

ج: **قال الطبري رحمه الله:** يقول تعالى ذكره: وكان برًّا بوالديه مسارعًا في طاعتهما ومحبتهما غير عاقٍّ بهما، ﴿وَلَمْ يَكُن جَبَّارًا عَصِيًّا﴾ يقول جلَّ ثناؤه: ولم يكن مستكبرًا عن طاعة ربه وطاعة والديه ولكنه كان لله ولوالديه متواضعًا متذللاً يأتمر لما أمر به وينتهي عما نُهي عنه، لا يعصي ربه ولا والديه.

وقال الحافظ ابن كثير رحمه الله:

وقوله: ﴿وَبَرًّا بِوَالِدَيْهِ وَلَمْ يَكُن جَبَّارًا عَصِيًّا﴾ لما ذكر تعالى طاعته لربه،

---

(١) وسيأتي لذلك مزيد - إن شاء الله - في آخر هذه السورة المباركة الكريمة.

وأنه خلقه ذا رحمة وزكاة وتقى، عطف بذكر طاعته لوالديه وبره بهما، ومجانبته عقوقهما قولاً وفعلاً أمرًا ونهيًا؛ ولهذا قال: ﴿ **وَلَمْ يَكُن جَبَّارًا عَصِيًّا** ﴾.

وقال الشنقيطي رحمه الله تعالى في «أضواء البيان»:

وقوله تعالى: ﴿ **وَبَرًّا بِوَالِدَيْهِ** ﴾ البَرّ بالفتح هو فاعل البِرّ - بالكسر - كثيرًا أي: وجعلناه كثير البر بوالديه، أي: محسنًا إليهما، لطيفًا بهما، لين الجانب لهما.

وقوله: ﴿ **وَبَرًّا** ﴾ معطوف على قوله: ﴿ **تَقِيًّا** ﴾، وقوله: ﴿ **وَلَمْ يَكُن جَبَّارًا عَصِيًّا** ﴾ أي: لم يكن مستكبرًا عن طاعة ربه وطاعة والديه ولكنه كان مطيعًا لله متواضعًا لوالديه.

* * *

س: اذكر بعض المؤهلات التي زود الله بها يحيى عليه السلام. وهي مؤهلات لمن سيقوم على قومٍ ويسوسهم.

ج: من هذه المؤهلات الذكاء والفهم، وذلك من قوله تعالى: ﴿ **وَآتَيْنَاهُ الْحُكْمَ صَبِيًّا** ﴾ فكان فذًّا في فهمه عليه السلام.

وكذا ينبغي لمن يسوس الناس أن يكون فهمًا فذًّا، وكذلك قال يوسف عليه السلام لما رشَّح نفسه على خزائن الأرض، إذ قال: ﴿ **اجْعَلْنِي عَلَى خَزَائِنِ الأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ** ﴾ [يوسف:٥٥].

ومن هذه المؤهلات كونه ﴿ **حَنَانًا** ﴾ أي: ذا حنان وشفقةٍ ورحمة لمن هم تحت يديه.

وقد قال تعالى لنبيه محمد ﷺ ﴿ **فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللهِ لِنتَ لَهُمْ وَلَوْ**

كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لانفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الأَمْرِ ﴾ [آل عمران: ١٥٩].

ومن هذه المؤهلات زكاة النفس وطهارتها وعفتها وذلك من قوله: ﴿ **وَزَكَاةً** ﴾ فلا ينبغي للقائم على أمور الناس أن يكون ملوثًا بالذنوب والخطايا والآثام وكبائر الذنوب، بل ينبغي أن يكون زكي النفس مستغفرًا أوَّاهًا.

ومن هذه المؤهلات كونه ﴿ **تَقِيًّا** ﴾ أي يتقي محارم الله عزَّ وجل فلا يقربها ويتقي ربه وبأسه وعقابه.

ومن هذه المؤهلات كونه كان بارًّا بوالديه فمن كان مؤذيًا لوالديه كيف يكون نفاعًا للناس وهو مسيء إلى المحسنين إليه وهما الأبوان.

كذلك على الذي يسوس الناس أن يكون رحيمًا لهم غير جبار ومفسد، ولا شرير عارم، ولا شديد البطش في غير موضعه.

وكذلك فليس في عداد الأشقياء وليس من جملتهم.

كذلك ينبغي أن يكون حسن الاسم حتى لا يتخذ مجالاً للسخرية، فقد قال تعالى في شأن يحيى عليه السلام ﴿ **لَمْ نَجْعَل لَّهُ مِن قَبْلُ سَمِيًّا** ﴾.

* * *

س: ما المراد بالسلام عليه يوم ولد؟

ج: المراد، والله تعالى أعلم: أمانٌ عليه يوم وُلِد من أن يقربه الشيطان بسوءٍ أو مكروه، وذلك لأنه ما من مولود يولد إلا ويطعن الشيطان في خاصرته حين يولد فيستهل صارخًا.

ففي الحديث(١) عن أبي هريرة رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ: «**ما من مولود يُولَد إلا نَخَسَه الشيطانُ فيستهلّ صارخًا من نخسة الشيطان إلا ابنَ مريمَ وأمَّه**»، ثم قال أبو هريرة رضي الله عنه: اقرءوا إن شئتم ﴿**وَإِنِّي أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ**﴾ [آل عمران: ٣٦].

وقد ورد بسندٍ مرسل من طريقِ سعيد بن المسيب(٢): أنه كان يذكر أن رسول الله ﷺ قال: «**ما مِن أحدٍ يلقى الله يوم القيامة إلا ذا ذنبٍ(٣) إلا يحيى ابنَ زكرياء**».

وقد ورد هذا الخبر مرفوعًا متصلاً لكن في سنده ضعف.

ومن العلماء من قال: إن المراد بالسلام التحية المتعارف عليها بين الناس. والله أعلم.

* * *

س: ما المراد بالسلام عليه يوم يموت؟

ج: المراد، والله تعالى أعلم: الأمان عليه ـ يوم يموت ـ من فتنة الشيطان أن يتخبطه عند الموت، فالشيطان عياذاً بالله يتخبط أقوامًا عند الموت، وكذا أمانٌ عليه من فتنة القبر.

وأيضًا، فقد قال بعض العلماء إن المراد بالسلام هنا التحية، فالله أعلم.

* * *

(١) البخاري (٤٥٤٨) ومسلم (٢٣٦٦).

(٢) الطبري (٢٣٥٦٧) بسندٍ صحيح.

(٣) وذلك عند الطبري أيضًا (٢٣٥٦٦).

وانظر التسهيل سورة (آل عمران) عند قوله تعالى: ﴿وسيداً وحصوراً﴾.

س: ما المراد بالسلام عليه يوم يبعث حيًّا؟

ج: المراد، والله أعلم وأمانٌ له من عذاب الله يوم القيامة، يوم الفزع الأكبر، من أن يروِّعه شيء أو أن يُفزِّعه ما يفزِّع الخلق.

﴿وَسَلامٌ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا﴾ أي: له الأمان في هذه الثلاثة الأحوال.

قال الشنقيطي رحمه الله تعالى في «أضواء البيان»:

وإنما خص هذه الأوقات الثلاثة بالسلام، التي هي وقت ولادته، ووقت موته، ووقت بعثه، في قوله: ﴿يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ﴾ الآية، لأنها أوحش من غيرها.

قال سفيان بن عيينة: أوحش ما يكون المرء في ثلاثة مواطن: يوم يولد فيرى نفسه خارجًا مما كان فيه، ويوم يموت فيرى قومًا لم يكن عاينهم، ويوم يبعث فيرى نفسه في محشر عظيم.

قال: فأكرم الله فيها يحيى بن زكريا فخصه بالسلام عليه فيها.

* * *

شيء من قصة مريم عليها السلام

﴿ وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ مَرْيَمَ إِذِ ٱنتَبَذَتْ
مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا ﴿١٦﴾ فَٱتَّخَذَتْ مِن دُونِهِمْ حِجَابًا
فَأَرْسَلْنَآ إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا ﴿١٧﴾ قَالَتْ إِنِّىٓ
أَعُوذُ بِٱلرَّحْمَٰنِ مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيًّا ﴿١٨﴾ قَالَ إِنَّمَآ أَنَا۠ رَسُولُ
رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَٰمًا زَكِيًّا ﴿١٩﴾ قَالَتْ أَنَّىٰ يَكُونُ لِى
غُلَٰمٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِى بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا ﴿٢٠﴾ قَالَ كَذَٰلِكِ
قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَىَّ هَيِّنٌ ۖ وَلِنَجْعَلَهُۥٓ ءَايَةً لِّلنَّاسِ وَرَحْمَةً
مِّنَّا ۚ وَكَانَ أَمْرًا مَّقْضِيًّا ﴿٢١﴾ ۞ فَحَمَلَتْهُ فَٱنتَبَذَتْ
بِهِۦ مَكَانًا قَصِيًّا ﴿٢٢﴾ فَأَجَآءَهَا ٱلْمَخَاضُ إِلَىٰ جِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ
قَالَتْ يَٰلَيْتَنِى مِتُّ قَبْلَ هَٰذَا وَكُنتُ نَسْيًا مَّنسِيًّا ﴿٢٣﴾
فَنَادَىٰهَا مِن تَحْتِهَآ أَلَّا تَحْزَنِى قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا ﴿٢٤﴾
وَهُزِّىٓ إِلَيْكِ بِجِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ تُسَٰقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا ﴿٢٥﴾
فَكُلِى وَٱشْرَبِى وَقَرِّى عَيْنًا ۖ فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ ٱلْبَشَرِ أَحَدًا فَقُولِىٓ
إِنِّى نَذَرْتُ لِلرَّحْمَٰنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ ٱلْيَوْمَ إِنسِيًّا ﴿٢٦﴾

فَأَتَتْ بِهِۦ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُۥ ۖ قَالُوا۟ يَٰمَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْـًٔا
فَرِيًّا ﴿٢٧﴾ يَٰٓأُخْتَ هَٰرُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ ٱمْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ
أُمُّكِ بَغِيًّا ﴿٢٨﴾ فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ ۖ قَالُوا۟ كَيْفَ نُكَلِّمُ مَن كَانَ فِى
ٱلْمَهْدِ صَبِيًّا ﴿٢٩﴾ قَالَ إِنِّى عَبْدُ ٱللَّهِ ءَاتَىٰنِىَ ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلَنِى
نَبِيًّا ﴿٣٠﴾ وَجَعَلَنِى مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ وَأَوْصَٰنِى بِٱلصَّلَوٰةِ
وَٱلزَّكَوٰةِ مَا دُمْتُ حَيًّا ﴿٣١﴾ وَبَرًّۢا بِوَٰلِدَتِى وَلَمْ يَجْعَلْنِى
جَبَّارًا شَقِيًّا ﴿٣٢﴾ وَٱلسَّلَٰمُ عَلَىَّ يَوْمَ وُلِدتُّ وَيَوْمَ أَمُوتُ
وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا ﴿٣٣﴾ ذَٰلِكَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ ۚ قَوْلَ ٱلْحَقِّ
ٱلَّذِى فِيهِ يَمْتَرُونَ ﴿٣٤﴾ مَا كَانَ لِلَّهِ أَن يَتَّخِذَ مِن وَلَدٍ ۖ سُبْحَٰنَهُۥٓ ۚ
إِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٣٥﴾ وَإِنَّ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبُّكُمْ
فَٱعْبُدُوهُ ۚ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٣٦﴾ فَٱخْتَلَفَ ٱلْأَحْزَابُ مِنۢ
بَيْنِهِمْ ۖ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن مَّشْهَدِ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٣٧﴾ أَسْمِعْ بِهِمْ
وَأَبْصِرْ يَوْمَ يَأْتُونَنَا ۖ لَٰكِنِ ٱلظَّٰلِمُونَ ٱلْيَوْمَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٣٨﴾
وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ ٱلْحَسْرَةِ إِذْ قُضِىَ ٱلْأَمْرُ وَهُمْ فِى غَفْلَةٍ وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ
﴿٣٩﴾ إِنَّا نَحْنُ نَرِثُ ٱلْأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا وَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ ﴿٤٠﴾

س: اذكر معنى ما يلي:

انتبذت ـ مكانًا شرقيًّا ـ حجابًا ـ روحنا ـ فتمثَّل لها بشرًا ـ سويًّا ـ أعوذ بالرحمن منك ـ إن كنت تقيًّا ـ زكيًّا ـ أنى ـ يمسسني بشر ـ ولم أكن بغيًّا ـ آية للناس ـ كان أمرًا مقضيًّا ـ فانتبذت به ـ قصيًّا ـ فأجآءها المخاض ـ نسيًا منسيًّا ـ سريًّا ـ هزِّي بجذع النخلة تساقط ـ رطبًا جنيًّا ـ قرِّي عينا ـ فإما ترين ـ البشر ـ صومًا ـ جئت شيئًا فريًّا ـ امرأ سوء ـ بغيًّا ـ المهد ـ مباركًا ـ ما دمت حيًّا ـ جبارًا ـ شقيًّا ـ ذلك ـ قول الحقِّ ـ يمترون ـ ما كان لله سبحانه ـ الأحزاب ـ فويل ـ مشهد يوم عظيم ـ أسمع بهم وأبصر ـ يوم يأتوننا ـ الظالمون ـ ضلالٍ ـ مبين ـ يوم الحسرة.

ج:

الكلمة	معناها
﴿ انتَبَذَتْ ﴾	انفردت[١] ـ ابتعدت ـ اعتزلت ـ تنحت.
﴿ مَكَانًا شَرْقِيًّا ﴾	مكانًا ناحية المشرق[٢] ـ شاسعًا متنحيًا.
﴿ حِجَابًا ﴾	ساترًا.
﴿ رُوحَنَا ﴾	هو جبريل عليه السلام[٣].

(١) صح عن قتادة أنه قال: انفردت من أهلها (الطبري ٢٣٥٧٠).

(٢) والشرق هو: المكان الذي تشرق فيه الشمس، وقد قيل: إنهم يعظمون جهة المشرق من حيث تطلع الشمس.

(٣) شاهده قوله تعالى: ﴿نزل به الروح الأمين﴾.

الكلمـــة	معنـاهـــا
﴿ فتمثل لها ﴾	تصورَّ لها .
﴿ بشرا ﴾	رجلاً من بني آدم .
﴿ سويًا ﴾	معتدل الخلق ـ تام الخلق (أي : على صورة إنسانٍ تامٍّ كامل) .
﴿ أعوذ بالرحمن منك ﴾	ألجأ وأستجير بالرحمن منك .
﴿ إن كنت تقيًا ﴾	إن كنت ذا تقوى لله ، تتقي محارمه وتجتنب معاصيه ـ إن كنت تحذر غضب الله وتخشى عقابه .
﴿ زكيًا ﴾	طاهرًا من الذنوب .
﴿ أنى ﴾	من أي وجهٍ .
﴿ لم يمسسني بشر ﴾	لم يتزوجني بشر ولم يقربني بجماع .
﴿ لم أك بغيًا ﴾	لم أكن زانية .
﴿ آية للناس ﴾	دلالةً ـ علامة للناس على قدرتنا .
﴿ أمرًا مقضيًا ﴾	أمرًا قضاه الله وقدره ولابد أن يقع فقد قضى الله في حكمه أنه واقع وكائن .
﴿ فانتبذت به ﴾	فاعتزلت به .
﴿ قصيًا ﴾	قاصيًا ـ نائيًا ـ بعيدًا .
﴿ فأجاءها ﴾	فألجأها ـ فاضطرَّها ـ فجاء بها .
﴿ المخاض ﴾	آلام الولادة ـ الطلْقُ . وقيل : سُمي مخاضًا من المخض ، وهو الحركة الشديدة

الكلمة	معناها
	لشدة تحرك الجنين في بطنها إذا أراد الخروج .
﴿ نَسْيًا مَّنسِيًّا ﴾	شيئًا نُسي[١] فترك البحث عنه ولم يعودوا يطلبونه ، لا أثر له ولا خبر عنه ـ لم أخلق ولم أك شيئًا لا أُعرف ولا يدري من أنا .
﴿ سَرِيًّا ﴾	نهرًا صغيرًا ـ جدولاً[٢] ، وقيل : إن السَّري هو العظيم من الرجال . وقيل : السري هو السيد ، وهو عيسى عليه السلام .
﴿ وَهُزِّي ﴾	حركي .
﴿ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ ﴾	جذع النخلة[٣] .
﴿ تُسَاقِطْ ﴾	تُسقط ـ تتساقط .
﴿ رُطَبًا جَنِيًّا ﴾	مجنيًّا[٤] ـ لم يبعد عن أيدي مجتنيه ، وقيل : لم يجف ولم ييبس .
﴿ قَرِّي عَيْنًا ﴾	ولتستقر عينك ـ طِيبي نفسًا ، وقال آخرون : المعنى فلتبرد دمعك ، لأن دمعة الفرح باردة ، ودمعة الحزن حارة .
﴿ فَإِمَّا تَرَيِنَّ ﴾	مهما رأيت .
﴿ الْبَشَرِ ﴾	بنو آدم .

(١) قال البعض : كخرقة المحيض التي تُرمى .
(٢) صح ذلك عن البراء رضي الله عنه .
(٣) والباء كالباء في قوله تعالى : ﴿تنبت بالدهن﴾ وكما في قولنا : زوجتك بفلانة أي زوجتك فلانة .
(٤) قال الطبري رحمه الله : وكلُّ ما أخذ ثمره أو نُقل عن موضعه بطراوته فقد اجتني .

الكلمـــة	معنـاهـــــا
﴿ صَوْمًا ﴾	صمتًا عن الكلام، قال بعض العلماء: كان المجتهد من بني إسرائيل يصوم عن الطعام والشراب والكلام.
﴿ جِئْتِ شَيْئًا فَرِيًّا ﴾	أحدثت حدثًا عظيمًا ـ عملت عملاً منكرًا عظيمًا. وقيل: شيئًا عجيبًا فائقًا، وقيل: شيئًا مختلقًا.
﴿ امْرَأَ سَوْءٍ ﴾	رجل سوءٍ يعمل الفواحش.
﴿ بَغِيًّا ﴾	زانية.
﴿ الْمَهْدِ ﴾	فراش الطفل الصغير ـ الحِجر.
﴿ مُبَارَكًا ﴾	نَفَّاعًا للخلق ـ مُعلمًا للخير ذا بركاتٍ.
﴿ الزَّكَاةِ ﴾	قيل: المراد زكاة الأموال، وقيل: زكاة النفس وطهارتها.
﴿ مَا دُمْتُ حَيًّا ﴾	طيلة حياتي ـ ما دمت حيًّا في الدنيا.
﴿ جَبَّارًا ﴾	الجبار هو العاتي المستكبر عن عبادة ربه وطاعته ـ وقيل: جبارًا متعظمًا.
﴿ شَقِيًّا ﴾[1]	تعسًا غير سعيد ـ ضالاً غير مهتدٍ.
﴿ ذَلِكَ ﴾	ذلك الذي بينت لكم.
﴿ قَوْلَ الْحَقِّ ﴾	قول الله (فالله هو الحق) ـ القول الحق. وقيل المعنى ـ أقول قول الحق.
﴿ يَمْتَرُونَ ﴾	يختصمون ـ يتجادلون ـ يختلفون ـ يشكُّون.
﴿ مَا كَانَ لِلَّهِ ﴾	ما كان ينبغي لله ـ ما كان يصلح لله.

(١) قال بعض السلف: لا تجد أحدًا عاقًا لوالديه إلا وجدته جبارًا شقيًّا ثم قرأ: ﴿وبرًّا بوالدتي ولم يجعلني جبارًا شقيًّا﴾.

الكلمة	معناها
﴿ سُبْحَانَهُ ﴾	تنزَّه .
﴿ أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ ﴾	ما أشد سمعهم وما أشد بصرهم[1] يوم يرجعون إلينا للحساب ، وذلك يوم القيامة .
﴿ الظَّالِمُونَ ﴾	المفترون الذين افتروا على عيسى الكذب . وافتروا على الله الكذب ، وبخسوا أنفسهم حقها .
﴿ ضَلَالٍ ﴾	ذهاب عن الحق ـ سلوك غير سبيل الاستقامة .
﴿ مُبِينٍ ﴾	مظهر لجهله ـ مُبين أنه جائر عن طريق الحق والرشد والهداية . وقيل : مبين بمعنى بيّن أي : ظاهر واضح .
﴿ يَوْمَ الْحَسْرَةِ ﴾	يوم حسرتهم وندمهم ، وهو يوم القيامة .

(١) قال قتادة : سمعوا حين لا ينفعهم السمع وأبصروا حين لا ينفعهم الإبصار (الطبري ٢٣٧٢٧) .

س: ما وجه عطف قصة مريم وعيسى عليهما السلام على قصة زكريا ويحيى عليهما السلام؟

ج: ذلك العطف له وجهان:

أحدهما: تواجدهم في زمنٍ واحدٍ.

الثاني: تشابه ما بين القصتين، وذلك مما يتعلق بالولد، فزكريا وزوجته رُزقا بيحيى عليه السلام بعد أن بلغ زكريا عليه السلام من الكبر عتيًّا، وكانت امرأته عاقراً، وكذلك مريم عليها السلام رزقت بعيسى عليه السلام بلا زوج، ففي هذا وذاك بيانٌ لقدرة الله عزَّ وجل وأنه على ما يشاء قدير.

* * *

س: من المُخاطب بقوله تعالى: ﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مَرْيَمَ﴾؟ وما معنى ذلك والمراد به؟

ج: المُخاطب هو رسول الله ﷺ، والمعنى عرِّف قومك ومن آمن بك، بل وعرِّف الجميع قصة مريم ليعرفوا قدرتنا، وليعرفوا كيف كانت مريم عفيفةً، وكيف أن عيسى يقرُّ بعبوديته لله وحده لا شريك له.

هذا، ولا يمنع أن يكون المخاطب أيضًا عموم من يقرءون القرآن ويُبلغون عن الله عزَّ وجل رسالته.

* * *

س: ما المراد بالكتاب في قوله تعالى: ﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مَرْيَمَ﴾؟

ج: قال عدد من العلماء: إن المراد بالكتاب: القرآن، والله تعالى أعلم.

* * *

س: من مريم عليها السلام؟

ج: هي مريم بنت عمران، كما قال تعالى: ﴿ وَمَرْيَمَ ابْنَتَ عِمْرَانَ الَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا ﴾ [التحريم: ١٢] وكما قال تعالى: ﴿ إِذْ قَالَتِ امْرَأَتُ عِمْرَانَ رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّي ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿ وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ ﴾ [آل عمران: ٣٥، ٣٦] .

ثم إن الحافظ ابن كثير رحمه الله تعالى قال: وهي من سلالة داود عليه السلام، وكانت من بيت طيب في بني إسرائيل وقد ذكر الله تعالى قصة ولادة أمها لها في (سورة آل عمران) وأنها نذرتها محررةً أي: تخدم مسجد بيت المقدس. وكانوا يتقربون بذلك ﴿ فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنْبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا ﴾ [آل عمران: ٣٧] ونشأت في بني إسرائيل نشأة عظيمة، فكانت إحدى العابدات الناسكات، المشهورات بالعبادة العظيمة، والتبتل الدءوب، وكانت في كفالة زوج أختها وقيل خالتها: زكريا، نبي بني إسرائيل إذ ذاك، وعظيمهم الذي يرجعون إليه في دينهم، ورأى لها زكريا من الكرامات الهائلة ما بهره؛ ﴿ كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزْقًا قَالَ يَا مَرْيَمُ أَنَّى لَكِ هَذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِندِ اللهِ إِنَّ اللهَ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ [آل عمران: ٣٧] فذُكر أنه كان يجد عندها ثمر الشتاء في الصيف، وثمر الصيف في الشتاء، كما تقدم بيانه في (سورة آل عمران)، فلمّا أراد الله تعالى - وله الحكمة والحجة البالغة - أن يوجد منها عبده ورسوله عيسى - عليه السلام - أحد الرسل أولي العزم الخمسة العظام.

﴿ إِذِ انتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا ﴾ [مريم: ١٦] أي: اعتزلتهم وتنحت عنهم، وذهبت إلى شرق المسجد المقدس.

* * *

س: ما السبب الذي من أجله اتخذت النصارى المشرقَ قبلة؟

ج: ورد عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال: إني لأعلمُ خلقِ الله لأي شيءٍ اتخذت النصارى المشرق قبلة، لقول الله: ﴿**إِذِ انتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا**﴾، فاتخذوا ميلاد عيسى قبلةً[١].

* * *

س: لماذا انتبذت مريمُ عليها السلام من أهلها مكانًا شرقيًّا؟

ج: قال بعض العلماء إنها انتبذت لئلا يشغلوها عن العبادة.

* * *

س: ما المراد بالحجاب المذكور في قوله تعالى: ﴿فَاتَّخَذَتْ مِن دُونِهِمْ حِجَابًا﴾؟

ج: الحجاب هو الساتر الذي يستتر.

ثم إن من العلماء من قال: إن هذا الحجاب من الجدران.

ومنهم من قال: اتخذت ستراً، وقال آخرون: إن الشمس أظلّتها فلم يرها منهم أحدٌ.

وأقرب هذه الأقوال أوسطها، وهو أنها اتخذت ستراً، والله تعالى أعلم.

* * *

س: لماذا اتخذت مريم عليها السلام حجابًا؟

ج: قال بعض العلماء: إنها اتخذت حجابًا لتطهر من الحيض وتمتشط

---

(١) أخرج ذلك عنه الطبري رحمه الله تعالى (٢٣٥٧٤) بسندٍ صحيح.

وقال آخرون: إنها انفردت لتفلي رأسها.

* * *

س: هل مريم عليها السلام كانت نبية؟

ج: الصحيح، والله أعلم، أنها لم تكن نبية، لأن الله تبارك وتعالى وصفها فقال: ﴿مَا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلاَّ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ﴾ [المائدة: ٧٥].

ثم إن الله تبارك وتعالى قال: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلاَّ رِجَالاً نُّوحِي إِلَيْهِمْ﴾[١] [الأنبياء: ٧].

* * *

س: هل يمكن أن يأتي الملك في صورة إنسان يُكلِّم البشر؟

ج: نعم ذلك ممكنٌ، فقد كلمت الملائكة إبراهيم عليه السلام.

وكذا كلمت لوطًا عليه السلام، وتمثل جبريل لمريم عليها السلام بشرًا سويًّا، وقصة الثلاثة (الأبرص، والأقرع، والأعمى)[٢] تُفيد ذلك، وكذا قصة الذي زار أخًا له في الله فأرصد الله له ملكًا على مدرجته[٣].

وكذا في حديث قاتل المائة نفس[٤] وغير ذلك كثير، والله أعلم.

* * *

(١) وانظر ما قدمناه في (سورة المائدة) في نحو هذا، والله أعلم.
(٢) البخاري (حديث ٣٤٦٤) ومسلم (حديث ٢٩٦٤).
(٣) مسلم (حديث ٢٥٦٧).
(٤) انظره في البخاري (٣٤٧٠) ومسلم (٢٧٦٦).

س: لماذا تعوذت مريم عليها السلام من جبريل؟

ج: ذلك لأنها ظنت أنه بشر يريد الاعتداء عليها.

* * *

س: استنبط بعض العلماء من قول مريم عليها السلام: ﴿إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمَنِ مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيًّا﴾ مشروعية تذكير المعتدي ـ بالله عزَّ وجل، ما وجه ذلك؟

ج: وجه ذلك أن مريم عليها السلام لما ظنَّت أن جبريل عليه السلام بشراً يريد الاعتداء عليها تعوّذت بالله منه.

قال الحافظ ابن كثير رحمه الله تعالى:

﴿**قَالَتْ إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمَنِ مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيًّا**﴾ أي: لما تبدى لها الملك في صورة بشر، وهي في مكان منفرد، وبينها وبين قومها حجاب خافته، وظنت أنه يريدها على نفسها، فقالت: ﴿**إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمَنِ مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيًّا**﴾ أي: إن كنت تخاف الله، تذكيراً له بالله، وهذا هو المشروع في الدفع أن يكون بالأسهل فالأسهل، فخوفته أولاً بالله عز وجل.

* * *

أدلة على مشروعية
تذكير المعتدي بالله - عز وجل

س: اذكر بعض الأدلة على مشروعية تذكير المعتدي - بالله؟

ج: من الأدلة على ذلك ما يلي:

قول ابن آدم الأول لأخيه: ﴿**لَئِن بَسَطتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَا أَنَا بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لأَقْتُلَكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ**﴾ [المائدة: ٢٨].

وقول مريم عليها السلام لجبريل عليه السلام لما حسبته بشراً يريد الاعتداء عليها: ﴿**إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمَنِ مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيًّا**﴾ أي: ألجأ وأستجير إلى الرحمن معتصمةً به منك إن كنت تتقيه وتخشاه.

وقول موسى عليه السلام للسحرة: ﴿**وَيْلَكُمْ لا تَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا فَيُسْحِتَكُم بِعَذَابٍ وَقَدْ خَابَ مَنِ افْتَرَى**﴾ [طه: ٦٠].

وقول المرأة لابن عمها الذي أراد أن يزني بها: «**اتقِ اللهَ ولا تفضَّ الخاتَمَ إلا بحقِّه**»[1].

---

(١) أخرجه البخاري (حديث ٣٤٦٥)، ومسلم (حديث ٢٧٤٣) من حديث ابن عمر رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال: «بينما ثلاثةُ نفرٍ ممن كان قبلكم إذ أصابهم مطرٌ فأووا إلى غار فانطبق عليهم فقال بعضهم لبعض: إنه والله يا هؤلاء لا ينجيكم إلا الصدقُ فليدعُ كلُّ رجل منكم بما يعلم أنه قد صدق فيه». . فذكر الحديث وفيه: «فقال الآخر: اللهم إن كنت تعلم أنه كانت لي ابنة عم من أحب الناس إليَّ، وإني راودتها عن نفسها فأبت إلا أن آتيها بمائة دينار فطلبتها حتى قدرت فأتيتها بها فدفعتها إليها فأمكنتني من نفسها فلما قعدت بين رجليها فقالت: اتق الله ولا تفضَّ الخاتم إلا بحقِّه، فقمتُ وتركتُ المائة دينار فإن كنتَ تعلمُ أني فعلتُ ذلك من خشيتك ففرِّج عنا ففرَّج الله عنهم فخرجوا».

ومن ذلك ما أخرجه النسائي[(١)] وأحمد من طريق قابوس بن مخارق عن أبيه قال: جاء رجل إلى النبيِّ ﷺ فقال: الرجل يأتيني فيريد مالي؟! قال: **«ذكِّره بالله»**، قال: فإن لم يذكر... الحديث.

وأخرج البخاري ومسلم[(٢)] من حديث جابرِ بن عبدالله رضي الله عنهما قال: «غزونا مع رسول الله ﷺ غزوة نجد، فلما أدركَتْهُ القائلة[(٣)] وهو في وادٍ كثير العضاة[(٤)] فنزل تحت شجرة واستظلَّ بها وعلَّق سيفه، فتفرَّق الناسُ في الشجر يستظلُّون. وبينا نحن كذلك إذ دعانا رسول الله ﷺ فجئنا، فإذا أعرابيٌّ قاعد بين يديه فقال: **«إن هذا أتاني وأنا نائم، فاخترط سيفي، فاستيقظتُ وهو قائمٌ على رأسي مخترط سيفي صلتًا[(٥)] قال: من يمنعك منِّي؟ قلتُ: الله، فشامه[(٦)] ثم قعد، هو هذا»**. قال: ولم يعاقبه رسولُ الله ﷺ».

ومن ذلك ما أخرجه مسلمٌ في «صحيحه» من حديث أبي مسعود البدريِّ رضي الله عنه، قال: كنتُ أضربُ غلامًا لي بالسوط، فسمعتُ صوتًا من خلفي: «اعلم أبا مسعود» فلم أفهم الصوت من الغضب، قال: فلما دنا منِّي إذا هو رسول الله ﷺ، فإذا هو يقول: **«اعلم أبا مسعود، اعلم أبا مسعود»** قال: فألقيتُ السوط من يدي، فقال: **«اعلَمْ أبا مسعود؛ أنَّ الله أقدر عليك منك على هذا الغلام»** قال: فقلتُ: لا أضرب مملوكًا بعده أبدًا.

---

(١) النسائي (٧/ ١١٣ - ١١٤)، وأحمد (٥/ ٢٩٤ - ٢٩٥) وإسناده حسن.

(٢) البخاري (حديث ٤١٣٩)، ومسلم (حديث ٨٤٣).

(٣) القائلة أي: وقت القيلولة، وهو وسط النهار وشدة الحر.

(٤) واد كثير الشجر الذي به شوك كبير عظيم.

(٥) صلتًا أي: بدون غمد (مجردًا عن غمده).

(٦) شام السيف، أي: أدخله في غمده.

وفي رواية لمسلم أيضًا: كنت أضرب غلامًا لي، فسمعت من خلفي صوتًا: «**اعلَمْ أبا مسعود أنَّ الله أقدر عليك منك عليه**» فالتفتُّ فإذا هو رسولُ الله ﷺ فقلتُ: يا رسولَ الله، هو حرٌّ لوجه الله، فقال: «**أما لو لم تفعل، للفحتك النارُ، أو لمستك النارُ**».

وفي رواية ثالثة عند مسلم[1] أيضًا: عن أبي مسعود، أنه كان يضرب غلامه فجعل يقول: أعوذ بالله، قال: فجعل يضربه، فقال: أعوذ برسول الله، فتركه، فقال رسول الله ﷺ: «**والله للهُ أقدرُ عليك منك عليه**» قال: فأعتقه.

وكذلك ذكّر الخصومَ بالله وبعذابه وبالتوبة والرجوع إليه:

فمن ذلك ما ورد عن رسول الله ﷺ من تذكير المتخاصمين، ففي «الصحيحين»[2] من حديث أم سلمة رضي الله عنها، قالت: قال رسول الله ﷺ: «**إنكم تختصمون إليَّ ولعلَّ بعضكم أن يكونَ ألحنَ[3] بحجته من بعض فأقضيَ له على نحو مما أسمع منه، فمن قطعتُ له من حقِّ أخيه شيئًا، فلا يأخذه، فإنَّما أقطعُ له به قطعةً من النار**».

ومن ذلك ما أخرجه البخاري[4] من حديث ابن عباس رضي الله عنهما، أن هلال بن أميّة قذف امرأته فجاء فشهد[5] والنبيُّ ﷺ يقول: «**إن الله يعلم أن أحَدكما كاذبٌ فهل منكما تائب؟**» ثم قامت فشهدت.

---

(١) مسلم (حديث ١٦٥٩).

(٢) البخاري (حديث ١٧٨١)، ومسلم (حديث ١٧١٣).

(٣) ألحن: أي: أعلم بالحجة وأبلغ في الكلام.

(٤) البخاري (حديث ٥٣٠٧).

(٥) شهد: أي شهد أربعة أيمان بالله إنه لمن الصادقين والخامسة أن لعنة الله عليه إن كان من الكاذبين.

ومن ذلك ما أخرجه البخاريُّ ومسلمٌ[١] من حديث عائشة رضي الله عنها، قالت: سمع رسولُ الله ﷺ صوتَ خصومٍ بالباب عالية أصواتهما وإذا أحدهما يستوضع الآخر ويسترفقه[٢] في شيء، وهو يقول: والله لا أفعل، فخرج رسولُ الله ﷺ عليهما فقال: «**أين المتألِّي[٣] على الله لا يفعل المعروف؟**» قال: أنا يا رسول الله، فله أيُّ ذلك أحبَّ.

* * *

س: يشرع في دفع العدو الصائل أحيانًا أن يستعمل الأسهل فالأسهل، دلِّل على ذلك.

ج: من الأدلة على ذلك أن مريم عليها السلام ذكرته بالله أولاً، ومن الأدلة على ذلك ما ورد في النهي عن المرور أمام المصلي فالمشروع أولاً دفعه بالرفق، فإن أبى فقتاله أي وإن أدى الأمرُ إلى الاشتداد عليه ومنعه بالقوة.

والحديث بذلك في الصحيحين من حديث أبي سعيد رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**إذا صلى أحدُكم إلى شيءٍ يستره فأراد أحدٌ أن يجتاز بين يديه فليدفع في نحره، فإن أبى فليقاتله فإنما هو شيطان**»[٤].

* * *

---

(١) مسلم (حديث ١٥٥٧)، والبخاري (٢٧٠٥).

(٢) يسترفقه أي: يطلب منه الرفق.

(٣) المتألي: أي: الحالف.

(٤) البخاري (حديث ٥٠٩) ومسلم (حديث ٥٠٥) واللفظ له.

س: يؤخذ من قول جبريل عليه السلام ﴿إِنَّما أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ..﴾ أدب من آداب التعامل مع الناس، وضح هذا الأدب.

ج: أولاً، وقبل إيضاح هذا الأدب فمعنى قوله: ﴿**إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ..**﴾ كما قال الحافظ ابن كثير رحمه الله: فقال لها الملك مجيبًا لها ومُزيلاً ما حصل عندها من الخوف على نفسها: لست مما تظنين، ولكني رسول ربك أي بعثني الله إليك.

فعلى هذا التفسير فالأدب المستفاد هو بث الطمأنينة في قلب المؤمن إذا حدث له نوعٌ من الخوف.

ونحو هذا المعنى موجود في قصة الخصم الذين تسوروا المحراب ﴿**إِذْ دَخَلُوا عَلَى دَاوُودَ فَفَزِعَ مِنْهُمْ قَالُوا لا تَخَفْ خَصْمَانِ بَغَى بَعْضُنَا عَلَى بَعْضٍ**﴾ [ص: ٢٢].

❊ ❊ ❊

س: وضح معنى قول مريم عليها السلام: ﴿أَنَّى يَكُونُ لِي غلام﴾.

ج: إيضاحه أن مريم عليها السلام تعجبت، وقالت كيف يكون لي غلام أي على أي صفةٍ يوجد هذا الغلام مني ولست بذات زوجٍ، ولا يتصور مني الفجور، ولهذا قالت: ﴿**وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا**﴾ قاله ابن كثير رحمه الله .

وقال القرطبي رحمه الله: وقيل ما استبعدت من قدرة الله تعالى شيئًا، ولكن أرادت كيف يكون هذا الولد؟ من قِبل الزوج في المستقبل أم يخلقه الله ابتداء؟

وقال الشنقيطي في «أضواء البيان»:

ذكر جل وعلا في هذه الآية الكريمة: أن مريم لما بشرها جبريل بالغلام الزكي عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام قالت: ﴿أَنَّى يَكُونُ لِي غُلامٌ﴾ أي كيف ألد غلامًا والحال أني لم يمسسني بشر.

تعني لم يجامعني زوج بنكاح، ﴿وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا﴾، أي لم أك زانية.

وإذا انتفى عنها مسيس الرجال حلالاً وحرامًا فكيف تحمل؟

والظاهر أن استفهامها استخبار واستعلام عن الكيفية التي يكون بها حمل الغلام المذكور، لأنها مع عدم مسيس الرجال لم تتضح لها الكيفية.

ويحتمل أن يكون استفهامها استفهام تعجب من كمال قدرة الله تعالى، وهذا الذي ذكر الله جل وعلا عنها: أنها قالته هنا ذكره عنها أيضًا في سورة «آل عمران» في قوله تعالى: ﴿إِذْ قَالَتِ الْمَلائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ (٤٥) وَيُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلاً وَمِنَ الصَّالِحِينَ (٤٦) قَالَتْ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ﴾ [آل عمران: ٤٥ - ٤٧] واقتصارها في آية «آل عمران» على قولها: ﴿وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ﴾ يدل على أن مسيس البشر المنفي عنها شامل للمسيس بنكاح والمسيس بزنى. كما هو الظاهر.

وعليه فقولها في سورة «مريم»: ﴿وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا﴾ يظهر فيه أن قولها: ﴿وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا﴾: تخصيص بعد تعميم؛ لأن مسيس البشر يشمل الحلال والحرام.

وقال الزمخشري في الكشاف في تفسير قوله تعالى هنا: ﴿وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا﴾ جعل المس عبارة عن النكاح الحلال لأنه كناية عنه؛ كقوله تعالى: ﴿من قبل أن تمسوهن﴾، ﴿أو لمستم النساء﴾ والزنى ليس كذلك،إنما يقال فيه: فجر بها، وخبث بها وما أشبه ذلك.

وليس بقمن أن تراعى فيه الكنايات والآداب. اهـ.

والأظهر الأول. وآية آل عمران تدل عليه. ويؤيده أن لفظة «بشر» نكرة في سياق النفي فهي تعم كل بشر: فينتفي مسيس كل بشر كائنًا من كان، والبغي: المجاهرة المشتهر بالزنى.

* * *

س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿كَذَلِكِ﴾!

ج: معنى ذلك أن الأمر كما ذكرتِ من أنكِ لم يمسسك بشرٌ ولم تكوني زانية، ولكن الله قد قال إنه سيوجد منك غلامٌ، وإن لم تكوني متزوجة ولا توجد منك فاحشة فإن الله على كل شيء قدير، وإنما أمره إذا أراد شيئًا أن يقول له كن فيكون.

* * *

س: ما المشار إليه بقوله تعالى: ﴿هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ﴾؟

ج: المشار إليه بقوله تعالى: ﴿هُوَ﴾ أي خلق الغلام الزكيِّ من غير زواج ولا بغاء (أي من غير نكاحٍ حلالٍ ولا زنى).

* * *

س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿ وَلِنَجْعَلَهُ آيَةً ﴾.

ج: المعنى، والله تعالى أعلم، ولنجعله دلالة على قدرتنا على خلق وإيجاد غلامٍ بلا أب.

قال الحافظ ابن كثير رحمه الله:

﴿ وَلِنَجْعَلَهُ آيَةً لِّلنَّاسِ ﴾ أي: دلالة وعلامة للناس على قدرة بارئهم وخالقهم، الذي نوع في خلقهم، فخلق أباهم آدم من غير ذكر ولا أنثى، وخلق حواء من ذكر بلا أنثى، وخلق بقية الذرية من ذكر وأنثى إلا عيسى، فإنه أوجده من أنثى بلا ذكر، فتمت القسمة الرباعية، الدالة على كمال قدرته وعظيم سلطانه، فلا إله غيره ولا رب سواه.

* * *

س: قوله تعالى: ﴿وَرَحْمَةً مِّنَّا ﴾ رحمة بمن؟

ج: رحمةً بأمِّه، ورحمة بمن آمن به وصدقه.

* * *

س: قوله: ﴿ وَكَانَ أَمْرًا مَّقْضِيًّا ﴾ من كلام من؟

ج: قال الحافظ ابن كثير رحمه الله:

وقوله: ﴿ وَكَانَ أَمْرًا مَّقْضِيًّا ﴾ يحتمل أن هذا من تمام كلام جبريل لمريم، يخبرها أن هذا أمر مقدر في علم الله تعالى وقدرته ومشيئته، ويحتمل أن يكون من خبر الله تعالى لرسوله محمد، ﷺ، وأنه كنى بهذا عن النفخ في فرجها، كما قال تعالى: ﴿ وَمَرْيَمَ ابْنَتَ عِمْرَانَ الَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا ﴾ [التحريم:١٢] وقال: ﴿ وَالَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهَا

مِن رُّوحِنَا﴾ [الأنبياء: ٩١].

قال محمد بن إسحاق: ﴿**وَكَانَ أَمْرًا مَّقْضِيًّا**﴾ أي: إن الله قد عزم على هذا فليس منه بد. واختار هذا ابن جرير في تفسيره، ولم يَحْكِ غيرَه، والله أعلم.

* * *

س: قبل قوله تعالى: ﴿فَحَمَلَتْهُ﴾ مقدر متروك، وضحه.

ج: إيضاحه أن الملك لما أخبرها أن الأمر كان مقضيًّا نفخ فيها، كما قال تعالى: ﴿**فَنَفَخْنَا فِيهَا مِن رُّوحِنَا**﴾ فحملته.

* * *

س: كيف حملت مريم بعيسى عليهما السلام؟

ج: الله أعلم كيف تم الحمل، والذي في كتاب الله عزَّ وجل ﴿**فَنَفَخْنَا فِيهَا مِن رُّوحِنَا**﴾ وفيه أيضًا ﴿**وَمَرْيَمَ ابْنَتَ عِمْرَانَ الَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا**﴾.

هذا، وقد قال الحافظ ابن كثير رحمه الله: فذكر غير واحدٍ من علماء السلف أن الملك وهو جبرائيل عليه السلام عند ذلك نفخ في جيب درعها(١) فنزلت النفخة حتى ولجت في الفرج فحملت بالولد بإذن الله تعالى.

وقال الشنقيطي رحمه الله تعالى: في تفسيره «أضواء البيان»: والذي عليه الجمهور من العلماء أن المراد بذلك النفخ نفخ جبريل فيها بإذن الله

(١) الدرع هو: القميص، أي الثوب الذي كانت ترتديه.

فحملت، كما تدل لذلك قراءة الجمهور في قوله: ﴿إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَامًا زَكِيًّا﴾ كما تقدم.

ولا ينافي ذلك إسناد الله جل وعلا النفخ المذكور لنفسه في قوله ﴿فَنَفَخْنَا﴾ لأن جبريل إنما أوقعه بإذنه وأمره ومشيئته، وهو تعالى الذي خلق الحمل من ذلك للنفخ؛ فجبريل لا قدرة له على أن يخلق الحمل من ذلك النفخ ومن أجل كونه بإذنه ومشيئته وأمره تعالى، ولا يمكن أن يقع النفخ المذكور ولا وجود الحمل منه إلا منه إلا بمشيئته جل وعلا ـ أسنده إلى نفسه ـ والله تعالى أعلم.

وقول من قال: إن فرجها الذي نفخ فيه الملك هو جيب درعها ظاهر السقوط، بل النفخُ الواقع في جيب الدرع وصل إلى الفرج المعروف فوقع الحمل.

* * *

س: هل من مزيد وصف لهذا المكان القصيّ؟

ج: ابتداء فالقصي هو البعيد.

قال الشنقيطي رحمه الله تعالى:

وقوله: ﴿مَكَانًا قَصِيًّا﴾ القصي، البعيد، ومنه قول الراجز:

لتقعدن مقعد القصي ... مني ذي القاذورة المقلي
أو تحلفي بربك العلي ... أني أبو ذيالك الصبي

وهذا المكان القصي قد وصفه الله تعالى في غير هذا الموضع بقوله: ﴿وَجَعَلْنَا ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ آيَةً وَآوَيْنَاهُمَا إِلَى رَبْوَةٍ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ﴾

[المؤمنون: ٥٠]؛ وقوله في هذه الآية الكريمة: ﴿فَانتَبَذَتْ بِهِ﴾ أي انتبذت وهو في بطنها. والإشارة في قوله هذا إلى الحمل والمخاض الذي أصابها للوضع.

* * *

س: في قول مريم عليها السلام ﴿يَا لَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَذَا﴾ دليل على جواز تمني الموت إذا خشي الشخص على نفسه الفتنة في دينه دلِّل على ذلك.

ج: من الأدلة على ذلك إضافة إلى قول مريم عليها السلام، ما يلي:

قول سحرة فرعون لما آمنوا وتوعدهم فرعون وتهددهم ﴿رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ﴾ [الأعراف: ١٢٦].

وقول نبينا محمد ﷺ[١]: «.. **وإذا أردت فتنة في قومٍ فتوفني غير مفتون**».

وما رواه سعيد بن المسيب[٢] عن عمر رضي الله عنه أنه قال: اللهم كبرت سنِّي، وضعفت قوتي، وانتشرت رعيتي، فاقبضني إليك غير مُضيع ولا مُفرطٍ.

وفي الصحيحين[٣] عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: قال النبي ﷺ «**لا يتمنينَّ أحدُكم الموتَ من ضُرٍّ أصابه، فإن كان لابد فاعلاً فليقل: اللهم أحيني ما كانتِ الحياةُ خيرًا لي وتوفني إذا كانت الوفاةُ خيرًا لي**».

---

(١) أحمد بسند صحيح (٥/ ٢٤٣).

(٢) مالك في الموطأ (ص ٨٢٤) وسنده صحيح إلى سعيد وفي سماع سعيد من عمر بعض الكلام.

(٣) البخاري (٥٦٧١) ومسلم (٢٦٨٠).

وقول يوسف عليه السلام ﴿ **تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ** ﴾ [يوسف: ١٠١].

وذلك على وجه من الوجوه في تفسيرها.

وقد قال الحافظ ابن كثير رحمه الله:

وقوله تعالى إخباراً عنها: ﴿ **قَالَتْ يَا لَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَذَا وَكُنتُ نَسْيًا مَّنسِيًّا** ﴾ فيه دليل على جواز تمني الموت عند الفتنة، فإنها عرفت أنها ستبتلى وتمتحن بهذا المولود، الذي لا يحمل الناس أمرها فيه على السداد، ولا يصدقونها في خبرها، وبعد ما كانت عندهم عابدة ناسكة، تصبح عندهم ـ فيما يظنون ـ عاهرة زانية، فقالت: ﴿ **يَا لَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَذَا** ﴾ أي: قبل هذا الحال ﴿ **وَكُنتُ نَسْيًا مَّنسِيًّا** ﴾ أي: لم أخلق ولم أك شيئًا.

* * *

س: وضح معنى قولها: ﴿نَسْيًا مَّنسِيًّا﴾.

ج: قال الطبري رحمه الله تعالى في معنى ذلك: شيئًا نُسي فتُرك طلبه كخرق الحيض التي إذا أُلقيت وطُرحت لم تُطلب ولم تذكر، وكذلك كل شيء نُسي وترك ولم يطلب فهو نسي.

وقال القرطبي رحمه الله: النِّسي في كلام العرب الشيء الحقير الذي شأنه أن يُنسى ولا يتألم لفقده كالوتد والحبل للمسافر ونحوه.

ونقل عن الفراء قوله: النسي ما تلقيه المرأة من خرَق اعتلالها.

قال: فقول مريم ﴿ **نَسْيًا مَّنسِيًّا** ﴾ أي حيضة ملقاة.

* * *

س: من الذي ناداها من تحتها؟

ج: لأهل العلم في ذلك قولان:

أحدهما: أن الذي ناداها هو جبريل عليه السلام.

الثاني: أن الذي ناداها هو عيسى عليه السلام.

* * *

س: لماذا حزنت مريم عليها السلام؟

ج: **قال بعض العلماء:** حزنت خشية الفضيحة، وتكذيب قومها له، واتهامهم لها.

وقال آخرون: حزنت أيضًا لجدب المكان الذي ولدت وعدم وجود طعام وشرابٍ فيه، والله تعالى أعلم.

* * *

س: اذكر شيئًا مما ورد في فضل النخيل ومنتجاته عمومًا!

ج: مما يدل على فضله وفوائده كثرة الامتنان على عباد الله به، وذلك في كتاب الله عزَّ وجل، وفي سنة رسول الله ﷺ.

قال تعالى: ﴿**وَمِن ثَمَرَاتِ النَّخِيلِ وَالأَعْنَابِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًا**﴾ [النحل:٦٧].

وقال تعالى: ﴿**وَالنَّخْلَ وَالزَّرْعَ مُخْتَلِفًا أُكُلُهُ**﴾ [الأنعام:١٤١].

وقال تعالى: ﴿**وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلاً رَّجُلَيْنِ جَعَلْنَا لأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَابٍ وَحَفَفْنَاهُمَا بِنَخْلٍ**﴾ [الكهف:٣٢].

قول رسول الله ﷺ: «**إن من الشجر شجرةً لا يسقط ورقها وإنها مثلُ المسلم فحدثوني ما هي..**» ثم ذكر رسول الله ﷺ أنها النخلة »[١] .

وفي الحديث «**بيت لا تمر فيه جياعٌ أهله**»[٢] .

وفي رواية «**لا يجوع أهل بيتٍ عندهم التمر**».

وفي الحديث الآخر «**من تصبح بسبع تمرات عجوة (من عجوة العاليه) لم يضره ذلك اليوم سمٌّ ولا سحرٌ**»[٣]. وقد استحب للصائم الإفطار على رطبا.

وصح عن عمرو بن ميمون أنه تلا هذه الآية: ﴿**وَهُزِّي إِلَيْكِ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ تُسَاقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا**﴾ فقال: ما من شيء خيرٌ للنفساء من التمر والرطب. وقد كان النبي ﷺ يحنك الصبية فور ولادتهم بالتمر»[٤].

* * *

س: ما موقع الباء في قوله تعالى: ﴿وَهُزِّي إِلَيْكِ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ﴾؟

ج: قال فريقٌ من أهل العلم إنها زائدة مؤكدة كالباء في قوله تعالى: ﴿**فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى السَّمَاءِ**﴾ قالوا أي فليمدد سببًا إلى السماء وكالباء في قوله: ﴿**تَنْبُتُ بِالدُّهْنِ**﴾ أي تنبت الدهن . وكالباء في قول القائل خُذ

---

(١) البخاري (حديث ٦١) ومسلم (حديث ٢٨١١).

(٢) مسلم (٢٠٤٦) وانظر «علل الحديث» للهروي.

(٣) البخاري (حديث ٥٧٦٩) ومسلم (٢٠٤٧).

(٤) انظر هذه المصادر، مسلم (حديث ٢١٤٥، ٢١٤٦، ٢١٤٧)، والبخاري (٣٩٠٩) و(٥٤٧٠).

بالزمام أو خُذ الزمام، وأعط بيدك .

قال الشنقيطي في «أضواء البيان»:

والباء في قوله: ﴿وَهُزِّي إِلَيْكِ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ﴾ مزيدة للتوكيد، لأن فعل الهز يتعدى بنفسه، وزيادة حرف الباء للتوكيد قبل مفعول الفعل المتعدي بنفسه كثيرة في القرآن وفي كلام العرب؛ فمنه في القرآن قوله هنا: ﴿وَهُزِّي إِلَيْكِ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ﴾ لأن المتبادر في اللغة أن الأصل: وهزي إليك جذع النخلة، وقوله تعالى: ﴿وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ﴾ [البقرة:١٩٥]، وقوله: ﴿مَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ بِظُلْمٍ﴾ الآية [الحج:٢٥].

وقوله: ﴿فَسَتُبْصِرُ وَيُبْصِرُونَ ۝٥ بِأَييِّكُمُ الْمَفْتُونُ﴾ الآية [القلم:٥، ٦]، وقوله: ﴿تَنْبُتُ بِالدُّهْنِ﴾ [المؤمنون:٢٠] على قراءة ابن كثير وأبي عمرو بضم التاء وكسر الباء مضارع أنبت الرباعي، لأن الرباعي الذي هو أنبت ينبت بضم الياء المثناة وكسر الباء الموحدة يتعدى بنفسه دون الحرف، فالباء مزيدة للتوكيد كما رأيت في الآيات المذكورة.

ونظير ذلك من كلام العرب: قول أمية بن أبي الصلت الثقفي:

إذ يسقون بالدقيق وكانوا قبل لا يأكلون خبزا فطيرا

لأن الأصل يسقون الدقيق فزيدت الباء للتوكيد. وقول الراعي:

هن الحرائر لا ربات أخمرة سود المعاجر لا يقرأن بالسور

فالأصل: لا يقرأن السور، فزيدت الباء لما ذكر. وقول يعلى الأحول اليشكري أو غيره:

بواد يمان ينبت الشث صدره وأسفله بالمرخ والشبهان

فالأصل: وأسفله المرخ؛ أي وينبت أسفله المرخ؛ فزيدت الباء لما ذكر وقول

الأعشى:

ضمنت برزق عيالنا أرماحنا ملء المراجل والصريح الأجردا

فالأصل ضمنت رزق عيالنا. وقول الراجز:

نحن بنو جعدة أصحاب الفلج نضرب بالسيف ونرجو بالفرج

أي نرجو الفرج. وقول امرئ القيس:

فلما تنازعنا الحديث وأسمحت هصرت بغصن ذي شماريخ ميال

فالأصل: هصرت غصنا؛ لأن هصر تتعدى بنفسها. وأمثال هذا كثيرة في كلام العرب.

* * *

س: في قوله تعالى: ﴿وَهُزِّي إِلَيْكِ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ﴾ دليل على مشروعية الأخذ بالأسباب، وضح ذلك.

ج: إيضاحه أن الله أمرها بالأخذ بالأسباب وذلك بهز جذع النخلة والله قادر على أن يسقط عليها الرطب الجني بلا هزٍّ منها لجذع النخلة.

ونحوه: قوله تعالى لنبيه أيوب عليه السلام: ﴿ **ارْكُضْ بِرِجْلِكَ هَذَا مُغْتَسَلٌ بَارِدٌ وَشَرَابٌ** ﴾ والضرب بالرِّجل ماذا عساه أن يصنع، إلا أن الله أمر بذلك فليمتثل أمر الله عزَّ وجل.

قال القرطبي رحمه الله: استدل بعض الناس من هذه الآية على أن الرزق، وإن كان محتومًا فإن الله تعالى قد وكل ابن آدم إلى سعي ما فيه لأنه أمر مريم بهز النخلة لترى آية، وكانت الآية تكون بألا تهز.

قال الشنقيطي رحمه الله:

أخذ بعض العلماء من قوله تعالى في هذه الآية الكريمة: ﴿ **وَهُزِّي إِلَيْكِ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ** .. ﴾ الآية ـ أن السعي والتسبب في تحصيل الرزق أمر مأمور به شرعًا ولأنه لا ينافي التوكل على الله جل وعلا.

وهذا أمر كالمعلوم من الدين بالضرورة، أن الأخذ بالأسباب في تحصيل المنافع ودفع المضار في الدنيا أمر مأمور به شرعًا لا ينافي التوكل على الله بحال؛ لأن المكلف يتعاطى السبب امتثالاً لأمر ربه مع علمه ويقينه أنه لا يقع إلا ما يشاء الله وقوعه.

فهو متوكل على الله، عالم أنه لا يصيبه إلا ما كتب الله له من خير أو شر.

ولو شاء الله تخلف تأثير الأسباب عن مسبباتها لتخلف.

ومن أصرح الأدلة في ذلك ـ قوله تعالى: ﴿ **قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلامًا عَلَى إِبْرَاهِيمَ** ﴾ الآية [الأنبياء:٦٩]. فطبيعة الإحراق في النار معنى واحد لا يتجزأ إلى معان مختلفة، ومع هذا أحرقت الحطب فصار رماداً من حرها في الوقت الذي هي فيه كائنة برداً وسلامًا على إبراهيم.

فدل ذلك دلالة قاطعة على أن التأثير حقيقة إنما هو بمشيئة خالق السموات والأرض، وأنه يسبب ما شاء من المسببات على ما شاء من الأسباب، وأنه لا تأثير لشيء من ذلك إلا بمشيئته جل وعلا.

ومن أوضح الأدلة في ذلك ـ أنه ربما جعل الشيء سببًا لشيء آخر مع أنه مناف له؛ كجعله ضرب ميت بني إسرائيل ببعض من بقرة مذبوحة سببًا لحياته، وضربه بقطعة ميتة من بقرة ميتة مناف لحياته. إذ لا تكتب الحياة من ضرب بميت؛ وذلك يوضح أنه جل وعلا يسبب ما شاء من المسببات على ما

شاء من الأسباب، ولا يقع تأثير البتة إلا بمشيئته جل وعلا.

ومما يوضح أن تعاطي الأسباب لا ينافي التوكل على الله قوله تعالى عن يعقوب: ﴿وَقَالَ يَا بَنِيَّ لَا تَدْخُلُوا مِنْ بَابٍ وَاحِدٍ وَادْخُلُوا مِنْ أَبْوَابٍ مُّتَفَرِّقَةٍ﴾ [يوسف:٦٧] أمرهم في هذا الكلام بتعاطي السبب، وتسبب في ذلك بالأمر به، لأنه يخاف عليهم أن تصيبهم الناس بالعين لأنهم أحد عشر رجلاً أبناء رجل واحد، وهم أهل جمال وكمال وبسطة في الأجسام.

فدخولهم من باب واحد مظنة لأن تصيبهم العين فأمرهم بالتفرق والدخول من أبواب متفرقة تعاطيًا للسبب في السلامة من إصابة العين؛ كما قال غير واحد من علماء السلف.

ومع هذا التسبب فقد قال الله عنه: ﴿وَقَالَ يَا بَنِيَّ لَا تَدْخُلُوا مِنْ بَابٍ وَاحِدٍ وَادْخُلُوا مِنْ أَبْوَابٍ مُّتَفَرِّقَةٍ وَمَا أُغْنِي عَنكُم مِّنَ اللَّهِ مِن شَيْءٍ إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ﴾ [يوسف:٦٧].

فانظر كيف جمع بين التسبب في قوله: ﴿لا تدخلوا من باب واحد﴾ وبين التوكل على الله في قوله: ﴿عليه توكلت وعليه فليتوكل المتوكلون﴾ وهذا أمر معلوم لا يخفى إلا على من طمس الله بصيرته. والله جل وعلا قادر على أن يسقط لها الرطب من غير هز الجزع،و لكنه أمرها بالتسبب في إسقاطه بهز الجزع، وقد قال بعضهم في ذلك:

ألم تر أن الله قال لمريم   وهزي إليك الجذع يساقط الرطب
ولو شاء أن تجتنيه من غير هزه   جنته ولكن كل شيء له سبب

* * *

س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿فَكُلِي وَاشْرَبِي وَقَرِّي عَيْنًا﴾.

ج: قال الطبري رحمه الله تعالى:

يقول تعالى ذكره: فكلي من الرطب الذي يتساقط عليك، واشربي من ماء السري الذي جعله ربك تحتك، لا تخشي جوعًا ولا عطشًا ﴿وَقَرِّي عَيْنًا﴾ يقول: وطيبي نفسًا وافرحي بولادتك إياي ولا تحزني، ونصبت العين لأنها هي الموصوفة بالقرار.

وإنما معنى الكلام: ولتقرَّ عينك بولدك، ثم حول الفعل عن العين إلى المرأة صاحبة العين، فنصبت العين إذ كان الفعل لها في الأصل على التفسير، نظير ما فعل بقوله: ﴿فَإِن طِبْنَ لَكُمْ عَن شَيْءٍ مِّنْهُ نَفْسًا﴾ [النساء: ٤] وإنما هو: فإن طابت أنفسهن لكم.

وقوله: ﴿وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا﴾ [هود:٧٧ ـ العنكبوت: ٣٣] ومنه قوله: ﴿تُسَاقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا﴾ إنما هو يتساقط عليك رطب الجذع، فحول الفعل إلى الجِذع، في قراءة من قرأه بالياء. وفي قراءة من قرأه ﴿تُسَاقِطْ﴾ بالتاء، معناه: يساقط عليك رطب النخلة، ثم حوّل الفعل إلى النخلة.

* * *

س: في قوله تعالى: ﴿فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ الْبَشَرِ أَحَدًا فَقُولِي..﴾ مقدر محذوف، وضِّح هذا المقدر المحذوفَ؟

ج: المقدر هو فسألك أو فكلمك.

فالمعنى فإذا رأيت أحداً من بني آدم فسألك من أين أتيت بهذا الولد؟ أو كيف ولدتِ وأنت لم تتزوجي؟ أو سألك عن أي شيءٍ من أمرك أو أمر هذا الولد؟ فقولي....

* * *

س: لماذا أمرت مريم عليها السلام بالصمت عن كلام البشر؟

ج: قال بعض أهل العلم: إنها أُمرت بذلك لأنها مهما تكلمت من كلمات فإن القوم لن يصدقوها، وقد يكون من الأفضل للشخص في بعض الأحيان أن يسكت عن الكلام إذا لم يكن في الكلام فائدة.

وقال آخرون من أهل العلم: إنها كانت صائمة في هذا اليوم، قال: وكان الصائم في ذلك الزمان يصوم عن الطعام والشراب وكلام الناس.

وقال آخرون من أهل العلم: إنما هذا شيءٌ خاص بمريم ولا يحل لأحد أن ينذر صومًا عن الكلام.

هذا، وقد ورد في الباب حديث ابن عباس(١) رضي الله عنهما قال: بينا النبي ﷺ يخطب إذا هو برجلٍ قائم فسأل عنه فقالوا: أبو إسرائيل نذر أن يقوم ولا يقعد ولا يستظل ولا يتكلم ويصوم فقال النبي ﷺ: «**مُره فليتكلمْ وليستظلَّ وليقعُد وليتم صومَه**».

* * *

س: يستحب الإمساك عن الكلام إذا لم يكن في الكلام فائدة دلِّل على ذلك.

ج: من الأدلة على ذلك ما يلي:

قوله تعالى: ﴿ **فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ الْبَشَرِ أَحَدًا فَقُولِي إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ إِنسِيًّا** ﴾.

---

(١) البخاري (٦٧٠٤) وقد أعلَّ بالإرسال.

وقول الله تبارك وتعالى: ﴿ **فَلَا تُمَارِ فِيهِمْ إِلَّا مِرَاءً ظَاهِرًا وَلَا تَسْتَفْتِ فِيهِم مِّنْهُمْ أَحَدًا** ﴾ [الكهف:٢٢].

وكذا قوله تعالى: ﴿ **وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَٰئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا** ﴾ [الإسراء: ٣٦].

ومن ذلك ما أخرجه البخاري ومسلم[1] في حديث الإفك من حديث عائشة رضي الله عنها بعد أن تشهَّد: «**أما بعد يا عائشة، فإنه قد بلغني عنك كذا وكذا، فإن كنت بريئة فسيبرئك الله وإن كنت ألْمَمْتِ بذنب فاستغفري الله وتوبي إليه فإن العبد إذا اعترف بذنبه ثم تاب إلى الله تاب الله عليه..**».

وفيه أيضًا قول عائشة رضي الله عنها: «إني والله لقد علمت لقد سمعتم هذا الحديث حتى استقر في أنفسكم وصدقتم به فلئن قلت لكم إني بريئة لا تصدقونني بذلك، ولئن اعترفت لكم بأمرٍ، والله يعلم أني فيه بريئة لتصدقنني والله ما أجد لكم مثلاً إلا قول أبي يوسف، قال: ﴿ **فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ** ﴾ [يوسف:١٨].

* * *

س: هل هارون هنا هو نبي الله هارون أخو موسى عليه السلام؟

ج: ليس هارون هنا بأخٍ لموسى عليه السلام، فقد كان بين مريم وموسى وهارون زمن طويل صح عن قتادة أنه قال[2]:

قوله: ﴿ **يَا أُخْتَ هَارُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ امْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا** ﴾

---

(١) البخاري (٤٥٧٠) ومسلم(٢٧٧٠).

(٢) الطبري (أثر ٢٣٦٨٨).

قال: كانت من أهل بيت يعرفون بالصلاح، ولا يُعرفون بالفساد ومن الناس من يُعرفون بالصلاح ويتوالدون به وآخرون يُعرفون بالفساد ويتوالدون به، وكان هارون مصلحًا محببًا في عشيرته، وليس بهارون أخي موسى، ولكنه هارون آخر.

قال وَذُكر لنا أنه شيع جنازته يوم مات أربعون ألفًا، كلهم يسمون هارون من بني إسرائيل.

وصح عن ابن زيد[١] رحمه الله أنه قال في قوله: ﴿يَا أُخْتَ هَارُونَ﴾ قال اسم واطأ[٢] اسمًا، كم بين هارون وبينهما من الأمم؟!، أممٌ كثيرةٌ.

* * *

س: إذن كيف قيل لها يا أخت هارون، وقد كان بينها وبين هارون (أخي موسى عليه السلام) أمم كثيرة؟

ج: أقول، قد ورد عن رسول الله ﷺ أنه سئل نحواً من هذا السؤال فقد صح عن المغيرة بن شعبة أنه قال:

بعثني رسول الله ﷺ إلى أهل نجران، فقالوا لي: ألستم تقرءون ﴿يَا أُخْتَ هَارُونَ﴾ قلت: بلى وقد علمتم ما كان بين عيسى وموسى، فرجعت إلى رسول الله ﷺ، فأخبرته، فقال: «**أَلا أَخْبَرْتَهُمْ أَنَّهُمْ كَانُوا يُسَمُّونَ بِأَنْبِيَائِهِمْ وَالصَّالِحِينَ قَبْلَهُمْ**»[٣].

---

(١) الطبري (أثر ٢٣٦٩٠).

(٢) واطأ أي: وافق.

(٣) الطبري أثر (٢٣٦٩١)، وهذا لفظه وقد أخرجه مسلم أيضًا (٢١٣٥).

وهناك قولٌ نذكره فقط لكون العلماء ذكروه، وإلا فقولُ رسولنا ﷺ المتقدم قد قطع النزاع وأبان الصواب من وجه الخلاف ولله الحمد، فلا عدول عنه بحال.

أما عن هذا القول فهو أنهم قالوا لها يا شبيهة هارون في العبادة .

قلت: (مصطفى): وقد أجاد القرطبي رحمه الله حيث أورد أقوالاً ثم قال في شأن الحديث وهو نص صريح فلا كلام لأحدٍ معه، ولا غبار عليه والحمد لله.

* * *

س: ما وجه تذكيرهم لمريم عليها السلام بصلاح أخيها وأمها وأبيها؟

ج: وجه ذلك أنهم أرادوا لها مزيداً من التأنيب والتبكيت لصدور مثل هذا (الذي ظنوه) منها.

وكذا فأبدوا لها بذلك مزيداً من التعجب لما حدث.

أو أنه وجه من وجوه التعريض بالقذف، قال تعالى في شأن أقوام: ﴿ **وَبِكُفْرِهِمْ وَقَوْلِهِمْ عَلَى مَرْيَمَ بُهْتَانًا عَظِيمًا** ﴾ [النساء:١٥٦] والله أعلم.

* * *

س: وضح معنى قوله تعالى ﴿ فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ ﴾.

ج: المعنى - والله تعالى أعلم -: أنهم لما قالوا لها ما قالوه واستغربوا ما جاءت به وتعجبوا منه كلمتهم بالذي أُمرت به ﴿ **إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ إِنسِيًّا** ﴾ ثم أشارت إليه تريد بذلك أن يكلموه ويخاطبوه.

قال الحافظ ابن كثير رحمه الله:

وقوله: ﴿**فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ قَالُوا كَيْفَ نُكَلِّمُ مَن كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا**﴾ أي: إنهم لما استرابوا في أمرها، واستنكروا قضيتها، وقالوا لها ما قالوا، معرضين بقذفها، ورميها بالفرية، وقد كانت يومها ذلك صائمة صامتة، فأحالت الكلام عليه، وأشارت لهم إلى خطابه وكلامه، فقالوا متهكمين بها، ظانين أنها تزدري بهم وتلعب بهم: ﴿**كَيْفَ نُكَلِّمُ مَن كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا**﴾.

* * *

س: هل الإشارة تنزل منزلة الكلام؟

ج: الإشارة في هذا الموطن ﴿**فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ**﴾ تنزل منزلة الكلام، وقد أشار إلى ذلك الحافظ ابن كثير رحمه الله.

أما هل الإشارة بصفة دائمة ومُطلقة تقوم مقام الكلام أم لا، فلأهل العلم في ذلك وجهان.

وقد استفاض العلامة الشنقيطي في ذلك جدًّا، في كتابه «أضواء البيان» فارجع إليه إن شئت.

* * *

س: ما وجه ذكر قوله: ﴿مَن كَانَ﴾ في قولهم: ﴿كَيْفَ نُكَلِّمُ مَن كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا﴾؟

ج: أجاب على ذلك ابن الجوزي في تفسيره «زاد المسير» إذ قال وفيها أربعة أقوال:

﴿قَالُوا۟ كَيْفَ نُكَلِّمُ مَن كَانَ﴾ وفيها أربعة أقوال:

أحدها: أنها زائدة، فالمعنى: كيف نكلّم صبيًّا في المهد؟!

والثاني: أنها في معنى: وقع، وحدث.

والثالث: أنها في معنى: الشرط والجزاء، فالمعنى: من يكن في المهد صبيًّا، فكيف نكلّمه؟! حكاها الزجاج واختار الأخير منها، قال ابن الأنباري: وهذا كما تقول: كيف أعظ من كان لا يقبل موعظتي؟ أي: من يكون لا يقبل، والماضي يكون بمعنى المستقبل في الجزاء.

والرابع: أن «كان» بمعنى: صار، قاله قطرب.

* * *

تكلم عيسى عليه السلام في المهد

س: ما وجه تصدير الكلام بقوله: ﴿ إِنِّي عَبْدُ اللهِ ﴾؟

ج: وجه ذلك، والله أعلم، التنبيه على عبوديته لله عزَّ وجل فليس هو بإلهٍ وليس بابنٍ للإله، تعالى الله عن الشريك والولد علوًّا كبيرًا. وفي هذا رد على الزاعمين بأنه ابن الله.

قال الحافظ ابن كثير رحمه الله: أول شيءٍ تكلَّم به أن نزَّه جناب ربِّه تعالى، وبرأ الله عن الولد، وأثبت لنفسه العبودية لربِّه.

وقال القرطبي رحمه الله: فكان أول ما نطق به الاعتراف بعبوديته لله تعالى وربوبيته، ردًّا على من غلا من بعده في شأنه.

وقال الشنقيطي في «أضواء البيان»:

ذكر جل وعلا في هذه الآية الكريمة: أن أول كلمة نطق لهم بها عيسى وهو صبي في مهده أنه عبدالله، وفي ذلك أعظم زجر للنصارى عن دعواهم: أنه الله، أو ابنه أو إله معه! وهذه الكلمة التي نطق بها عيسى في أول خطابه لهم ذكرها الله جل وعلا عنه في مواضع آخر؛ كقوله تعالى: ﴿ وَقَالَ الْمَسِيحُ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اعْبُدُوا اللهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ ﴾ [المائدة:٧٢] وقوله: ﴿ إِنَّ اللهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴾ [آل عمران:٥١]، وقوله: ﴿ فَاتَّقُوا اللهَ وَأَطِيعُونِ ﴿٦٣﴾ إِنَّ اللهَ هُوَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴾ [الزخرف:٦٣، ٦٤]، وقوله هنا في سورة «مريم»: ﴿ وَإِنَّ اللهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ

فَاعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ﴾، وقوله: ﴿**مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلاَّ مَا أَمَرْتَنِي بِهِ أَنِ اعْبُدُوا اللهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ**﴾ [المائدة: ١١٧].

وقال ابن الجوزي في «زاد المسير» إنما قدَّم ذِكر العبودية ليُبطل قول من ادعى فيه الربوبية.

* * *

س: هل أُوتي عيسى عليه السلام الكتاب والوحي وهو صغير السن هكذا؟

ج: قال عدد من العلماء إن المعنى في ذلك ـ والله أعلم ـ: هو القضاء، فقوله: ﴿**آتَانِيَ الْكِتَابَ**﴾ أي: قضى أن يؤتيني الكتاب.

أي إن ربي كتب في اللوح المحفوظ أنه سيؤتيني الكتاب، والكتاب هو: الإنجيل، وقيل: هو التوراة، علمه الله إياها أيضًا.

أما الشنقيطي رحمه الله فقد قال في «أضواء البيان»:

وقوله في هذه الآية الكريمة: ﴿**آتَانِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا**﴾ التحقيق. فيه إن شاء الله: أنه عبر بالماضي عما سيقع في المستقبل تنزيلاً لتحقق الوقوع منزلة الوقوع.

ونظائره في القرآن كثيرة؛ كقوله تعالى: ﴿**أَتَى أَمْرُ اللهِ فَلا تَسْتَعْجِلُوهُ**﴾[النحل: ١]، وقوله تعالى: ﴿**وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَمَن فِي الأَرْضِ إِلاَّ مَن شَاءَ اللهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَى فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ (٦٨) وَأَشْرَقَتِ الأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا وَوُضِعَ الْكِتَابُ وَجِيءَ بِالنَّبِيِّينَ وَالشُّهَدَاءِ وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْحَقِّ وَهُمْ لا يُظْلَمُونَ (٦٩) وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا**

عَمِلَتْ﴾ إلى قوله: **﴿وَسِيقَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾** [الزمر: ٦٨:٧١]. وقوله تعالى: **﴿وَسِيقَ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ﴾** [الزمر:٧٣].

فهذه الأفعال الماضية المذكورة في الآيات بمعنى المستقبل؛ تنزيلاً لتحقق وقوعه منزلة الوقوع بالفعل، ونظائرها كثيرة في القرآن، وهذا الذي ذكرنا ـ من أن الأفعال الماضية في قوله تعالى: **﴿آتَانِيَ الْكِتَابَ﴾** إلخ بمعنى المستقبل هو الصواب إن شاء الله. خلافًا لمن زعم أنه نبئ وأوتي الكتاب في حال صباه لظاهر اللفظ.

وقال ابن الجوزي رحمه الله تعالى:

قوله تعالى: **﴿وَجَعَلَنِي نَبِيًّا﴾**.

هذا وما بعده إخبار عما قضى الله له وحكم له به ومنحه إيَّاه مما سيظهر ويكون. وقيل: المعنى: يؤتيني الكتاب ويجعلني نبيًّا إذا بلغتُ؛ فحلَّ الماضي محلَّ المستقبل، كقوله تعالى: **﴿وَإِذْ قَالَ اللهُ يَا عِيسَى﴾** [المائدة:١١٦].

* * *

س: على المرء أن يعبد ربَّه حتى الموت، دلِّل على ذلك!

ج: من الأدلة على ذلك: قوله تعالى: **﴿وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ﴾** [الحجر٩٩]. أي حتى يأتيك الموت.

وقول عيسى عليه السلام: **﴿وَأَوْصَانِي بِالصَّلاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا﴾**.

* * *

س: في قوله ﴿ آتَانِيَ الْكِتَابَ.. ﴾ رد على القدرية، وضح ذلك!

ج: إيضاحه أن عيسى عليه السلام أخبر بما قضى من أمره وبما هو كائن إلى أن يموت، فدلَّ ذلك على أن الأمور مقدرة.

وإلى هذا المعنى أشار الإمام مالك بن أنس رحمه الله تعالى كما نقل عنه القرطبي.

* * *

س: في قوله عيسى عليه السلام: ﴿ وَبَرًّا بِوَالِدَتِي ﴾ إشارة إلى شيء معين، وضح هذا الشيء!

ج: في هذا إشارة إلى أنه ولد من غير أبٍ.

* * *

س: اذكر بعض الوارد في فضل بر الوالدة!

ج: قدمت كثيراً من ذلك في تفسير سورة البقرة «التسهيل» عند قوله تعالى: ﴿ **وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ لا تَعْبُدُونَ إِلاَّ اللهَ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا** ﴾ [البقرة:٨٣]. وكان من ذلك أن النبي سئل: من أحق الناس بحسن صحابتي يا رسول الله؟ قال: «**أمُّك**» قال: ثم من؟ قال: «**ثم أمك**» قال: ثم من؟ قال: «**ثم أمك**» قال: ثم من؟ قال: «**ثم أبوك**»[١]. ومن ذلك حديث أويس القرني الذي عدَّه رسول الله ﷺ خير التابعين لبرِّه بأمه[٢].

(١) البخاري (مع الفتح ١٠ / ٤٠١) ومسلم (مع النووي ٥ / ٤١٠) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعًا.
(٢) مسلم (مع النووي ٥ / ٤٠٣).

وكذلك ثناء ربنا سبحانه وتعالى على يحيى عليه السلام بقوله: ﴿ وَبَرًّا بِوَالِدَيْهِ وَلَمْ يَكُن جَبَّارًا عَصِيًّا ﴾.

وقول عيسى عليه السلام: ﴿ وَبَرًّا بِوَالِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا ﴾.

وقول الله تعالى: ﴿ وَإِذْ قَالَ لُقْمَانُ لِابْنِهِ وَهُوَ يَعِظُهُ يَا بُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴿١٣﴾ وَوَصَّيْنَا الْإِنسَانَ بِوَالِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ وَفِصَالُهُ فِي عَامَيْنِ أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَيَّ الْمَصِيرُ ﴿١٤﴾ وَإِن جَاهَدَاكَ عَلَىٰ أَن تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبْهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ ﴾ [لقمان: ١٣ - ١٥].

وقوله تعالى: ﴿ وَوَصَّيْنَا الْإِنسَانَ بِوَالِدَيْهِ إِحْسَانًا حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا وَحَمْلُهُ وَفِصَالُهُ ثَلَاثُونَ شَهْرًا حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَصْلِحْ لِي فِي ذُرِّيَّتِي إِنِّي تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴾ [الأحقاف: ١٥].

وأخرج البخاري ومسلم في «صحيحيهما» من حديث ابن مسعود رضي الله عنه قال: سألت النبي ﷺ: أيُّ العمل أحب إلى الله تعالى؟ قال: «**الصلاةُ على وقتِها**»، قلت: ثم أي؟ قال: «**بِرُّ الوالدين**»، قلت: ثم أيٌّ؟ قال: «**الجهادُ في سبيل الله**»[(١)].

وقال تعالى: ﴿ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا إِمَّا

---

(١) أخرجه البخاري (مع الفتح ١٠ / ٤٠٠)، ومسلم (٨٥)، والنسائي (١ / ٢٩٢)، والترمذي (١٧٣) وقال: حديث حسن صحيح.

يَبْلُغَنَّ عِندَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلاهُمَا فَلا تَقُل لَّهُمَا أُفٍّ وَلا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلاً كَرِيمًا ﴿٢٣﴾ وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيراً ﴾ [الإسراء: ٢٣، ٢٤].

* * *

س: وضح معنى قول عيسى عليه السلام: ﴿وَالسَّلامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدتُّ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا﴾.

ج: قال الطبري رحمه الله:

يقول تعالى ذكره: هذا الذي بيَّنت لكم صفته، وأخبرتكم خبره، من أمر الغلام الذي حملته مريم، هو عيسى ابن مريم، وهذه الصفة صفته، وهذا الخبر خبره، وهو ﴿قَوْلَ الْحَقِّ﴾، يعني: أن هذا الخبر الذي قصصته عليكم :قول الحقّ، والكلام الذي تلوته عليكم قول الله وخبره، لا خبر غيره، الذي يقع فيه الوهم والشك، والزيادة والنقصان، على ما كان يقول الله ـ تعالى ذكره ـ فقولوا في عيسى أيها الناس، هذا القول الذي أخبركم الله به عنه، لا ما قالته اليهود، الذين زعموا: أنه لغير رِشْدَة، وأنه كان ساحراً كذّابًا، ولا ما قالته النصارى: من أنه كان لله ولداً، وإن الله لم يتخذ ولداً، ولا ينبغي ذلك له.

وقال الحافظ ابن كثير رحمه الله تعالى:

وقوله: ﴿وَالسَّلامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدتُّ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا﴾ إثبات منه لعبوديته لله عز وجل، وأنه مخلوق من خلق الله، يحيى ويموت، ويبعث كسائر الخلائق، ولكن له السلامة في هذه الأحوال التي هي أشق ما يكون على العباد، صلوات الله وسلامه عليه.

وقال القرطبي رحمه الله:

﴿وَالسَّلامُ عَلَيَّ﴾ أي: السلامة عليَّ من الله تعالى.

قال الزجاج: ذكر السلام قبل هذا بغير ألف ولام فحسن في الثانية ذكر الألف واللام.

وقوله: ﴿يَوْمَ وُلِدتُّ﴾ يعني: في الدنيا.

وقيل: من همز الشيطان كما تقدَّم في «آل عمران».

﴿وَيَوْمَ أَمُوتُ﴾ يعني: في القبر.

﴿وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا﴾ يعني: في الآخرة؛ لأن له أحوالاً ثلاثة: في الدنيا حيًّا، وفي القبر ميتًا، وفي الآخرة مبعوثًا؛ فسلم في أحواله كلها؛ وهو معنى قول الكلبي.

ثم انقطع كلامه في المهد حتى بلغ مبلغ الغلمان.

وقال قتادة: ذكر لنا: أن عيسى عليه السلام رأته امرأة يحيي الموتى، ويُبرئ الأكمه والأبرص في سائر آياته فقالت: طوبى للبطن الذي حملك، والثدي الذي أرضعك؛ فقال لها عيسى عليه السلام: طوبى لمن تلا كتاب الله تعالى واتبع ما فيه وعمل به.

❊ ❊ ❊

القول الحق في شأن عيسى عليه السلام

س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿ذَلِكَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ قَوْلَ الْحَقِّ الَّذِي فِيهِ يَمْتَرُونَ﴾!

ج: إيضاحه، والله تعالى أعلم أن من العلماء من قال: (قَوْلُ الْحَقِّ)[1] أي: أن عيسى عليه السلام هو نفسه قول الحق، والحق هو الله سبحانه وتعالى أي: أن عيسى هو قول الله أي: خلقه الله بكلمة (كُن).

وقال آخرون: المعنى هذا الكلام الذي أخبرناك به في شأن عيسى عليه - هو قول الحق ليس بباطل، قالوا: وأضيف القول إلى الحق كما قال تعالى: ﴿وَعْدَ الصِّدْقِ﴾ [الأحقاف:١٦] وكما قال تعالى: ﴿وَلَدَارُ الآخِرَةِ خَيْرٌ﴾ [النحل:٣٠] أي: الدار الآخرة.

وقيل أيضًا: قولَ الحق أي: أقول قولاً حقًّا.

قال الطبري رحمه الله:

يقول تعالى ذكره: هذا الذي بيَّنت لكم صفته، وأخبرتكم خبره، من أمر الغلام الذي حملته مريم، هو عيسى ابن مريم، وهذه الصفة صفته، وهذا الخبر خبره، وهو: ﴿قَوْلَ الْحَقِّ﴾ يعني: أن هذا الخبر الذي قصصته عليكم قول الحقّ، والكلام الذي تلوته عليكم قول الله وخبره، لا خبر غيره، الذي يقع فيه الوهم والشكّ، والزيادة والنقصان، على ما كان يقول الله تعالى ذكره: فقولوا

(١) بضم اللام على هذا الوجه من وجوه التأويل، وإلا فالقراءة: ﴿قولَ الحق﴾.

في عيسى أيها الناس هذا القول الذي أخبركم الله به عنه، لا ما قالته اليهود، الذين زعموا أنه لغير رِشْدَة، وأنه كان ساحراً كذّاباً، ولا ما قالته النصارى، من أنه كان لله ولداً، وإن الله لم يتخذ ولداً، ولا ينبغي ذلك له.

* * *

س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿ إِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ ﴾.

ج: المعنى - والله تعالى أعلم: - أن الله سبحانه وتعالى إذا أراد أمراً تحقق هذا الأمر بكلمة (كن)، فيكون ما أراده الله سبحانه وتعالى فإذا أراد الله، خلق بشر من غير أب كان ما أراده الله تعالى كما قال سبحانه: ﴿ إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُن فَيَكُونُ ﴾ [آل عمران: ٥٩].

هذا، وقد قال الطبري رحمه الله تعالى في معنى ذلك:

وقوله: ﴿ إِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ ﴾ يقول جل ثناؤه: إنما ابتدأ الله خلق عيسى ابتداء، وأنشأه إنشاء، من غير فحل افتحل أمه، ولكنه قال له: ﴿ كُن فَيَكُونُ ﴾ لأنه كذلك يبتدع الأشياء ويخترعها، إنما يقول إذا قضى خلق شيء أو إنشاءه: كن فيكون موجوداً حادثًا، لا يعظم عليه خلقه، لأنه لا يخلقه بمعاناة وكلفة، ولا ينشئه بمعالجة وشدّة.

ومما يزيد ما قاله الطبري إيضاحًا:

ما أخرجه البخاري[1] من حديث أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ

(١) البخاري (٣٤٨١).

قال: «كان رجلٌ يُسرفُ على نفسه، فلما حضرهُ الموت قال لبنيه: إذا أنا متُّ فأحرقوني، ثم اطحنوني، ثم ذرُّوني في الريحِ، فوالله لئن قدَرَ الله عليَّ ليُعذِّبَنِّي عذابًا ما عذَّبهُ أحدًا. فلما مات فُعلَ به ذلك، فأمرَ الله الأرضَ فقال: اجمَعي ما فيك منه، ففعلَتْ. فإذا هو قائم، فقال: ما حملَكَ على ما صَنعتَ؟ قال: يا رب خَشْيَتُكَ. فغفرَ له» وقال غيرهُ: «مخافَتُك يا رب».

وقال الشنقيطي رحمه الله:

وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة: ﴿إِذَا قَضَى أَمْرًا﴾ أي: أراد قضاءه، بدليل قوله: ﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَن نَّقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ﴾ [النحل: ٤٠]، وقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَن يَقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ﴾ [يس: ٨٢]، وحذف فعل الإرادة لدلالة المقام عليه كثير في القرآن وفي كلام العرب، ومن أمثلته في القرآن قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلاةِ﴾ الآية [المائدة: ٦]، أي: إذا أردتم القيام إليها، وقوله تعالى: ﴿فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ﴾ [النحل: ٩٨]، أي: إذا أردت قراءة القرآن.

* * *

س: لماذا زيدت لفظة (مِن) في قوله تعالى: ﴿مَا كَانَ لِلَّهِ أَن يَتَّخِذَ مِن وَلَدٍ﴾؟

ج: أجاب على ذلك الشنقيطي في «أضواء البيان» إذ قال:

وقوله تعالى في الآية التي نحن بصددها: ﴿مَا كَانَ لِلَّهِ أَن يَتَّخِذَ مِن وَلَدٍ﴾ زيدت فيه لفظة: «من» قبل المفعول به لتأكيد العموم.

وقد تقرر في الأصول أن النكرة في سياق النفي إذا زيدت قبلها لفظة

«من» لتوكيد العموم كانت نصًّا صريحًا في العموم، وتطَّرد زيادتها للتوكيد المذكور قبل النكرة في سياق النفي في ثلاثة مواضع: قبل الفاعل كقوله تعالى: ﴿مَا أَتَاهُم مِّن نَّذِيرٍ﴾ [السجدة:٣]، وقيل: المفعول كهذه الآية، وكقوله: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلاَّ رِجَالاً نُّوحِي إِلَيْهِم﴾ الآية [يوسف:١٠٩]: وقبل المبتدأ كقوله: ﴿مَا لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ﴾ [الأعراف:٦٥].

وقال ابن الجوزي في «زاد المسير»:

قوله تعالى: ﴿مَا كَانَ لِلَّهِ أَن يَتَّخِذَ مِن وَلَدٍ﴾ قال الزجاج: المعنى: أن يتخذ ولداً.

و«مِنْ» مؤكدة تدل على نفي الواحد والجماعة، لأن للقائل أن يقول: ما اتخذت فرساً، يريد: اتخذت أكثر من ذلك، وله أن يقول: ما اتخذت فرسين ولا أكثر، يريد: اتخذت فرساً واحداً؛ فإذا قال: ما اتخذت من فرس، فقد دلَّ على نفي الواحد والجميع.

* * *

س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿إِذَا قَضَى أَمْراً﴾.

ج: قال الشنقيطي رحمه الله «أضواء البيان»:

وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة: ﴿إِذَا قَضَى أَمْراً﴾ أي: أراد قضاءه، بدليل قوله: ﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَن نَّقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ﴾ [النحل:٤٠]،وقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَن يَقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ﴾ [يس:٨٢] وحذف فعل الإرادة لدلالة المقام عليه كثير في القرآن وفي كلام العرب، ومن أمثلته في القرآن قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلاةِ﴾ الآية [المائدة:٦] ، أي: إذا أردتم القيام إليها، وقوله تعالى:

﴿ فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ ﴾ [النحل:٩٨] أي: إذا أردت قراءة القرآن، كما تقدم مستوفى.

* * *

س: وضح تعلق قوله تعالى: ﴿ وَإِنَّ اللهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ ﴾ بما قبله.

ج: قبل إيضاح ذلك أُذكِّر بأن من أهل العلم من قرأ ﴿ وَإِنَّ اللَّهَ ﴾ خفضًا لقول: ﴿ وَإِنَّ ﴾.

ومنهم من فتحها وقرأ (وأن الله..).

فعلى التأويل - التأويل الذي هو بالخفض (بالكسر) - يكون قوله ﴿ وَإِنَّ اللَّهَ رَبِّي.. ﴾ معطوفًا على قوله: ﴿ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آتَانِيَ ﴾، ﴿ وَإِنَّ اللهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ ﴾.

فيكون المعنى قال - أي: عيسى عليه السلام لما تكلّم في المهد -: ﴿ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ .. ﴾ ﴿ وَإِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴾.

وعلى قراءة من قرأ بالفتح فالمعنى أن يقال: وأوصاني بالصلاة والزكاة ما دمت حيًّا.. ﴿ وَأَوْصَانِي ﴾ بأن الله ربي وربكم.

أو ذلك عيسى ابن مريم، وذلك أن الله ربي وربكم.

ويكون قائل هذا الأخير رسول الله محمد ﷺ.

أي إن المعنى: ذلك الذي ذكرته لكم هو القول الصحيح في عيسى ابن مريم وذلك أن الله ربي وربكم فاعبدوه..

والله تعالى أعلم.

* * *

س: من المعنيون بالأحـزاب في قوله تعالى: ﴿ فَاخْتَلَفَ الأَحْزَابُ مِنْ بَيْنِهِمْ ﴾؟

ج: الظاهر، والله تعالى أعلم أنهم أحزاب اليهود والنصارى فاليهود قذفوا مريم عليها السلام ونسبوا ولدها عيسى عليه السلام إلى ما لا يليق به.

والنصارى بالغوا في إطرائه حتى اتخذوه إلهًا.

* * *

س: وضح معنى قوله: ﴿ مِنْ بَيْنِهِمْ ﴾.

ج: الظاهر، والله أعلم أن معناها فيما بينهم.

وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة: ﴿ فَاخْتَلَفَ الأَحْزَابُ مِنْ بَيْنِهِمْ ﴾ قال أبو حيان في «البحر»: ومعنى قوله: ﴿ مِنْ بَيْنِهِمْ ﴾ أن الاختلاف لم يخرج عنهم بل كانوا هم المختلفين - انتهى محل الغرض منه.

قال ابن الجوزي في «زاد المسير»:

قال المفسرون: ﴿ مِنْ ﴾ زائدة، والمعنى اختلفوا بينهم.

قال الشنقيطي رحمه الله:

اعلم أن لفظة ﴿ الْحَقِّ ﴾ في قوله هنا ﴿ قَوْلَ الْحَقِّ ﴾ فيها للعلماء وجهان:

الأول: أن المراد بالحق ضد الباطل بمعنى الصدق والثبوت؛ كقوله: ﴿ وَكَذَّبَ بِهِ قَوْمُكَ وَهُوَ الْحَقُّ ﴾ [الأنعام:٦٦] وعلى هذا القول فإعراب قوله

﴿ قَوْلَ الْحَقِّ ﴾ على قراءة النصب أنه مصدر مؤكد لمضمون الجملة كما تقدم. وعلى قراءة الرفع فهو خبر مبتدأ محذوف كما تقدم.

ويدل لهذا الوجه قوله تعالى في «آل عمران» في القصة بعينها: ﴿ الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلا تَكُن مِّنَ الْمُمْتَرِينَ ﴾ [آل عمران: ٦٠].

الوجه الثاني: أن المراد بالحق في الآية: الله جل وعلا؛ لأن من أسمائه «الحق» كقوله: ﴿ وَيَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ الْمُبِينُ ﴾ [النور: ٢٥]، وقوله: ﴿ ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ ﴾ [الحج: ٦] الآية.

وعلى هذا القول فإعراب قوله تعالى: ﴿ قَوْلَ الْحَقِّ ﴾ على قراءة النصب أنه منصوب على المدح.

وعلى قراءة الرفع فهو بدل من «عيسى» أو خبر بعد خبر، وعلى هذا الوجه فـ ﴿ قَوْلَ الْحَقِّ ﴾ هو «عيسى» كما سماه الله كلمة في قوله: ﴿ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ ﴾ [النساء: ١٧١]، وقوله: ﴿ إِنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيحُ ﴾[آل عمران: ٤٥] الآية.

وإنما سمى «عيسى» كلمة لأن الله أوجده بكلمته التي هي «كن» فكان، كما قال: ﴿ إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِندَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُن ﴾ [آل عمران: ٥٩] والقول والكلمة على هذا الوجه من التفسير بمعنى واحد.

وقوله: ﴿ الَّذِي فِيهِ يَمْتَرُونَ ﴾ أي: يشكون؛ فالامتراء افتعال من المرية وهي الشك.

وهذا الشك الذي وقع للكفار نهى الله عنه المسلمين على لسان نبيهم في

قوله تعالى: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِندَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُن فَيَكُونُ (٥٩) الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلا تَكُن مِّنَ الْمُمْتَرِينَ﴾ [آل عمران: ٥٩، ٦٠]

وهذا القول الحق الذي أوضح الله به حقيقة الأمر في شأن عيسى عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام بعد نزوله على نبينا ﷺ ـ أمره ربه أن يدعو من حاجَّه في شأن عيسى إلى المباهلة؛ ثم أخبره أن ما قص عليه من خبر عيسى هو القصص الحق، وذلك في قوله تعالى: ﴿فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنفُسَنَا وَأَنفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَل لَّعْنَةَ اللَّهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ (٦١) إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْقَصَصُ الْحَقُّ﴾ [آل عمران: ٦١، ٦٢] الآية.

ولما نزلت ودعا النبي ﷺ وفد نجران إلى المباهلة خافوا الهلاك وأدوا كما هو مشهور.

* * *

س: ما وجه اختلافهم في عيسى عليه السلام؟

ج: اختلفوا في عيسى كيف كان، وما كان.

فقالت الفئة المؤمنة: هو عبدالله ورسوله وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه.

واختلف أهل الكفر فقالت اليهود: إنه ساحرٌ كذاب وأنه وُلد بغير رِشْدَةٍ.

وقالت النصارى: إنه ابن الله، وقالت طائفةٌ منهم: إنه الله، وقالت طائفة أخرى منهم أيضًا: إنه ثالث ثلاثة.

والقول الصحيح ما قالته الفئة المؤمنة.

قال تعالى: ﴿ إِنْ هُوَ إِلاَّ عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ وَجَعَلْنَاهُ مَثَلاً لِّبَنِي إِسْرَائِيلَ ﴾ [الزخرف: ٥٩].

وقال تعالى: ﴿ مَا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلاَّ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ كَانَا يَأْكُلانِ الطَّعَامَ ﴾ [المائدة: ٧٥].

وقال تعالى ﴿ إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِندَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُن فَيَكُونُ ﴾[آل عمران: ٥٩].

قال قتادة(١) رحمه الله: ﴿ذَلِكَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ قَوْلَ الْحَقِّ الَّذِي فِيهِ يَمْتَرُونَ﴾ امترت فيه اليهود والنصارى، فأما اليهود فزعموا أنه ساحر كذّاب، وأما النصارى فزعموا أنه ابن الله، وثالث ثلاثة، وإله، وكذبوا كلهم، ولكنه عبدالله ورسوله، وكلمته وروحه.

وقد تقدم في «سورة النساء» أثر ابن عباس رضي الله عنهما(٢) في ذلك، وحاصله أنهم افترقوا فيه ثلاث فرقٍ.

فقالت فرقة: كان الله فينا ما شاء ثم صعد إلى السماء، فهؤلاء اليعقوبية.

وقالت فرقة: كان فينا ابن الله ما شاء الله ثم رفعه إليه، فهؤلاء النسطورية.

وقالت فرقة: كان فينا عبدالله ورسوله ما شاء الله ثم رفعه الله إليه، وهؤلاء المسلمون.

---

(١) الطبري (أثر ٢٣٧١٩) وإسناده حسن.

(٢) هو عند ابن أبي حاتم (٤ / ١١١٠) والنسائي في التفسير (٦١١) وسنده حسن.

فتظاهرت الكافرتان على المسلمة فقتلوها، فلم يزل الإسلام طامسًا حتى بعث الله محمداً ﷺ .

* * *

قال الحافظ ابن كثير رحمه الله:

وقوله: ﴿فَاخْتَلَفَ الأَحْزَابُ مِنْ بَيْنِهِمْ﴾ أي: اختلفت أقوال أهل الكتاب في عيسىٰ، بعد بيان أمره ووضوح حاله، وأنه عبده ورسوله، وكلمته ألقاها إلىٰ مريم وروح منه، فصممت طائفة وهم جمهور اليهود عليهم لعائن الله! علىٰ أنه ولد زنا، وقالوا: كلامه هذا سحر. وقالت طائفة أخرىٰ: إنما تكلم الله.

وقال آخرون: هو ابن الله.

وقال آخرون: ثالث ثلاثة.

وقال آخرون: بل هو عبدالله ورسوله.

وهذا هو قول الحق، الذي أرشد الله إليه المؤمنين.

* * *

س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا مِن مَّشْهَدِ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾.

ج: قال الحافظ ابن كثير رحمه الله تعالى في بيان ذلك:

وقوله: ﴿فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا مِن مَّشْهَدِ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ تهديد ووعيد

شديد لمن كذب على الله، وافترى، وزعم أن له ولدًا، ولكن أنظرهم تعالى إلى يوم القيامة، وأجلهم حلمًا وثقة بقدرته عليهم؛ فإنه الذي لا يعجل على من عصاه، بل كما جاء في «الصحيحين»(١) : «**إن الله ليملي للظالم حتى إذا أخذه لم يفلته**». ثم قرأ رسول الله ﷺ: ﴿**وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَى وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ**﴾ [هود: ١٠٢].

وفي «الصحيحين»(٢) أيضًا عن رسول الله ﷺ أنه قال: «**لا أحد أصبر على أذى سمعه من الله، إنهم يجعلون له ولدًا وهو يرزقهم ويعافيهم**».

وقد قال الله تعالى: ﴿**وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَمْلَيْتُ لَهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ ثُمَّ أَخَذْتُهَا وَإِلَيَّ الْمَصِيرُ**﴾ [الحج: ٤٨].

وقال تعالى: ﴿**وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَافِلًا عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ**﴾ [إبراهيم: ٤٢] ولهذا قال هاهنا: ﴿**فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا مِن مَّشْهَدِ يَوْمٍ عَظِيمٍ**﴾ أي: يوم القيامة.

* * *

س: لا يلزم أن يعاجل الكافر بالعقوبة في الدنيا، بل قد يُدخر له العذاب كله إلى الآخرة دلّل على ذلك.

ج: نعم قد يؤاخذ الكافر بالعذاب في الدنيا، وقد يدخر له العذاب إلى

---

(١) البخاري (٤٦٨٦) ومسلم (٢٥٨٣) من حديث أبي موسى الأشعري رضي الله عنه مرفوعًا.

(٢) البخاري (حديث ٦٠٩٩) ومسلم (حديث ٢٨٠٤).

الآخرة.

قال تعالى لنبيه ﷺ ﴿فَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ﴾ [غافر: ٧٧].

وقال تعالى: ﴿فَإِمَّا نَذْهَبَنَّ بِكَ فَإِنَّا مِنْهُم مُّنتَقِمُونَ (٤١) أَوْ نُرِيَنَّكَ الَّذِي وَعَدْنَاهُمْ فَإِنَّا عَلَيْهِم مُّقْتَدِرُونَ﴾ [الزخرف: ٤١، ٤٢].

أي: إننا قد ننزل بالكفار عذابًا في الدنيا فتراهم يعذبون في حياتك، وقد تموت قبل أن ترى عذابهم وقد يؤجل لهم العذاب إلى الآخرة.

ومن الأدلة على جواز تأخير العذاب للآخرة قوله تعالى: ﴿فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا مِن مَّشْهَدِ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾.

وكذا فقد ذكر غير واحد من العلماء أن الذين خدوا الأخاديد للمؤمنين وقذفوهم فيها لم يُذكر في شأنهم أنهم قد أصيبوا بعذابٍ عاجل في الدنيا، ولكن توعدهم ربنا بأليم العذاب. أنهم قد أصيبوا بعذابٍ عاجل في الدنيا، ولكن توعدهم ربنا بأليم العذاب.

وقال الشنقيطي في «أضواء البيان»:

أظهر الأقوال في ﴿الأَحْزَابُ﴾ المذكورة في هذه الآية ـ أنهم فرق اليهود والنصارى الذين اختلفوا في شأن عيسى.

فقالت طائفة: هو ابن زنا.

وقالت طائفة: هو ابن الله.

وقالت طائفة: هو الله.

وقالت طائفة: هو إله مع الله.

ثم إن الله توعد الذين كفروا منهم بالويل لهم من شهود يوم القيامة؛ وذلك يشمل من كفر بالتفريط في عيسىٰ كالذي قال: إنه ابن زنا.

ومن كفر بالإفراط فيه كالذين قالوا: إنه الله أو ابنه.

وقوله: ﴿فَوَيْلٌ﴾ كلمة عذاب؛ فهو مصدر لا فعل له من لفظه.

وسوغ الابتداء به وهو نكرة كونه في معنىٰ الدعاء.

والظاهر أن المشهد في الآية مصدر ميمي؛ أي: فويل لهم من شهود ذلك اليوم أي: حضوره لما سيلاقونه فيه من العذاب. خلافًا لمن زعم أن المشهد في الآية اسم مكان؛ أي: فويل لهم من ذلك المكان الذي يشهدون فيه تلك الأهوال والعذاب. والأول: هو الظاهر وهو الصواب إن شاء الله تعالىٰ.

وهذا المعنىٰ الذي ذكره هنا ذكره أيضًا في سورة «الزخرف» في قوله تعالىٰ: ﴿وَلَمَّا جَاءَ عِيسَىٰ بِالْبَيِّنَاتِ قَالَ قَدْ جِئْتُكُم بِالْحِكْمَةِ وَلِأُبَيِّنَ لَكُم بَعْضَ الَّذِي تَخْتَلِفُونَ فِيهِ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿٦٣﴾ إِنَّ اللَّهَ هُوَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَٰذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٦٤﴾ فَاخْتَلَفَ الْأَحْزَابُ مِن بَيْنِهِمْ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْ عَذَابِ يَوْمٍ أَلِيمٍ﴾ [الزخرف: ٦٣-٦٥] وما أشار إليه في الآيتين: من أن الذين كفروا بالإفراط أو التفريط في عيسىٰ عليه وعلىٰ نبينا الصلاة والسلام، أنه لم يعاجلهم بالعذاب، وأنه يؤخر عذابهم إلىٰ الوقت المحدد لذلك - أشار له في مواضع أخر؛ كقوله تعالىٰ: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَافِلًا

عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الأَبْصَارُ﴾ [إبراهيم: ٤٢]، وقوله تعالى: ﴿وَمَا نُؤَخِّرُهُ إِلاَّ لأَجَلٍ مَّعْدُودٍ﴾ [هود: ١٠٤]، وقوله: ﴿وَلَوْلا أَجَلٌ مُّسَمًّى لَّجَاءَهُمُ الْعَذَابُ وَلَيَأْتِيَنَّهُم بَغْتَةً وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ﴾ [العنكبوت: ٥٣].

وبالجملة فالله تعالى يمهل الظالم إلى وقت عذابه، ولكنه لا يهمله.

وقد ثبت في «الصحيحين» من حديث أبي موسى الأشعري رضي الله عنه: أن النبي ﷺ قال: «**إن الله ليملي للظالم حتى إذا أخذه لم يفلته**» ثم قرأ رسول الله ﷺ: ﴿وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَى وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ﴾ [هود: ١٠٢]، وقال تعالى: ﴿وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَمْلَيْتُ لَهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ ثُمَّ أَخَذْتُهَا وَإِلَيَّ الْمَصِيرُ﴾ [الحج: ٤٨].

وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة: ﴿فَاخْتَلَفَ الأَحْزَابُ مِنْ بَيْنِهِمْ﴾.

قال أبو حيان في «البحر»: ومعنى قوله: ﴿مِنْ بَيْنِهِمْ﴾ أن الاختلاف لم يخرج عنهم بل كانوا هم المختلفين ـ انتهى محل الغرض منه.

* * *

س: اذكر ما يدل على أن الكفار يسمعون يوم القيامة ويبصرون في بعض الأحيان.

ج: مما يدل على ذلك ما يلي:

قوله تعالى: ﴿أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ يَوْمَ يَأْتُونَنَا﴾ [مريم: ٣٨].

وقوله تعالىٰ: ﴿وَلَوْ تَرَى إِذِ الْمُجْرِمُونَ نَاكِسُوا رُءُوسِهِمْ عِندَ رَبِّهِمْ رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا﴾ [السجدة: ١٢].

وقوله تعالىٰ: ﴿فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ﴾ [ق: ٢٢].

* * *

س: اذكر بإيضاح معنى قوله تعالى: ﴿أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ يَوْمَ يَأْتُونَنَا﴾.

ج: المعنىٰ، والله تعالىٰ أعلم أنهم يسمعون يوم القيامة سماعًا جيدًا متقنًا ويبصرون إبصارًا واضحًا ويعاينون معاينة جلية ما كانوا يوعدون به في دنياهم.

فقد كانوا في الدنيا يُخبرون بأشياء ويُذكَّرون بأخرىٰ ولم يكونوا مُصدِّقين لذلك، فيوم القيامة يبصرون كل ذلك ويعاينونه ويسمعونه، ولكن حين لا ينفع السمع ولا ينفع النظر، ولا ينفع العلم.

قال الطبري رحمه الله:

يقول تعالىٰ ذكره مخبراً عن حال الكافرين به، الجاعلين له أنداداً، والزاعمين أن له ولداً يوم ورودهم عليه في الآخرة: لئن كانوا في الدنيا عميًا عن إبصار الحقّ، والنظر إلىٰ حجج الله التي تدلّ علىٰ وحدانيته صمًّا عن سماع آي كتابه، وما دعتهم إليه رسل الله فيها من الإقرار بتوحيده، وما بعث به أنبياءه، فما أسمعهم يوم قدومهم علىٰ ربهم في الآخرة، وأبصرهم يومئذ حين لا ينفعهم الإبصار والسماع.

وقال القرطبي رحمه الله تعالى:

قوله تعالىٰ: ﴿**أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ يَوْمَ يَأْتُونَنَا**﴾ قال أبو العباس: العرب تقول هذا في موضع التعجب؛ فتقول: أسمع بزيد وأبصر بزيد أي: ما أسمعه وأبصره.

قال: فمعناه أنه عَجَّب نبيه منهم.

قال الكلبي: لا أحد أسمع منهم يوم القيامة ولا أبصر، حين يقول الله تبارك وتعالىٰ لعيسىٰ: ﴿**أَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَهَيْنِ مِن دُونِ اللَّهِ**﴾ [المائدة: ١١٦].

وقيل: «أسمع» بمعنىٰ: الطاعة؛ أي: ما أطوعهم لله في ذلك اليوم.

* * *

س: ذكرتم أن معنى قوله: ﴿أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ﴾ أي: ما أشد سمعهم وما أشد بصرهم، فكيف يجمع بين هذا، وبين قوله تعالى: ﴿وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى وُجُوهِهِمْ عُمْيًا وَبُكْمًا وَصُمًّا مَّأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَاهُمْ سَعِيرًا﴾ [الإسراء: ٩٧].

ج: وجه الجمع أن يقال: إن مواقف القيامة ومشاهدها تتنوع وتتعدد فأحيانًا يسمعون أشد السمع ويُبصرون أشد الإبصار ليروا ما يسيئهم، وأحيانًا يكونون عميًا وصمًّا وبُكمًا كنوع من أنواع التعذيب لهم، الله أعلم.

هذا، ومن العلماء من قال: إن قوله تعالىٰ: ﴿**أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ**﴾ صيغتا تعجب من قوة سمعهم وبصرهم يوم القيامة، أي أنهم يسمعون ويبصرون سمعًا وبصرًا عجيبين.

قال الشنقيطي رحمه الله:

قوله: ﴿أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ﴾ صيغتا تعجب.

ومعنى الآية الكريمة: أن الكفار يوم القيامة يسمعون ويبصرون الحقائق التي أخبرتهم بها الرسل سمعًا وإبصاراً عجيبين، وأنهم في دار الدنيا في ضلال وغفلة لا يسمعون الحق ولا يبصرونه؛ وهذا الذي بينه تعالى في هذه الآية الكريمة- بينه في مواضع أخر؛ كقوله في سمعهم وإبصارهم يوم القيامة: ﴿وَلَوْ تَرَى إِذِ الْمُجْرِمُونَ نَاكِسُوا رُءُوسِهِمْ عِندَ رَبِّهِمْ رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَارْجِعْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ﴾ [السجدة: ١٢].

وقوله تعالى: ﴿لَقَدْ كُنتَ فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَذَا فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ﴾ [ق: ٢٢].

وكقوله في غفلتهم في الدنيا وعدم إبصارهم وسمعهم: ﴿اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ﴾ [الأنبياء: ١].

وقوله: ﴿يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِّنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ﴾ [الروم: ٧].

وقوله: ﴿صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لا يَرْجِعُونَ﴾ [البقرة: ١٨].

وقوله: ﴿مَثَلُ الْفَرِيقَيْنِ كَالأَعْمَى وَالأَصَمِّ وَالْبَصِيرِ وَالسَّمِيعِ﴾ الآية [هود: ٢٤].

والمراد بالأعمى والأصم: الكفار. والآيات بمثل هذا كثيرة.

***

س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿لَكِنِ الظَّالِمُونَ الْيَوْمَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾.

ج: قال ابن كثير رحمه الله:

﴿لَكِنِ الظَّالِمُونَ الْيَوْمَ ﴾ أي: في الدنيا ﴿فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ أي: لا يسمعون ولا يبصرون ولا يعقلون، فحيث يطلب منهم الهدىٰ لا يهتدون، ويكونون مطيعين حيث لا ينفعهم ذلك.

* * *

س: قوله تعالى: ﴿وَأَنذِرْهُمْ ﴾ ما معناه؟

ج: المعنىٰ، وخوِّفهم، أي: خوِّف كفار قريش وعموم الكفار.

* * *

يوم الحسرة

س: اذكر بإيضاح المراد بيوم الحسرة؟

ج: المراد به يوم القيامة يوم يتحسرون ويندمون على ما صدر منهم من التفريط في جنب الله.

في «الصحيح»[1] عن أبي سعيد الخُدري رضي الله عنه قال: قال رسولُ الله ﷺ: «يُؤْتى بالموتِ كهيئةِ كبش أملَحَ، فينُادي منادٍ يا أهل الجنة فيَشرئبُّون وينَظُرون، فيقول: هل تَعرفون هذا؟ فيقولون: نعم، هذا الموت. وكلُّهم قد رآه. ثم يُنادي: يا أهلَ النار، فيَشرئبون[2] وينَظُرون، فيقول: هل تعرفون هذا؟ فيقولون: نعم، هذا الموت. وكلهم قد رآه. فيُذبَح. ثم يقول: يا أهلَ الجنة، خُلودٌ فلا مَوت. ويا أهلَ النار، خلودٌ فلا موت، ثم قرأ ﴿وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ الْحَسْرَةِ إِذْ قُضِيَ الأَمْرُ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ ـ وهؤلاء في غفلةِ أهلِ الدنيا ـ وَهُمْ لا يُؤْمِنُونَ﴾.

قال الطبري رحمه الله تعالى:

يقول ـ تعالى ذكره ـ لنبيه محمد ﷺ: وأنذر يا محمد هؤلاء المشركين بالله يوم حسرتهم وندمهم، على ما فرّطوا في جنب الله، وأورثت مساكنهم في الجنة أهل الإيمان بالله والطاعة له، وأدخلوهم مساكن أهل الإيمان بالله من

(١) البخاري (٤٧٣٠) ومسلم (٢٨٤٩).

(٢) يشرئبون أي: يرفعون رءوسهم إلى المنادي.

النار، وأيقن الفريقان بالخلود الدائم، والحياة التي لا موت بعدها، فيا لها حسرةً وندامة.

قال الحافظ ابن كثير رحمه الله:

﴿وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ الْحَسْرَةِ﴾ أي: أنذر الخلائق يوم الحسرة: ﴿إِذْ قُضِيَ الأَمْرُ﴾ أي: فصل بين أهل الجنة وأهل النار، ودخل كلٌّ إلى ما صار إليه مخلداً فيه.

وقال ابن الجوزي في «زاد المسير»:

قال المفسرون: فهذه هي الحسرة إذا ذُبح الموت، فلو مات أحد فرحًا مات أهل الجنة، ولو مات أحد حزنًا مات أهل النار.

وفي رواية عند مسلم[1] من حديث ابن عمر رضي الله عنهما:

أنَّ رَسُولَ الله ﷺ قَالَ: «**يُدْخِلُ الله أهلَ الجنَّة الجَنَّةَ، ويُدْخِلُ أهْلَ النَّار النَّارَ، ثُمَّ يَقُومُ مُؤَذِّنٌ بَيْنَهُم فيقُولُ: يَا أَهْلَ الجَنَّةِ! لاَ مَوْتَ، ويَا أَهْلَ النَّارِ! لاَ مَوْتَ، كُلٌّ خَالِدٌ فِيمَا هُوَ فِيه**».

وله لفظ آخر عند مسلم أيضًا:

أنَّ رَسُولَ الله ﷺ قَالَ: «**إذَا صَارَ أهْلُ الجَنَّة إلَى الجنَّة، وَصَارَ أهْلُ النَّار إلى النَّار، أُتِي بالمَوْت حَتَّى يُجْعَلَ بَيْنَ الجَنَّة وَالنَّار، ثُمَّ يُذْبَحُ، ثُمَّ يُنَادِي مُنَادٍ: يَا أهْلَ الجَنَّةِ! لا مَوْتَ، ويَا أهْلَ النَّارِ! لا مَوْتَ، فَيَزْدَادُ أهْلُ الجنَّة فَرَحًا إلَى فَرَحِهِمْ، ويَزْدَادُ أهْلُ النَّارِ حُزْنًا إلَى حُزْنِهِمْ**».

* * *

---

(١) مسلم (٢٨٥٠).

س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَرِثُ الأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا وَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ﴾.

ج: قال الطبري رحمه الله:

يقول ـ تعالى ذكره ـ لنبيه محمد ﷺ: لا يحزنك تكذيب هؤلاء المشركين لك يا محمد فيما أتيتهم به من الحقّ، فإن إلينا مرجعهم ومصيرهم ومصير جميع الخلق غيرهم، ونحن وارثو الأرض ومن عليها من الناس، بفنائهم منها، وبقائها لا مالك لها غيرنا، ثم علينا جزاء كلّ عامل منهم بعمله، عند مرجعه إلينا، المحسن منهم بإحسانه، والمسيء بإساءته.

وقال ابن الجوزي في «زاد المسير»:

قوله تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَرِثُ الأَرْضَ﴾ أي: نُميت سكّانها فنرثها ﴿وَمَنْ عَلَيْهَا وَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ﴾ بعد الموت.

فإن قيل: ما الفائدة في «نحن» وقد كفت عنها «إنّا»؟.

فالجواب: أنه لما جاز في قول المعظَّم: «إنّا نفعل» أن يتُوهم أن أتباعه فعلوا، أبانت «نحن» بأن الفعل مضاف إليه حقيقة.

فإن قيل: فلم قال: «وَمَنْ عليها» وهو يرث الآدميين وغيرهم؟!

فالجواب: أن «مَنْ» تختص أهل التمييز، وغير المميِّزين يدخلون في معنى الأرض ويجرون مجراها، ذكر الجوابين عن السؤالين ابن الأنباري.

وقال الشنقيطي في «أضواء البيان»:

قوله تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَرِثُ الأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا وَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ﴾ [مريم: ٤٠].

معنى قوله ـ جل وعلا ـ في هذه الآية: أنه يرث الأرض ومن عليها: أنه يميت جميع الخلائق الساكنين بالأرض، ويبقى هو جل وعلا لأنه الحي الذي لا يموت، ثم يرجعون إليه يوم القيامة. وقد أشار إلى المعنى في مواضع أخر؛ كقوله: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ﴿٢٦﴾ وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ﴾ [الرحمن: ٢٦: ٢٧].

وقوله تعالى: ﴿وَإِنَّا لَنَحْنُ نُحْيِي وَنُمِيتُ وَنَحْنُ الْوَارِثُونَ﴾[الحجر: ٢٣] إلى غير ذلك من الآيات.

* * *

ذكر طائفة من أنبياء الله عز وجل

﴿ وَٱذۡكُرۡ
فِي ٱلۡكِتَٰبِ إِبۡرَٰهِيمَۚ إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقٗا نَّبِيًّا ﴿٤١﴾ إِذۡ قَالَ لِأَبِيهِ يَٰٓأَبَتِ
لِمَ تَعۡبُدُ مَا لَا يَسۡمَعُ وَلَا يُبۡصِرُ وَلَا يُغۡنِي عَنكَ شَيۡـٔٗا ﴿٤٢﴾ يَٰٓأَبَتِ
إِنِّي قَدۡ جَآءَنِي مِنَ ٱلۡعِلۡمِ مَا لَمۡ يَأۡتِكَ فَٱتَّبِعۡنِيٓ أَهۡدِكَ صِرَٰطٗا
سَوِيّٗا ﴿٤٣﴾ يَٰٓأَبَتِ لَا تَعۡبُدِ ٱلشَّيۡطَٰنَۖ إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ كَانَ لِلرَّحۡمَٰنِ
عَصِيّٗا ﴿٤٤﴾ يَٰٓأَبَتِ إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ عَذَابٞ مِّنَ ٱلرَّحۡمَٰنِ
فَتَكُونَ لِلشَّيۡطَٰنِ وَلِيّٗا ﴿٤٥﴾ قَالَ أَرَاغِبٌ أَنتَ عَنۡ ءَالِهَتِي
يَٰٓإِبۡرَٰهِيمُۖ لَئِن لَّمۡ تَنتَهِ لَأَرۡجُمَنَّكَۖ وَٱهۡجُرۡنِي مَلِيّٗا ﴿٤٦﴾ قَالَ
سَلَٰمٌ عَلَيۡكَۖ سَأَسۡتَغۡفِرُ لَكَ رَبِّيٓۖ إِنَّهُۥ كَانَ بِي حَفِيّٗا ﴿٤٧﴾
وَأَعۡتَزِلُكُمۡ وَمَا تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَأَدۡعُواْ رَبِّي عَسَىٰٓ
أَلَّآ أَكُونَ بِدُعَآءِ رَبِّي شَقِيّٗا ﴿٤٨﴾ فَلَمَّا ٱعۡتَزَلَهُمۡ وَمَا يَعۡبُدُونَ
مِن دُونِ ٱللَّهِ وَهَبۡنَا لَهُۥٓ إِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَۖ وَكُلّٗا جَعَلۡنَا نَبِيّٗا ﴿٤٩﴾
وَوَهَبۡنَا لَهُم مِّن رَّحۡمَتِنَا وَجَعَلۡنَا لَهُمۡ لِسَانَ صِدۡقٍ عَلِيّٗا ﴿٥٠﴾ ﴾

س: اذكر معنى ما يلي:

صديقًا ـ نبيًّا ـ لا يغني عنك شيئًا ـ أهدك ـ صراطًا سويًّا ـ عصيًّا ـ يمسَّك ـ وليًّا ـ أراغبٌ أنت ـ لأرجمنك ـ مليًّا ـ سلامٌ عليك ـ حفيًّا ـ أعتزلكم ـ أدعوا ربي ـ عسى ألا أكون بدعاء ربي شقيًا ـ من رحمتنا ـ لسان صدق عليًا.

ج:

الكلمة	معناها
﴿ صدِّيقًا ﴾	كثير الصدق ـ من أهل الصدق.
﴿ نَّبِيًّا ﴾	نبّأه الله وأوحى إليه.
﴿ ولا يُغْنِي عَنكَ شَيْئًا ﴾	لا يدفع عنك ضُرًّا.
﴿ أَهْدِكَ ﴾	أرُشدك ـ أُبصِّرك.
﴿ صِرَاطًا سَوِيًّا ﴾	طريقًا مستقيمًا لا اعوجاج فيه ولا ضلال.
﴿ عَصِيًّا ﴾	عاصيًا ـ ذو عصيان.
﴿ يَمَسَّكَ ﴾	يُصيبك ـ يحلُّ بك.
﴿ وَلِيًّا ﴾	المراد هنا ـ شريكًا في العذاب، متوليًا للشيطان ومن ثمَّ فمعذبٌ ـ قرينًا في النار.
﴿ أَرَاغِبٌ أَنتَ ﴾	أمعرضٌ أنت ـ أمنصرفٌ أنت.
﴿ لأَرْجُمَنَّكَ ﴾	لأسبَّنك ـ لأرجمنك بالحجارة.

الكلمة	معناها
﴿مَلِيًّا﴾	زمنًا طويلاً - حينًا طويلاً - دهرًا طويلاً سليم الجسم معافى[١].
﴿سَلامٌ عَلَيْكَ﴾	أمانٌ مني لك - سَلِمْتَ من أن أصيبك بمكروه (لأنه لم يؤمر بقتاله).
﴿حَفِيًّا﴾	لطيفًا (يجيب دعائي - يحتفي بي) ومن لطفه بي أن هداني لعبادته والإخلاص له والحفي كثير البرِّ والإلطاف (يجيبني إذا دعوته).
﴿وأَعْتَزِلُكُم﴾	أجتنبكم - أتنحى عنكم.
﴿وأَدْعُو رَبِّي﴾	أعبد ربي مخلصًا العبادة له.
﴿عَسَى أَلاَّ أَكُونَ بِدُعَاءِ رَبِّي شَقِيًّا﴾	عسى أن لا يرد دعائي فأشقى بذلك.
﴿مِّن رَّحْمَتِنَا﴾	من فضلنا - من رزقنا.
﴿لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيًّا﴾	ثناءً حسنًا في الملأ الأعلى، وكذا في الدنيا لأن جميع الملل تثني عليهم.

(١) ومنه الملي: الغني.

ذكر إبراهيم عليه السلام

س: أي كتاب هذا الذي قال الله عنه: ﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ﴾ وما المراد بقوله تعالى: ﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ﴾ [مريم: ٤١]؟

ج: أما الكتاب فهو القرآن الذي أنزله الله على نبينا محمد ﷺ.

أما قوله تعالى: ﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ﴾ أي: واذكر للناس ولمن أُرسلت فيهم وإليهم قصة إبراهيم عليه السلام وما حدث له مع والده.

قال القرطبي رحمه الله:

ومعنى الآية:

اقرأ عليهم يا محمد في القرآن أمر إبراهيم فقد عرفوا أنهم من ولده، فإنه كان حنيفًا مسلمًا وما كان يتخذ الأنداد، فهؤلاء لِمَ يتخذون الأنداد؟! وهو كما قال: ﴿وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلاَّ مَن سَفِهَ نَفْسَهُ﴾ [البقرة: ١٣٠].

* * *

س: قد شهد الله سبحانه وتعالى لإبراهيم عليه السلام بصدق معاملته مع ربه عزَّ وجل اذكر بعض ما يدل على ذلك.

ج: مما يدل على ذلك صريح الوصف بذلك، إذ الله تبارك وتعالى قد قال: ﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا﴾.

وقال الشنقيطي رحمه الله تعالى في تفسيره «أضواء البيان»:

وجملة: ﴿إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا﴾ معترضة بين البدل والمبدل منه على

الإعراب المذكور.

والصديق صيغة مبالغة من الصدق؛ لشدة صدق إبراهيم في معاملته مع ربه وصدق لهجته، كما شهد الله له بصدق معاملته في قوله: ﴿وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّى﴾ [النجم:٣٧]، وقوله: ﴿وَإِذِ ابْتَلَى إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا﴾ [البقرة:١٢٤].

ومن صدقه في معاملته مع ربه: رضاه بأن يذبح ولده، وشروعه بالفعل في ذلك طاعة لربه؛ مع أن الولد فلذة من الكبد.

لكنما أولادنا بيننا أكبادنا تمشي على الأرض

قال تعالى: ﴿فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ (١٠٣) وَنَادَيْنَاهُ أَن يَا إِبْرَاهِيمُ (١٠٤) قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا..﴾ الآية [الصافات:١٠٣-١٠٥].

ومن صدقه في معاملته مع ربه: صبره على الإلقاء في النار؛ كما قال تعالى: ﴿قَالُوا حَرِّقُوهُ وَانصُرُوا آلِهَتَكُمْ إِن كُنتُمْ فَاعِلِينَ﴾ [الأنبياء:٦٨]، وقال: ﴿فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلاَّ أَن قَالُوا اقْتُلُوهُ أَوْ حَرِّقُوهُ فَأَنجَاهُ اللهُ مِنَ النَّارِ﴾ الآية [العنكبوت:٢٤].

وذكر علماء التفسير في قصته أنهم لما رموه إلى النار لقيه جبريل فسأله: هل لك حاجة؟ فقال: أما إليك فلا! وأما إلى الله فنعم. فقال له: لِمَ لا تسأله؟ فقال: علمه بحالي كاف عن سؤالي![1].

ومن صدقه في معاملته ربه: صبره على مفارقة الأهل والوطن فراراً لدينه؛ كما قال تعالى: ﴿فَآمَنَ لَهُ لُوطٌ وَقَالَ إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَى رَبِّي﴾ [العنكبوت:٢٦]وقد هاجر من سواد العراق إلى دمشق: وقد بين جل وعلا في

(١) هذا لا يصح له سند.

مواضع أخر أنه لم يكتف بنهيهم عن عبادة الأوثان وبيان أنها لا تنفع ولا تضر، بل زاد على ذلك أنه كسرها وجعلها جذاذاً وترك الكبير من الأصنام، ولما سألوه، هل هو الذي كسرها؟ قال لهم: إن الذي فعل ذلك كبير الأصنام، وأمرهم بسؤال الأصنام إن كانت تنطق؛ كما قال تعالى عنه: ﴿وَتَاللهِ لأَكِيدَنَّ أَصْنَامَكُم بَعْدَ أَن تُوَلُّوا مُدْبِرِينَ ﴿٥٧﴾ فَجَعَلَهُمْ جُذَاذًا إِلاَّ كَبِيرًا لَّهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ ﴿٥٨﴾ قَالُوا مَن فَعَلَ هَذَا بِآلِهَتِنَا إِنَّهُ لَمِنَ الظَّالِمِينَ ﴿٥٩﴾ قَالُوا سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ ﴿٦٠﴾ قَالُوا فَأْتُوا بِهِ عَلَى أَعْيُنِ النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ ﴿٦١﴾ قَالُوا أَأَنتَ فَعَلْتَ هَذَا بِآلِهَتِنَا يَا إِبْرَاهِيمُ ﴿٦٢﴾ قَالَ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا فَاسْأَلُوهُمْ إِن كَانُوا يَنطِقُونَ ﴿٦٣﴾ فَرَجَعُوا إِلَى أَنفُسِهِمْ فَقَالُوا إِنَّكُمْ أَنتُمُ الظَّالِمُونَ ﴿٦٤﴾ ثُمَّ نُكِسُوا عَلَى رُءُوسِهِمْ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَؤُلاءِ يَنطِقُونَ ﴿٦٥﴾ قَالَ أَفَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللهِ مَا لا يَنفَعُكُمْ شَيْئًا وَلا يَضُرُّكُمْ ﴿٦٦﴾ أُفٍّ لَّكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللهِ أَفَلا تَعْقِلُونَ﴾ [الأنبياء: ٥٧ ـ ٦٦]، وقال تعالى: ﴿فَرَاغَ إِلَى آلِهَتِهِمْ فَقَالَ أَلا تَأْكُلُونَ ﴿٩١﴾ مَا لَكُمْ لا تَنطِقُونَ ﴿٩٢﴾ فَرَاغَ عَلَيْهِمْ ضَرْبًا بِالْيَمِينِ ﴿٩٣﴾ فَأَقْبَلُوا إِلَيْهِ يَزِفُّونَ ﴿٩٤﴾ قَالَ أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ ﴿٩٥﴾ وَاللهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾ [الصافات: ٩١ ـ ٩٦]. فقوله: ﴿فَرَاغَ عَلَيْهِمْ ضَرْبًا بِالْيَمِينِ﴾ أي: مال إلى الأصنام يضربها ضربًا بيمينه حتى جعلها جذاذًا، أي: قطاعًا متكسرة من قولهم: جذه إذا قطعه وكسره.

وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة: ﴿ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا ﴾ أي: كثير الصدق يعرف منه أن الكذبات الثلاث المذكورة في الحديث عن إبراهيم كلها في الله تعالى، وأنها في الحقيقة من الصدق لا من الكذب بمعناه الحقيقي، وسيأتي إن شاء الله زيادة إيضاح لهذا في سورة «الأنبياء».

* * *

س: وضح معنى قول الخليل إبراهيم عليه السلام: ﴿يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لا يَسْمَعُ وَلا يُبْصِرُ وَلا يُغْنِي عَنكَ شَيْئًا﴾.

ج: قال الطبري رحمه الله تعالى:

وقوله: ﴿إِذْ قَالَ لأَبِيهِ﴾ يقول: اذكره حين قال لأبيه: ﴿يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لا يَسْمَعُ﴾ يقول: ما تصنع بعبادة الوَثَن الذي لا يسمع ﴿وَلا يُبْصِرُ﴾ شيئًا ﴿وَلا يُغْنِي عَنكَ شَيْئًا﴾ يقول: ولا يدفع عنك ضرّ شيء، إنما هو صورة مصوّرة لا تضرّ ولا تنفع.

يقول: ما تصنع بعبادة ما هذه صفته؟ اعبد الذي إذا دعوته سمع دعاءك، وإذا أحيط بك أبصرك فنصرك، وإذا نزل بك ضرّ دفع عنك.

واختلف أهل العربية في وجه دخول الهاء في قوله: ﴿يَا أَبَتِ﴾ فكان بعض نحويِّي أهل البصرة يقول: إذا وقفت عليها قلت: يا أبه، وهي هاء زيدت نحو قولك: يا أمه، ثم يقال: يا أم إذا وصل، ولكنه لما كان الأب على حرفين، كان كأنه قد أُخِلّ به، فصارت الهاء لازمة، وصارت الياء كأنها بعدها، فلذلك قالوا: يا أبة أقبل، وجعل التاء للتأنيث، ويجوز الترخيم من يا أب أقبل، لأنه يجوز أن تدعو ما تضيفه إلى نفسك في المعنى مضمومًا، نحو قول العرب: يا ربّ اغفر لي، وتقف في القرآن: يا أبه في الكتاب.

وقد يقف بعض العرب على الهاء بالتاء.

وقال بعض نحويِّي الكوفة: الهاء مع أبة وأمة هاء وقف، كثرت في كلامهم حتى صارت كهاء التأنيث، وأدخلوا عليها الإضافة، فمن طلب الإضافة، فهي بالتاء لا غير، لأنك تطلب بعدها الياء، ولا تكون الهاء

حينئذٍ إلا تاء، كقولك: يا أبت لا غير، ومن قال: يا أبه، فهو الذي يقف بالهاء، لأنه لا يطلب بعدها ياء؛ ومن قال: يا أبتا، فإنه يقف عليها بالتاء، ويجوز بالهاء فأما بالتاء، فلطلب ألف الندبة، فصارت الهاء تاء لذلك، والوقف بالهاء بعيد، إلا فيمن قال: «يا أميمة ناصبِ» فجعل هذه الفتحة من فتحة الترخيم، وكأن هذا طرف الاسم، قال: وهذا بعيد.

وقال الشنقيطي رحمه الله تعالى:

فهذا الذي أمر به نبيه هنا من ذكره في الكتاب إبراهيم: ﴿إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ﴾ الآية ـ أوضحه في سورة الشعراء في قوله: ﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ إِبْرَاهِيمَ ﴿٦٩﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا تَعْبُدُونَ﴾ [الشعراء: ٦٩، ٧٠] فقوله هنا: ﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ﴾ هو معنى قوله: ﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ إِبْرَاهِيمَ﴾، وزاد في «الشعراء» أن هذا الذي قاله لأبيه من النهي عن عبادة الأوثان قاله أيضًا لسائر قومه. وكرر تعالى الإخبار عنه بهذا النهي لأبيه وقومه عن عبادة الأوثان في مواضع أخر؛ كقوله: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ آزَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا آلِهَةً إِنِّي أَرَاكَ وَقَوْمَكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ [الأنعام: ٧٤]، وقوله تعالى: ﴿إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا تَعْبُدُونَ ﴿٧٠﴾ قَالُوا نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَظَلُّ لَهَا عَاكِفِينَ ﴿٧١﴾ قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ ﴿٧٢﴾ أَوْ يَنفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ ﴿٧٣﴾ قَالُوا بَلْ وَجَدْنَا آبَاءَنَا كَذَلِكَ يَفْعَلُونَ ﴿٧٤﴾ قَالَ أَفَرَأَيْتُم مَّا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ ﴿٧٥﴾ أَنتُمْ وَآبَاؤُكُمُ الْأَقْدَمُونَ ﴿٧٦﴾ فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّي إِلَّا رَبَّ الْعَالَمِينَ﴾ [الشعراء: ٧٠ ـ ٧٧]، وقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ مِن قَبْلُ وَكُنَّا بِهِ عَالِمِينَ ﴿٥١﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا هَذِهِ التَّمَاثِيلُ الَّتِي أَنتُمْ لَهَا

عَاكِفُونَ ﴿٥٢﴾ قَالُوا وَجَدْنَا آبَاءَنَا لَهَا عَابِدِينَ ﴿٥٣﴾ قَالَ لَقَدْ كُنتُمْ أَنتُمْ وَآبَاؤُكُمْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٥٤﴾ قَالُوا أَجِئْتَنَا بِالْحَقِّ أَمْ أَنتَ مِنَ اللَّاعِبِينَ ﴿٥٥﴾ قَالَ بَل رَّبُّكُمْ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ الَّذِي فَطَرَهُنَّ وَأَنَا عَلَىٰ ذَٰلِكُم مِّنَ الشَّاهِدِينَ﴾ [الأنبياء: ٥١-٥٦].

وقوله تعالىٰ: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ إِنَّنِي بَرَاءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ ﴿٢٦﴾ إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي فَإِنَّهُ سَيَهْدِينِ﴾ [الزخرف: ٢٦، ٢٧]، وقوله تعالىٰ: ﴿وَإِنَّ مِن شِيعَتِهِ لَإِبْرَاهِيمَ ﴿٨٣﴾ إِذْ جَاءَ رَبَّهُ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٨٤﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَاذَا تَعْبُدُونَ ﴿٨٥﴾ أَئِفْكًا آلِهَةً دُونَ اللَّهِ تُرِيدُونَ ﴿٨٦﴾ فَمَا ظَنُّكُم بِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الصافات: ٨٣-٨٧].

* * *

س: كثيراً ما يستدل على النهي عن عبادة الجمادات بأنها لا تسمع ولا تبصر دلّل على ذلك.

ج: من الأدلة علىٰ ذلك ما يلي:

قول الخليل إبراهيم لأبيه: ﴿لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنكَ شَيْئًا﴾ [مريم: ٤٢].

وقوله أيضًا لقومه: ﴿هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ ﴿٧٢﴾ أَوْ يَنفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ﴾ [الشعراء: ٧٢-٧٣].

وقول الله تعالىٰ: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُو مِن دُونِ اللَّهِ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَهُمْ عَن دُعَائِهِمْ غَافِلُونَ﴾ [الأحقاف: ٥].

وقوله تعالىٰ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ عِبَادٌ أَمْثَالُكُمْ فَادْعُوهُمْ فَلْيَسْتَجِيبُوا لَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿١٩٤﴾ أَلَهُمْ أَرْجُلٌ يَمْشُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ أَيْدٍ

﴿يَبْطِشُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ أَعْيُنٌ يُبْصِرُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا﴾ [الأعراف: ١٩٤، ١٩٥] إلىٰ غير ذلك من الآيات.

* * *

س: في قول الخليل إبراهيم عليه السلام لأبيه: ﴿يَا أَبَتِ إِنِّي قَدْ جَاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ..﴾ نوع تلطف وترفق في الدعوة إلى الله وضح ذلك.

ج: إيضاحه أن إبراهيم لم يتكبر ولم يتعالم علىٰ والده ولم يَسِم أباه بالجهل ولم يصف نفسه بالعلم الفائق بل تلطف في الحديث بما حاصله أنه أتاني من الله عِلمٌ لم يأتك.

* * *

س: ما المراد بالعلم الذي آتاه الله نبيه إبراهيم عليه السلام المذكور في قوله: ﴿إِنِّي قَدْ جَاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ﴾؟

ج: الظاهر، والله تعالىٰ أعلم أنه الوحي الذي آتاه الله نبيه إبراهيم عليه السلام.

قال الشنقيطي رحمه الله:

وقوله تعالىٰ في هذه الآية الكريمة: ﴿إِنِّي قَدْ جَاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ﴾ يعني ما علمه الله من الوحي وما ألهمه وهو صغير، كما قال تعالىٰ: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ مِن قَبْلُ وَكُنَّا بِهِ عَالِمِينَ﴾ [الأنبياء: ٥١] ومحاجة إبراهيم لقومه كما ذكرنا بعض الآيات الدالة عليها أثنىٰ الله بها علىٰ إبراهيم، وبين أنها حجة الله آتاها نبيه إبراهيم؛ كما قال تعالىٰ: ﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَا

آتيناها إبراهيم على قومه نرفع درجات من نشاء..﴾ الآية [الأنعام: ٨٣]، وقال تعالى: ﴿وحاجه قومه قال أتحاجوني في الله وقد هدان...﴾ الآية [الأنعام: ٨٠]، وكون الآيات المذكورة واردة في محاجته لهم المذكورة في سورة «الأنعام» لا ينافي ما ذكرنا؛ لأن أصل المحاجة في شيء واحد وهو توحيد الله جل وعلا، وإقامة الحجة القاطعة على أنه لا معبود إلا هو وحده جل وعلا في سورة «الأنعام» وفي غيرها. والعلم عند الله تعالى.

* * *

س: اذكر بعض الآيات الدالة على أن الكفار المعذبين يوم القيامة يكونون أولياء للشياطين.

ج: على ذلك جملة أدلة، منها:

قول الخليل إبراهيم عليه السلام: ﴿يا أبت إني أخاف أن يمسك عذاب من الرحمن فتكون للشيطان وليا﴾.

وقوله تعالى: ﴿تالله لقد أرسلنا إلى أمم من قبلك فزين لهم الشيطان أعمالهم فهو وليهم اليوم ولهم عذاب أليم﴾ [النحل: ٦٣].

وقوله: ﴿فقاتلوا أولياء الشيطان إن كيد الشيطان كان ضعيفا﴾ [النساء: ٧٦].

وقوله تعالى: ﴿إنهم اتخذوا الشياطين أولياء من دون الله ويحسبون أنهم مهتدون﴾ [الأعراف: ٣٠].

وقوله تعالى: ﴿إنما ذلكم الشيطان يخوف أولياءه فلا تخافوهم وخافون إن كنتم مؤمنين﴾ [آل عمران: ١٧٥].

* * *

س: وضح معنى قول الخليل إبراهيم عليه السلام لأبيه: ﴿يَا أَبَتِ إِنِّي أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِّنَ الرَّحْمَنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيًّا﴾.

ج: قال الطبري رحمه الله تعالى في معنى ذلك:

يقول: يا أبت إني أعلم أنك إن متّ على عبادة الشيطان أنه يمسك عذاب من عذاب الله: ﴿فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيًّا﴾ يقول: تكون له وليًّا دون الله، ويتبرأ الله منك، فتهلك. والخوف في هذا الموضع بمعنى العلم، كما الخشية بمعنى العلم، في قوله: ﴿فَخَشِينَا أَن يُرْهِقَهُمَا طُغْيَانًا وَكُفْرًا﴾ [الكهف: ٨٠].

وقال الحافظ ابن كثير رحمه الله تعالى: ﴿يَا أَبَتِ إِنِّي أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِّنَ الرَّحْمَنِ﴾ أي: على شركك وعصيانك لما أمرك به: ﴿فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيًّا﴾ يعني: فلا يكون لك مولًى ولا ناصرًا ولا مغيثًا إلا إبليس، وليس إليه ولا إلى غيره من الأمر شيء، بل اتباعك له موجب لإحاطة العذاب بك، كما قال تعالى: ﴿تَاللهِ لَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَى أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَهُوَ وَلِيُّهُمُ الْيَوْمَ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [النحل: ٦٣].

* * *

س: ما المراد بقوله: ﴿لَأَرْجُمَنَّكَ﴾؟

ج: من العلماء من قال: إن المراد بالرجم هنا السباب والقول القبيح أي: لأرمينك ولأقذفنك بالسباب والشتم والقول القبيح.

وقال آخرون من أهل العلم: المراد بالرجم هنا الرجم بالحجارة، والله تعالى أعلم.

قال الحافظ ابن كثير رحمه الله:

﴿أَرَاغِبٌ أَنتَ عَنْ آلِهَتِي يَا إِبْرَاهِيمُ﴾ يعني: إن كنت لا تريد عبادتها ولا ترضاها، فانته عن سبها وشتمها وعيبها، فإنك إن لم تنته عن ذلك اقتصصت منك وشتمتك وسببتك، وهو قوله: ﴿لَأَرْجُمَنَّكَ﴾.

* * *

س: هل يجوز ابتداء الكافر بالسلام؟

ج: لا يجوز ابتداء الكافر بالسلام، وقد قال الله تعالىٰ: ﴿وَالسَّلَامُ عَلَىٰ مَنِ اتَّبَعَ الْهُدَىٰ﴾ [طه:٤٧]، وقال نبيه ﷺ: «لا تبدءوا اليهود والنصارى بالسلام».

* * *

س: وضح المعنى الإجمالي لقوله: ﴿أَرَاغِبٌ أَنتَ عَنْ آلِهَتِي يَا إِبْرَاهِيمُ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ وَاهْجُرْنِي مَلِيًّا﴾ مع بيان ما فيه من الفوائد.

ج: قال الشنقيطي رحمه الله تعالى في «أضواء البيان»:

بين الله جل وعلا في هاتين الآيتين الكريمتين: أن إبراهيم لما نصح أباه النصيحة المذكورة مع ما فيها من الرفق واللين، وإيضاح الحق والتحذير من عبادة ما لا يسمع ولا يبصر ومن عذاب الله تعالىٰ وولاية الشيطان ـ خاطبه هذا الخطاب العنيف، وسماه باسمه ولم يقل له: «يا بني» في مقابلة قوله له: «يا أبت».

وأنكر عليه أنه راغب عن عبادة الأوثان أي معرض عنها لا يريدها؛ لأنه لا يعبد إلا الله وحده جل وعلا.

وهدده بأنه إن لم ينته عما يقوله له ليرجمنه (قيل: بالحجارة وقيل: باللسان شتمًا) والأول: أظهر.

ثم أمره بهجره مليًّا أي زمانًا طويلاً، ثم بين أن إبراهيم قابل أيضًا جوابه العنيف بغاية الرفق واللين في قوله: ﴿قَالَ سَلامٌ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي﴾ الآية.

وخطاب إبراهيم لأبيه الجاهل بقوله: ﴿سَلامٌ عَلَيْكَ﴾ قد بين جل وعلا أنه خطاب عباده المؤمنين للجهال إذا خاطبوهم، كما قال تعالى: ﴿وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلامًا﴾ [الفرقان: ٦٣]، وقال تعالى: ﴿وَإِذَا سَمِعُوا اللَّغْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ وَقَالُوا لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ سَلامٌ عَلَيْكُمْ لا نَبْتَغِي الْجَاهِلِينَ﴾ [القصص: ٥٥] وما ذكره تعالى هنا من أن إبراهيم لما أقنع أباه بالحجة القاطعة، قابله أبوه بالعنف والشدة ـ بين في مواضع أخر أنه هو عادة الكفار المتعصبين لأصنامهم، كلما أفحموا بالحجة القاطعة لجئوا إلى استعمال القوة، كقوله تعالى عن إبراهيم لما قال له الكفار عن أصنامهم: ﴿ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَؤُلاءِ يَنطِقُونَ﴾ [الأنبياء: ٦٥] قال: ﴿أُفٍّ لَّكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ أَفَلا تَعْقِلُونَ﴾ [الأنبياء: ٦٧] فلما أفحمهم بهذه الحجة لجئوا إلى القوة، كما قال تعالى عنهم: ﴿قَالُوا حَرِّقُوهُ وَانصُرُوا آلِهَتَكُمْ إِن كُنتُمْ فَاعِلِينَ﴾ [الأنبياء: ٦٨]. ونظيره قوله تعالى عن قوم إبراهيم: ﴿فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلاَّ أَن قَالُوا اقْتُلُوهُ أَوْ حَرِّقُوهُ فَأَنجَاهُ اللَّهُ مِنَ النَّارِ﴾ [العنكبوت: ٢٤] الآية، وقوله عن قوم لوط لما أفحمهم بالحجة: ﴿فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلاَّ أَن قَالُوا أَخْرِجُوا آلَ لُوطٍ مِّن قَرْيَتِكُمْ...﴾ [النمل: ٥٦] الآية إلى غير ذلك من الآيات.

* * *

س: وضح معنى قوله: ﴿سَلامٌ عَلَيْكَ﴾.

ج: المعنى والله تعالى أعلم، كما قدمناه أمان مني لك فلن يلحقك مني أذى ولن ينالك مني مكروه، فأنت أبي.

قال القرطبي رحمه الله:

قوله تعالى: ﴿قَالَ سَلامٌ عَلَيْكَ﴾ لم يعارضه إبراهيم عليه السلام بسوء الرد؛ لأنه لم يؤمر بقتاله على كفره.

والجمهور: على أن المراد بـ «سلامه»: المسالمة التي هي المتاركة لا التحية؛

قال الطبري: معناه أمنة مني لك.

* * *

س: إذن فكيف قال إبراهيم لأبيه ﴿سَلامٌ عَلَيْكَ﴾؟

ج: جواب ذلك كما بيناه من قبل أن قوله ﴿سَلامٌ عَلَيْكَ﴾ معناه أمانٌ مني لك والله أعلم.

* * *

س: كيف وعد إبراهيم أباه بالاستغفار له، وأبوه كان مشركًا والله يقول: ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَن يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُولِي قُرْبَى..﴾ [التوبة: ١١٣]؟

ج: وعد إبراهيم أباه بالاستغفار له قبل أن يتبين له أن أباه عدو لله، قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ اسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لأَبِيهِ إِلاَّ عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لأَوَّاهٌ حَلِيمٌ﴾ [التوبة: ١١٤].

وقد قال تعالى: ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَآءُ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّى تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحْدَهُ إِلاَّ قَوْلَ إِبْرَاهِيمَ لأَبِيهِ لأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ وَمَا أَمْلِكُ لَكَ مِنَ اللَّهِ مِن شَيْءٍ رَّبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ﴾ [الممتحنة: ٤] فليس لنا أن نتأسى بإبراهيم عليه السلام في قوله لأبيه المشرك لأستغفرن لك..

وقد قال النبي ﷺ: «استأذنت ربي أن أزور قبر أمي فأذن لي فاستأذنته أن أستغفر لها فلم يأذن لي»(١).

* * *

س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿عَسَى أَلاَّ أَكُونَ بِدُعَاءِ رَبِّي شَقِيًّا﴾.

ج: المعنى، والله تعالى أعلم؛ عسى أن لا يشقيني ربي بالرد والحرمان فإن المحروم الذي ردَّ دعاؤه يشقى بهذا الرد والحرمان.

قال الطبري رحمه الله تعالى: ﴿عَسَى أَلاَّ أَكُونَ بِدُعَاءِ رَبِّي شَقِيًّا﴾: عسى أن لا أشقى بدعاء ربي، ولكن يجيب دعائي ويعطيني ما أسأله.

* * *

س: قول الخليل عليه السلام ﴿وَأَدْعُو رَبِّي﴾ ما معناه؟

ج: من العلماء من قال: إن الدعاء هنا بمعنى العبادة، فقوله: ﴿وَأَدْعُو

---

(١) أخرجه مسلم (٩٧٦).

رَبِّي﴾ أي: أعبد ربي، وذلك بدليل قوله تعالىٰ: ﴿فَلَمَّا اعْتَزَلَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللهِ﴾.

ومن العلماء من قال إن قوله: ﴿وَأَدْعُو رَبِّي﴾ أي أسأل ربي أن يرزقني بالذرية الصالحة يعوضني بها ما فاتني من صحبة قومي، ويؤنسني بها من وحشتي وغربتي مع قومي، فاستجاب الله له ذلك إذ قال ﴿فَلَمَّا اعْتَزَلَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللهِ وَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَكُلاً جَعَلْنَا نَبِيًّا﴾.

قال القرطبي رحمه الله:

قيل: أراد بهذا الدعاء أن يهب الله تعالىٰ له أهلاً وولدًا يتقوىٰ بهم حتىٰ لا يستوحش بالاعتزال عن قومه.

ولهذا قال: ﴿فَلَمَّا اعْتَزَلَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللهِ وَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ﴾ أي آنسنا وحشته بولد؛ عن ابن عباس وغيره.

وقيل: ﴿عَسَىٰ﴾ يدل علىٰ أن العبد لا يقطع بأنه يبقىٰ علىٰ المعرفة أم لا في المستقبل.

وقيل: دعا لأبيه بالهداية. فـ﴿عسىٰ﴾ شك لأنه كان لا يدري هل يستجاب له فيه أم لا؟ والأول أظهر.

* * *

س: من ترك شيئًا لله عوَّضه الله خيرًا منه وضح ذلك من قصة إبراهيم عليه السلام.

ج: إيضاحه أن إبراهيم عليه السلام لما اعتزل قومه واعتزل ما يعبدون من دون الله، منَّ الله عليه بنبي كريم وهو إسحاق عليه السلام ثم من هذا النبي

نبي آخر وهو يعقوب عليه السلام.

قال الطبري رحمه الله:

يقول تعالىٰ ذكره: فلما اعتزل إبراهيم قومه وعبادة ما كانوا يعبدون من دون الله من الأوثان آنسنا وحشته من فراقهم، وأبدلناه منهم بمن هو خير منهم وأكرم علىٰ الله منهم، فوهبنا له ابنه إسحاق، وابن ابنه يعقوب بن إسحاق ﴿وَكُلاًّ جَعَلْنَا نَبِيًّا﴾ يقول: وجعلناهم كلهم، يعني بالكل إبراهيم وإسحاق ويعقوب أنبياء، وقال تعالىٰ ذكره: ﴿وَكُلاًّ جَعَلْنَا نَبِيًّا﴾ فوحَّد، ولم يقل أنبياء، لتوحيد لفظ كل.

قال الحافظ ابن كثير رحمه الله تعالى:

يقول تعالىٰ: ﴿فَلَمَّا اعْتَزَلَهُمْ﴾ الخليل أباه وقومه في الله، أبدله الله من هو خير منهم، وهب له إسحاق ويعقوب، يعني ابنه وابن إسحاق، كما قال في الآية الأخرىٰ: ﴿وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً﴾ [الأنبياء: ٧٢] وقال: ﴿وَمِن وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ﴾ [هود: ٧١] ولا خلاف أن إسحاق والد يعقوب، وهو نص القرآن في سورة البقرة: ﴿أَمْ كُنتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنْ بَعْدِي قَالُوا نَعْبُدُ إِلَهَكَ وَإِلَهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ﴾ [البقرة: ١٣٣] ولهذا إنما ذكر هاهنا إسحاق ويعقوب، أي جعلنا له نسلاً وعقبًا أنبياء، أقر الله بهم عينه في حياته، ولهذا قال: ﴿وَكُلاًّ جَعَلْنَا نَبِيًّا﴾ فلو لم يكن يعقوب قد نبئ في حياة إبراهيم، لما اقتصر عليه، ولذكر ولده يوسف؛ فإنه نبي أيضًا، كما قال رسول الله ﷺ في الحديث المتفق علىٰ صحته(١)، حين سئل عن خير الناس، فقال: «يوسفُ نبي الله، ابنُ يعقوبَ

---

(١) البخاري (٤٦٨٩) ومسلم (٢٣٧٨).

نبي الله، ابنِ إسحاقَ نبي الله، ابنِ إبراهيمَ خليل الله» وفي اللفظ الآخر: «إن الكريم ابن الكريمَ ابنِ الكريم ابنِ الكريم: يوسف بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم»[1] .

* * *

س: قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيًّا﴾؟ إجابة لدعوة دعا بها إبراهيم عليه السلام، وضح هذه الدعوة.

ج: هذه الدعوة هي قوله: ﴿وَاجْعَل لِّي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الآخِرِينَ﴾ [الشعراء: ٨٤] .

* * *

س: اذكر بعض صور الثناء الحسن على إبراهيم عليه السلام وذريته.

ج: من ذلك ما يلي:

قولنا في التشهد: كما صليت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم.

وكذا: كما باركت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم.

وفي أذكار الصباح والمساء: أصبحنا على فطرة الإسلام وكلمة الإخلاص وعلى دين نبينا محمد ﷺ وعلى ملة أبينا إبراهيم حنيفًا وما كان من المشركين.

---

(١) البخاري (٣٣٨٢).

وآيات كثيرة جدًا ذكرتها مع الأحاديث في «التسهيل» (سورة البقرة) عند قوله تعالى: ﴿إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا﴾ [البقرة: ١٢٤] فارجع إليها إن شئت.

* * *

س: لماذا وصف لسان الصدق بأنه عَلِيٌّ؟

ج: قال الطبري رحمه الله تعالى:

وإنما وصف جل ثناؤه اللسان الذي جعل لهم بالعلو، لأن جميع أهل الملل تحسن الثناء عليهم.

* * *

ذكر موسى عليه السلام وذكر أنبياء آخرين

﴿ وَٱذۡكُرۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ مُوسَىٰٓۚ إِنَّهُۥ كَانَ مُخۡلَصٗا وَكَانَ رَسُولٗا نَّبِيّٗا ﴿٥١﴾
وَنَٰدَيۡنَٰهُ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ ٱلۡأَيۡمَنِ وَقَرَّبۡنَٰهُ نَجِيّٗا ﴿٥٢﴾ وَوَهَبۡنَا لَهُۥ مِن
رَّحۡمَتِنَآ أَخَاهُ هَٰرُونَ نَبِيّٗا ﴿٥٣﴾ وَٱذۡكُرۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ إِسۡمَٰعِيلَۚ إِنَّهُۥ كَانَ
صَادِقَ ٱلۡوَعۡدِ وَكَانَ رَسُولٗا نَّبِيّٗا ﴿٥٤﴾ وَكَانَ يَأۡمُرُ أَهۡلَهُۥ بِٱلصَّلَوٰةِ
وَٱلزَّكَوٰةِ وَكَانَ عِندَ رَبِّهِۦ مَرۡضِيّٗا ﴿٥٥﴾ وَٱذۡكُرۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ إِدۡرِيسَۚ
إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقٗا نَّبِيّٗا ﴿٥٦﴾ وَرَفَعۡنَٰهُ مَكَانًا عَلِيًّا ﴿٥٧﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ
أَنۡعَمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِن ذُرِّيَّةِ ءَادَمَ وَمِمَّنۡ حَمَلۡنَا مَعَ نُوحٖ
وَمِن ذُرِّيَّةِ إِبۡرَٰهِيمَ وَإِسۡرَٰٓءِيلَ وَمِمَّنۡ هَدَيۡنَا وَٱجۡتَبَيۡنَآۚ إِذَا تُتۡلَىٰ عَلَيۡهِمۡ
ءَايَٰتُ ٱلرَّحۡمَٰنِ خَرُّواْۤ سُجَّدٗاۤ وَبُكِيّٗا۩ ﴿٥٨﴾ ۞ فَخَلَفَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡ
خَلۡفٌ أَضَاعُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱتَّبَعُواْ ٱلشَّهَوَٰتِۖ فَسَوۡفَ يَلۡقَوۡنَ غَيًّا
﴿٥٩﴾ إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحٗا فَأُوْلَٰٓئِكَ يَدۡخُلُونَ ٱلۡجَنَّةَ
وَلَا يُظۡلَمُونَ شَيۡـٔٗا ﴿٦٠﴾ جَنَّٰتِ عَدۡنٍ ٱلَّتِي وَعَدَ ٱلرَّحۡمَٰنُ عِبَادَهُۥ
بِٱلۡغَيۡبِۚ إِنَّهُۥ كَانَ وَعۡدُهُۥ مَأۡتِيّٗا ﴿٦١﴾ لَّا يَسۡمَعُونَ فِيهَا لَغۡوًا إِلَّا سَلَٰمٗاۖ

وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيًّا ﴿٦٢﴾ تِلْكَ ٱلْجَنَّةُ ٱلَّتِي نُورِثُ مِنْ
عِبَادِنَا مَن كَانَ تَقِيًّا ﴿٦٣﴾ وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ لَهُۥ مَا بَيْنَ
أَيْدِينَا وَمَا خَلْفَنَا وَمَا بَيْنَ ذَٰلِكَ وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا ﴿٦٤﴾
رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَٱعْبُدْهُ وَٱصْطَبِرْ لِعِبَٰدَتِهِۦ
هَلْ تَعْلَمُ لَهُۥ سَمِيًّا ﴿٦٥﴾ ﴾

س: اذكر معنى ما يلي:

مُخلصًا ـ قربناه نجيًّا ـ من رحمتنا ـ صادق الوعد ـ مرضيًّا ـ اجتبينا ـ خروا ـ بكيًّا ـ خلفٌ ـ الشهوات ـ غيًّا ـ عمل صالحًا ـ لا يظلمون شيئًا ـ جنات ـ عدن ـ بالغيب ـ وعده ـ مأتيًّا ـ لغوًا ـ سلامًا ـ بكرة ـ عشيًّا ـ تلك الجنة ـ تقيًّا ـ ما بين أيدينا ـ وما خلفنا ـ وما بين ذلك ـ واصطبر لعبادته ـ سميًّا.

ج:

الكلمة	معناها
﴿ مُخْلَصًا ﴾	أخلصه الله واصطفاه.

الكلمة	معناها
﴿ وَقَرَّبْنَاهُ نَجِيًّا ﴾	قربناه وناجيناه(١) ـ كلمناه من غير وحي .
﴿ مِن رَّحْمَتِنَا ﴾	أي من رحمتنا به لما سألنا فقال : ﴿ واجعل لي وزيراً من أهلي ﴾ من نعمتنا عليه .
﴿ صَادِقَ الْوَعْدِ ﴾	لا يخلف وعده ولا يكذب فيه إذا وعد ربَّه وعداً وفى وإذا وعد العباد وفى .
﴿ وَاجْتَبَيْنَا ﴾	اخترنا ـ اصطفينا .
﴿ خَرُّوا ﴾	نزلوا بسرعة ـ هَوَوا للسجود .
﴿ وَبُكِيًّا ﴾	باكين (جمع باكٍ) .
﴿ فَخَلَفَ ﴾	خلف سوء ـ جيل ـ أولاد طالحون .
﴿ الشَّهَوَاتِ ﴾	الشهوات ما يوافق الإنسان ويشتهيه ويلائمه ولا يتقيه والمراد شهوات النفس المحرمة . (ما تشتهيه النفس من الحرام) .
﴿ غَيًّا ﴾	قيل وادٍ في جهنم ـ وقيل بئر من آبارها ـ وقيل خسراناً ـ وقيل شراً .
﴿ وَعَمِلَ صَالِحًا ﴾	أقام ما أمره الله به وأدَّاه واجتنب ما حذره الله منه ونهاه .
﴿ وَلَا يُظْلَمُونَ شَيْئًا ﴾	لا يبخسون ـ لا يُنقصون من حقوقهم شيئًا أي : لا ينقص من أعمالهم الصالحة شيءٌ .
﴿ جَنَّاتِ ﴾	بساتين .
﴿ عَدْنٍ ﴾	إقامةٍ .

(١) وصح عن ابن عباس رضي الله عنهما (عند الطبري) أنه قال ﴿وقربناه نجيًّا﴾ قال : أُدني حتى سمع صريف القلم .
قال بعض العلماء : أي صريف القلم بكتابة التوراة .

الكلمة	معناها
﴿ بِالْغَيْبِ ﴾	أي وهي غائبة عن أعينهم لم يروها فهي غيب بالنسبة لهم .
﴿ وَعْدُهُ ﴾	موعوده .
﴿ مَأْتِيًّا ﴾	يأتيه أولياؤه وأهل طاعته .
﴿ لَغْوًا ﴾	باطلاً ـ كلامًا لا فائدة فيه ـ الهْذي من القول والكلام .
﴿ سَلامًا ﴾	قول سلام عليكم ـ (وهي تحية الملائكة لهم) ـ قولاً طيبًا .
﴿ بكرة وعشيًا ﴾	وقت البكور . ﴿ وعشيًّا ﴾ وقت العشي .
﴿ تِلْكَ الْجَنَّةُ ﴾	هذه الجنة التي وصفتها لكم .
﴿ تَقِيًّا ﴾	متقيًا عذاب الله ، وذلك بأداء فرائضه واجتناب محارمه .
﴿ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا ﴾[1]	علم ما بين أيدينا من أمر الدنيا ـ ما بقي من آجالنا ـ وقيل : ﴿ما بين أيدينا﴾ أي ما أمامنا من الأمور سواء من أمر الدنيا أم من أمر الآخرة .
﴿ وَمَا خَلْفَنَا ﴾	قيل : أمور الآخرة ، وقيل : ما فعلناه في دنيانا .
﴿ وَمَا بَيْنَ ذَلِكَ ﴾	وما بين النفختين .
﴿ وَاصْطَبِرْ لِعِبَادَتِهِ ﴾	اصبر نفسك على امتثال أمره واجتناب نهيه ، والعمل بطاعته .
﴿ سَمِيًّا ﴾	مثيلاً[2] في كرمه وجوده ـ شبيهًا .

(١) الطبري رحمه الله (٣٦٠ ـ ٣٦١) .

(٢) صح عن قتادة (طب ٢٣٨٢٤) .

س: في قوله تعالى: ﴿ مُخْلَصًا ﴾ قراءتان وضحهما مع بيان معنى كلٍّ منها.

ج: القراءتان أولهما: (مخلِصًا) بكسر اللام من المُخْلِص، أي: أنه كان يُخلِص لله العبادة، ويوحده ويُفرده بالألوهية من غير أن يجعل له فيها شريكًا، أي: أنه مخلِصًا في عبادته غير مُراء.

والقراءه الثانية (مُخلَصًا) بفتح اللام، أي: أن الله عزَّ وجل أخلصه واصطفاه لرسالته، وجعله نبيًّا مُرسلاً.

(ذكر ذلك الطبري رحمه الله في تفسيره)، وقال رحمه الله: فبأيتهما قرأ القارئ فمصيب الصواب.

وقال الشنقيطي في «أضواء البيان»:

اعلم أن في قوله: ﴿ مُخْلَصًا ﴾ قراءتين سبعيتين: قرأه عاصم وحمزة والكسائي بفتح اللام بصيغة اسم المفعول، والمعنى على هذه القراءة أن الله استخلصه واصطفاه: ويشهد لهذا المعنى قوله تعالى: **﴿قَالَ يَا مُوسَى إِنِّي اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ بِرِسَالاتِي وَبِكَلامِي...﴾** [الأعراف: ١٤٤] الآية.

ومما يماثل هذه القراءة في القرآن قوله تعالى: **﴿ إِنَّا أَخْلَصْنَاهُم بِخَالِصَةٍ ذِكْرَى الدَّارِ﴾** [ص: ٤٦] فالذين أخلصهم الله هم المخلصون بفتح اللام، وقرأه نافع وابن كثير وأبو عمرو وابن عامر «مخلصًا» بكسر اللام بصيغة اسم الفاعل؛ كقوله تعالى: **﴿وَمَا أُمِرُوا إِلاَّ لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾** [البينة: ٥]، وقوله تعالى: **﴿ قُلِ اللَّهَ أَعْبُدُ مُخْلِصًا لَّهُ دِينِي.. ﴾** [الزمر: ١٤] الآية.

* * *

س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿وَكَانَ رَسُولاً نَّبِيًّا﴾.

ج: قال الطبري رحمه الله:

﴿وَكَانَ رَسُولاً﴾ يقول: وكان لله رسولاً إلىٰ قومه بني إسرائيل ومن أرسله إليهم نبيًّا.

وقال الحافظ ابن كثير رحمه الله:

﴿وَكَانَ رَسُولاً نَّبِيًّا﴾ جمع الله له بين الوصفين، فإنه كان من المرسلين الكبار أولي العزم الخمسة، وهم: نوح وإبراهيم وموسىٰ وعيسىٰ ومحمد صلوات الله وسلامه عليهم وعلىٰ سائر الأنبياء أجمعين.

* * *

س: ما الفرق بين النداء والمناجاة؟

ج: قال السعدي في تفسيره:

والفرق بين النداء والنجاء أن النداء هو الصوت الرفيع [١]، والنجاء ما دون ذلك.

* * *

س: ما المراد بجانب الطور الأيمن؟

ج: المراد، والله أعلم، يمين موسىٰ، قاله القرطبي، وقال أيضًا: وكانت الشجرة في جانب الجبل عن يمين موسىٰ حين أقبل من مدين إلىٰ مصر، قاله الطبري وغيره، فإن الجبال لا يمين لها ولا شمال.

---

(١) ولعله يقصد بالرفيع المرتفع أي الذي ليس بإسرار، والله أعلم.

س: اذكر بعض الآيات التي أفادت أن قوله تعالى: ﴿ووهبنا له من رحمتنا أخاه هارون نبيا﴾ جاء إجابةً على سؤال موسى ربه أن يعينه بأخيه هارون.

ج: أورد جملة من هذه الآيات الشنقيطي رحمه الله تعالى في «أضواء البيان» حيث قال: قوله تعالى: ﴿ووهبنا له من رحمتنا أخاه هارون نبيا﴾ [مريم: ٥٣]. معنى الآية الكريمة: أن الله وهب لموسى نبوة هارون. والمعنى أنه سأله ذلك فآتاه سؤله.

وهذا المعنى أوضحه تعالى في آيات أخر، كقوله في سورة «طه» عنه: ﴿واجعل لي وزيرا من أهلي ﴿٢٩﴾ هرون أخي ﴿٣٠﴾ اشدد به أزري ﴿٣١﴾ وأشركه في أمري﴾ إلى قوله: ﴿قال قد أوتيت سؤلك يا موسى﴾ [طه: ٢٩: ٣٠]، وقوله في «القصص»: ﴿قال رب إني قتلت منهم نفسا فأخاف أن يقتلون ﴿٣٣﴾ وأخي هرون هو أفصح مني لسانا فأرسله معي ردءا يصدقني إني أخاف أن يكذبون ﴿٣٤﴾ قال سنشد عضدك بأخيك ونجعل لكما سلطانا فلا يصلون إليكما بآياتنا أنتما ومن اتبعكما الغالبون﴾ [القصص: ٣٣-٣٥]، وقوله في سورة «الشعراء»: ﴿وإذ نادى ربك موسى أن ائت القوم الظالمين ﴿١٠﴾ قوم فرعون ألا يتقون ﴿١١﴾ قال رب إني أخاف أن يكذبون ﴿١٢﴾ ويضيق صدري ولا ينطلق لساني فأرسل إلى هرون ﴿١٣﴾ ولهم علي ذنب فأخاف أن يقتلون ﴿١٤﴾ قال كلا فاذهبا بآياتنا إنا معكم مستمعون ﴿١٥﴾ فأتيا فرعون فقولا إنا رسول رب العالمين﴾ [الشعراء: ١٠: ١٦] فهذه الآيات تبين أنه سأل ربه أن يرسل معه أخاه، فأجاب ربه جل وعلا سؤاله في ذلك.

وذلك يبين أن الهبة في قوله: ﴿ووهبنا﴾ هي في الحقيقة واقعة على رسالته لا على نفس هارون، لأن هارون أكبر من موسى، كما قاله أهل التاريخ.

شيء من الحديث عن إسماعيل عليه السلام

س: اذكر بعض التعريف بنبي الله إسماعيل عليه السلام.

ج: هو نبي الله ورسوله إسماعيل ابن خليل الله إبراهيم عليهما السلام رُزق به الخليل إبراهيم عليه السلام على الكبر، كما قال ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى الْكِبَرِ إِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ الدُّعَاءِ﴾ [إبراهيم: ٣٩].

وأما أمه فهي هاجر عليها السلام.

كان يرفع القواعد من البيت هو وأبوه إبراهيم عليه السلام كما قال تعالى: ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ [البقرة: ١٢٧].

ثم إنه الذبيح الذي فداه الله بذبحٍ عظيم، ثم هو صادق الوعد ورسول نبي كريم كان يأمر أهله بالصلاة والزكاة وكان عند ربِّه مرضيًا.

وهذا بعض شأنه، وشأن أمِّه كما قد ورد في «صحيح البخاري» عن ابن عباس رضي الله عنهما(١) :

«أوَّلُ ما اتخذَ النساءُ المنطقَ منْ قبل أمِّ إسماعيلَ اتخذتْ منطقًا لتعفِّيَ أثرها على سارةَ، ثمَّ جاءَ بها إبراهيم وبابنها إسماعيلَ - وهي ترضعُهُ - حتى وضعها عند البيت عند دوحةٍ فوْقَ زمزم في أعلى المسجد وليس بمكَّة يومئذٍ

(١) البخاري (٣٣٦٤).

أحدٌ، وليس بها ماءٌ فوضعهما هنالك، ووضع عندهما جرابًا فيه تمرٌ وسقاءً فيه ماءٌ، ثمَّ قفَّىٰ إبراهيم منطلقًا، فتبعته أمُّ إسماعيلَ فقالتْ: يا إبراهيم أين تذهبُ وتتركنا بهذا الوادي الذي ليس فيه إنسٌ ولا شيءٌ؟ فقالتْ له ذلك مرارًا، وجعلَ لا يلتفتُ إليها. فقالت له: آلله أمركَ بهذا؟ قال: نعمْ. قالتْ: إذنْ لا يضيعنا. ثم رجعتْ. فانطلق إبراهيم حتىٰ إذا كان عند الثنية حيثُ لا يرونه استقبل بوجهه البيتَ ثمَّ دعا بهؤلاء الكلمات ورفعَ يديه فقال: ﴿ رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ ـ حتىٰ بلغ ـ يَشْكُرُونَ ﴾ [إبراهيم: ٣٧].

وجعلتْ أمُّ إسماعيلَ ترْضعُ إسماعيلَ وتشربُ من ذلكَ الماءِ، حتىٰ إذا نفد ما في السِّقاءِ عطشَت وعطشَ ابنها، وجعلتْ تنظُرُ إليْه يتلَوَّىٰ ـ أوْ قالَ: يتلَبَّط ـ فانطلقت كراهية أن تنظر إليه؛ فوجد الصفا أقرب جبل في الأرض يليها فقامت عليه ثم استقبلت الوادي تنظُرُ هلْ ترىٰ أحدًا، فلمْ ترَ أحدًا، فهَبطَتْ من الصَّفَا، حتىٰ إذا بلغَت الوادي رَفَعَتْ طرْفَ ذراعها، ثمَّ سعَتْ سعْيَ الإنسانِ المجهُود حتىٰ جاوَزَت الواديَ، ثمَّ أتت المروةَ فقامَتْ عليها فنظرتْ هلْ تَرَىٰ أحدًا؛ فلَمْ ترَ أحدًا، ففعَلَتْ ذلك سبْعَ مرّاتٍ.

قال ابنُ عباسٍ قال النَّبيُّ ﷺ: «فذلك سعْي النَّاس بينهما». فلمَّا أشرفت علىٰ المرْوَة سمعتْ صوتًا فقالتْ: صهٍ ـ تُريدُ نفْسَهَا ـ ثمَّ تسمعتْ أيضًا فقالتْ: قدْ أسمعتَ إنْ كانَ عندكَ غواثٌ، فإذا هيَ بالملك عندَ موضع زمزمَ، فبحثَ بعقبه ـ أو قال بجناحه ـ حتىٰ ظهرَ الماءُ، فجعلتْ تحوضُهُ وتقولُ بيدهَا هكذا، وجعلَت تغرِفُ من الماءِ في سقائهَا وهو يفورُ بعدَ ما تغرف.

قال ابنُ عبَّاس قال النبيُّ ﷺ: «يرْحَمُ اللهُ أمَّ إسماعيلَ لوْ تركَتْ زمْزَمَ ـ أوْ

قال: لَوْ لَمْ تغرِفْ من الماءِ ـ لكانتْ زمزمُ عينًا معينًا».

قال فشربتْ وأرضعت ولدهَا، فقال لها الملكُ: لا تخافُوا الضيعةَ، فإنَّ ها هُنَا بيْتَ الله يبْني هذا الغلام وأبُوهُ، وإنَّ الله لا يضيِّعُ أهْلَهُ.

وكان البيتُ مرتفعًا من الأرض كالرَّابية، تأتيه السُّيُولُ فتأْخُذُ عنْ يمينه وشماله، فكانتْ كذلك حتَّىٰ مرَّتْ بهمْ رِفْقَةٌ منْ جُرْهُمٍ ـ أوْ أهْلُ بيْتٍ من جُرْهُمٍ ـ مُقْبلين منْ طريقِ كداء، فنزلوا في أسفَل مكَّةَ، فرأوْا طائرًا عائفًا، فقالوا: إنَّ هذا الطائرَ ليَدُورُ علَىٰ مَاءٍ، لعهْدُنَا بهذَا الوادي وما فيه ماءٌ، فأرسلوا جريًّا أوْ جريين فإذا هُمْ بالماءِ، فرجعوا فأخبروهم بالماءِ، فأقبلُوا ـ قال: وأمُّ إسماعيلَ عندَ الماءِ ـ فقالوا: أتأذنينَ لنا أنْ ننْزِلَ عندكَ؟ فقالَتْ: نَعَمْ، ولكنْ لا حقَّ لكمْ في الماءِ.

قالوا: نعَمْ. قال ابنُ عباسٍ قال النبيُّ ﷺ: «**فألفَى ذلك أمَّ إسماعيلَ وهيَ تُحبُّ الإنس**»، فنزلوا، وأرسلوا إلىٰ أهليهمْ فنزلُوا معهُمْ، حتَّىٰ إذا كانَ بها أهْلُ أبيَاتٍ منْهُمْ، وشبَّ الغُلاَمُ وتعلَّمَ العربيةَ منْهُمْ، وأنفسهم وأعجبهم حين شبَّ، فلمَّا أدركَ زوَّجُوهُ امرأةً منهمْ. وماتتْ أمُّ إسماعيلَ، فجاءَ إبراهيمُ بعْدَ ما تَزَوَّجَ إسماعيلُ يطالعُ تركتهُ، فلمْ يجدْ إسماعيلَ، فسَألَ امرأتَهُ عنْهُ فقالتْ: خَرجَ يبتغي لَنَا، ثمَّ سألهَا عنْ عيشهمْ وهيْئتهم فقالتْ: نحنُ بشرٍّ، نحنُ في ضيقٍ وشدَّة. فشكتْ إليه. قال: فإذا جاء زوجكِ فاقرئي عليه السلام وقولي له يغيرْ عتبة بابه.

فلمَّا جاء إسماعيلُ كأنَّهُ آنس شيئًا فقال: هل جاءكمْ من أحدٍ؟ قالتْ: نعمْ، جاءَنَا شيْخٌ كذا وكذا، فسألنَا عنكَ فأخبرته، وسألني كيف عيشنا، فأخبرته أنَّا في جهدٍ وشدَّة.

قال: فهلْ أوصاكِ بشيءٍ؟ قالتْ: نعمْ، أمرني أنْ أقرأ عليك السَّلامَ،

ويقولُ: غيِّرْ عتبَةَ بابكَ.

قال: ذاكَ أبي، وقدْ أمرني أنْ أفارقَكِ، الحَقي بأهْلِكِ. فطلَّقَها، وتزوَّجَ منهم أخرىٰ.

فلبث عنهم إبراهيم ما شاء الله، ثمَّ أتاهمْ بعدُ فلمْ يجدهُ، فدخَلَ علىٰ امرأته فسألها عنهُ فقالتْ: خرَجَ يبتغي لنا. قال: كيفَ أنْتُم؟ وسألها عن عيشهمْ وهيئتهم. فقالت: نحنُ بخيرٍ وسعَة، وأثْنَتْ علىٰ اللهِ. فقال: ما طَعَامُكُمْ؟ قالت: اللحم، قال فما شرابكم؟ قالتْ: الماءُ. قال: اللهمَّ باركْ لهمْ في اللحْمِ والماءِ.

قال النبيُّ ﷺ: «**ولمْ يكن لهمْ يومئذ حب، ولوْ كان لهمْ دعا لهمْ فيه**»، قال: فَهُمَا لا يخْلُوا عليهمَا أحدٌ بغير مكَّةَ إلا لمْ يوافقاهُ.

قال: فإذا جاء زوجُكِ فاقْرَئي عليهِ السلامَ، ومريهِ يُثْبتُ عتبَةَ بابه.

فلمَّا جاء إسماعيلُ قال: هلْ أتاكُمْ من أحدٍ؟ قالتْ: نعمْ، أتانا شيخٌ حسَنُ الهيْئة - وأثْنَتْ علَيْه - فسألني عنكَ فأخبرتُهُ، فسألَني كيفَ عيشُنَا فأخبرتهُ أنَّا بخيرٍ.

قال: فأوْصاك بشيءٍ؟ قالتْ: نعمْ، هو يقْرأُ عليك السَّلامَ، ويأمُرُكَ أنْ تثبت عتبة بابك. قال: ذاك أبي، وأنت العتبةُ، أمرني أنْ أمْسككِ. ثمَّ لبث عنْهُمْ ما شاء الله، ثمَّ جاءَ بعدَ ذلك وإسماعيلُ يبْري نبْلاً له تحتَ دوحةٍ قريبًا من زمزمَ، فلمَّا رآهُ قامَ إليْه، فصنَعا كمَا يصْنعُ الوالدُ بالولَد والولَدُ بالوالد. ثمَّ قال: يا إسماعيلُ، إنَّ الله أمرني بأمر. قال: فاصنعْ ما أمرك ربُّكَ. قال وتُعينُني؟ قال: وأُعينكَ. قال: فإن الله أمرني أن أبْني ها هُنَا بَيْتًا - وأشارَ إلىٰ

أكَمَةٍ مرتَفعَةٍ على ما حولها ـ قال: فعندَ ذلكَ رَفَعا القَواعدَ منَ البيْت، فَجَعَلَ إسماعيلُ يأتي بالحجارة وإبراهيم يبني. حتَّى إذا ارتفعَ البناءُ جاءَ بهذا الحجر فوضعهُ لهُ، فقامَ عليْه وهو يبني وإسماعيلُ يُناولهُ الحجارةَ، وهما يقولان: ﴿رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ [البقرة: ١٢٧] قالَ فَجَعَلا يبْنيان حتَّى يدُورا حوْلَ البيْت وهُمَا يقولانِ: ﴿رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾».

وفي رواية أخرى أشد اختصاراً عند البخاري[1]:

عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: «لَمَّا كانَ بينَ إبراهيمَ وبيْنَ أهْله مَا كانَ خَرَجَ بإسماعيل، ومَعَهُمْ شَنَّةٌ فيها ماءٌ، فجعَلَتْ أمُّ إسماعيلَ تشرَبُ من الشَّنَّة فيدرُّ لبنُها على صبيِّهَا حتَّى قدمَ مكَّةَ فوضعهَا تحتَ دوحةٍ، ثمَّ رجَعَ إبراهيمُ إلى أهْله، فاتبعتْهُ أمُّ إسماعيلَ حتى لَمَّا بلغوا كداء نادتْهُ من ورائه: يا إبراهيم إلى من تترُكُنَا؟ قال: إلى الله. قالتْ: رضيتُ بالله. قال فرجعتْ فجعَلَتْ تشْرَبُ منَ الشَّنَّة ويدرُّ لبنُها علَى صبيِّها، حتى لَمَّا فنى الماءُ قالتْ: لو ذهبْتُ فنظرْتُ لعَلِّي أحسُّ أحداً.

---

(١) البخاري (٣٣٦٥)، وفيما يبدو لي ـ والله أعلم ـ أن البخاري فصلها عن الرواية الأولى لأن الرواية الأولى (٣٣٦٤) كانت من طريق معمر عن أيوب السختياني وكثير بن كثير ابن المطلب بن أبي وداعة يزيد أحدهما على الآخر عن سعيد بن جبير قال ابن عباس.. فذكره.

ورواية معمر عن أيوب فيها كلام.

لكن رواية البخاري (٣٣٦٥) من طريق إبراهيم بن نافع عن كثير بن كثير عن سعيد بن جبير عن ابن عباس... به مختصراً فكان البخاري فصل رواية معمر عن رواية كثير لعلة إسنادية كما هو واضح، والله أعلم.

قال فذهبتْ فصَعدَت الصفا فنظرت ونظرت هَلْ تحسُّ أحداً فلم تُحس أحداً.

فلمَّا بلَغَت الوادي سعتْ وأتت المرْوَةَ، ففَعَلَت ذلك أشْوَاطًا، ثمَّ قالتْ: لوْ ذَهَبْتُ فَنَظَرتُ ما فَعَلَ - تَعْني الصبيَّ - فذهبتْ فنظرتْ فإذا هو على حاله كأنَّهُ ينشغُ للموْت، تقرُّها نفسها، فقالتْ لوْ ذهبتُ فنظرتُ لعلِّي أحسُّ أحداً، فذهبت فصعدت الصفا فنظرت ونظرتْ فلمْ تحسُّ أحداً، حتى أتمَّتْ سبْعًا، ثمَّ قالتْ: لوْ ذهبْتُ فنظرْتُ ما فعلَ، فإذا هي بصوْتٍ، فقالتْ أغِثْ إنْ كان عندكَ خيْرٌ، فإذا جبريلُ، قال فقال بعقبهِ هكذا، وغمزَ عقبهُ على الأرض، قال: فانبثق الماءُ، فدهشتْ أمُّ إسماعيلَ فجعلتْ تحفزُ، قال: فقال أبو القاسم: «لوْ تركتْهُ كانَ الماءُ ظاهراً»، قال: فجعَلَتْ تشْرَبُ من الماءِ ويدرُّ لبنُهَا على صبيِّهَا.

قال فمرّ ناسٌ منْ جرْهُمَ ببطْنِ الوادي فإذا همْ بطَيْرٍ، كأنَّهُمْ أنكروا ذاك، وقالوا: ما يكونُ الطيْرُ إلا على ماءٍ، فبعثوا رسولهمْ فنظرَ، فإذا هُمْ بالماء، فأتاهُمْ فأخبرهُم، فأتوا إليْهَا فقالوا: يا أمَّ إسماعيلَ أتأْذنينَ لنا أنْ نَكُونَ معَكِ، أو نَسكُنَ معكِ؟ فبلغَ ابْنُها فنكحَ فيهم امرأةً.

قال: ثمَّ إنَّهُ بدَا لإبراهيم فقالَ لأهْله: إنِّي مطَّلعٌ تركتي.

قال: فجاء فسلَّمَ فقال: أين إسماعيلُ؟ فقالت امرأتُهُ: ذهبَ يصيدُ. قال: قولي لهُ إذا جاءَ: غيرْ عتبةَ بابكَ. فلمَّا جاءَ أخبرتْهُ، قال أنْت ذاكِ، فاذْهَبي إلى أهْلكِ.

قال: ثمَّ إنَّهُ بَدَا لإبراهيم فقالَ لأهْله: إني مطلعٌ تركتي. قال: فجاءَ

فقَالَ: أيْنَ إسماعيل؟ فقالت امْرَأتهُ: ذَهَبَ يصيدُ، فقالتْ: إلا تنْزلُ فتطعَمَ وتشربَ؟ فقال: وما طعامُكُمْ؟ وما شرابكُمْ؟ قالتْ: طعامُنَا اللحْمُ وشرابُنا الماءُ.

قال: اللهمَّ باركْ لهمْ في طعامهمْ وشرابهمْ.

قال: فقال أبُو القاسمِ ﷺ: «بَرَكةٌ بدَعْوة إبراهيمَ».

قال: ثمَّ إنَّهُ بدا لإبراهيم فقال لأهله: إنِّي مطلعٌ تركتي، فجاءَ فوافقَ إسماعيلَ منْ وراءِ زمزمَ يصْلحُ نبْلاً لهُ، فقالَ: يا إسْمَاعيلُ! إنَّ ربَّكَ أمرَني أنْ أبْنيَ لهُ بيْتًا. قال: أطع ربَّكَ. قال: إنَّهُ أمرَني أنْ تعينني عليه، قال: إذنْ أفْعَلُ أوْ كمَا قال. قال: فقامَا فجعَلَ إبراهيم يبْني وإسماعيلُ يناولُهُ الحجارَةَ، ويقولان: ﴿ربَّنا تقبَّلْ منَّا إنَّكَ أنتَ السَّميعُ الْعليمُ﴾ [البقرة: ١٢٧].

❊ ❊ ❊

س: اذكر ما يوضح صدق إسماعيل عليه السلام في وعده.

ج: من ذلك صدقه في وعده إذ وعَدَ أباه لما قال له ﴿إنِّي أرَى فِي الْمَنَامِ أنِّي أذْبحُكَ فَانظُرْ مَاذَا ترَى﴾ [الصافات: ١٠٢] فقال مجيبًا: ﴿يا أبَتِ افْعلْ مَا تُؤْمَرُ ستَجدُني إن شاءَ اللهُ منَ الصَّابرينَ﴾ [الصافات: ١٠٢] فصبر عليه السلام واستسلم كما قال تعالى: ﴿فلمَّا أسْلمَا وتلَّهُ للْجبينِ (١٠٣) وَنَادَيْنَاهُ أن يَا إبْرَاهِيمُ (١٠٤) قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا..﴾ [الصافات: ١٠٢].

❊ ❊ ❊

بعض الوارد في الحث على الوفاء بالوعد

س: اذكر بعض الوارد في الحث على الوفاء بالوعد والصدق في العهد وبيان فضيلة ذلك.

ج: من ذلك ما يلي:

الثناء الحسن على الموفين بالعهود الصادقين في الوعود، قال تعالى في شأن أولي الألباب ﴿الَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ اللهِ وَلا يَنقُضُونَ الْمِيثَاقَ﴾ [الرعد: ٢٠].

وقال سبحانه في شأن إسماعيل عليه السلام: ﴿إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولاً نَّبِيًّا﴾.

ومن ذلك ثناء النبي ﷺ على أبي العاص بن الربيع وقوله في شأنه «**حدثني فصدقني ووعدني فوفى لي**»[١].

وفي الصحيحين[٢] أن أبا بكر رضي الله عنه قال لما توفي النبي ﷺ: من كانَ لهُ عندَ النَّبيِّ ﷺ عِدَةٌ أوْ دينٌ فَليأتِنَا، فأَتَيْتُهُ فَقُلْتُ: إنَّ النبيَّ ﷺ قال لي: كذا وكذا، فحثَى لي حثْيَةً، فعددْتُها، فإذَا هيَ خَمْسُمائةٍ وَقَالَ: خُذْ مِثْلَيْهَا.

ثم أيضًا قد ورد التحذير من نقض العهد وعدم الصدق في الوعد من عدة

---

(١) انظر البخاري (حديث ٣١١٠) ومسلم (٢٤٤٩).

(٢) البخاري (حديث ٢٢٩٦) ومسلم (حديث ٢٣١٤).

وجوه قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ اللهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللهُ بِهِ أَن يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الأَرْضِ أُوْلَئِكَ لَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ﴾ [الرعد: ٢٥].

وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لا تَفْعَلُونَ ۝ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ اللهِ أَن تَقُولُوا مَا لا تَفْعَلُونَ﴾[الصف: ٢].

وقال النبي ﷺ: «آية المنافق ثلاث: إذا حدث كذب وإذا وعد أخلف وإذا ائتمن خان» (١).

وقد أوردنا طرفًا كبيراً من هذا في تفسير «سورة المائدة» فارجع إليه إن شئت (٢).

* * *

س: هل يلزم الوفاء بالوعد مطلقًا؟

ج: فيما يبدو أن الوفاء بالوعد مطلقًا يلزم، إلا إذا كانت هناك مشقةٌ على من وعد وهو لا يتحمل تلك المشقة أو كان قد وعد وعدًا ثم تبين له أن المصلحة الشرعية في خلافه.

وقد بسط الشيخ العلامة الشنقيطي رحمه الله تعالى القول في ذلك في كتابه «أضواء البيان» حيث قال:

اختلف العلماء في لزوم الوفاء بالعهد؛ فقال بعضهم: يلزم الوفاء به مطلقًا.

---

(١) البخاري (٣٣) ومسلم (٥٩).

(٢) عند قوله تعالى ﴿يا أيها الذين آمنوا أوفوا بالعقود﴾.

وقال بعضهم: لا يلزم مطلقًا.

وقال بعضهم: إن أدخله بالوعد في ورطة لزم الوفاء به، وإلا فلا.

ومثاله ـ ما لو قال له: تزوج، فقال له: ليس عندي ما أصدق به الزوجة.

فقال: تزوج والتزم لها الصداق وأنا أدفعه عنك، فتزوج على هذا الأساس، فإنه قد أدخله بوعده في ورطة التزام الصداق.

واحتج من قال يلزمه: بأدلة منها آيات من كتاب الله دلت بظواهر عمومها على ذلك وبأحاديث.

فالآيات كقوله تعالى: ﴿وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولاً﴾ [الإسراء: ٣٤]، وقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ﴾ [المائدة: ١] الآية، وقوله تعالى: ﴿وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللهِ إِذَا عَاهَدتُّمْ وَلا تَنقُضُوا الأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا﴾ [النحل: ٩١] لآية، وقوله هنا: ﴿إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ﴾ الآية، ونحو ذلك من الآيات والأحاديث.

وأورد بعض الأحاديث المتكلم فيها، ثم قال:

واحتج من قال: بأن الوعد لا يلزم الوفاء به بالإجماع ـ على أن من وعد رجلاً بمال إذا فلس الواعد لا يضرب للموعود بالوعد مع الغرماء، ولا يكون مثل ديونهم اللازمة بغير الوعد، حكى الإجماع على هذا ابن عبدالبر؛ كما نقله عنه القرطبي في تفسير هذه الآية الكريمة، وفيه مناقشة. وحجة من فرق بين إدخاله إياه في ورطة بالوعد فيلزم، وبين عدم إدخاله إياه فيها فلا يلزم أنه إذا أدخله في ورطة بالوعد ثم رجع في الوعد وتركه في الورطة التي أدخله فيها؛ فقد أضر به.

وليس للمسلم أن يضر بأخيه، الحديث «**لا ضرر ولا ضرار**».

وقال أبو عبدالله القرطبي رحمه الله في تفسير هذه الآية: قال مالك: إذا سأل الرجل الرجل أن يهب له الهبة فيقول له: نعم، ثم يبدو له ألا يفعل فما أرىٰ يلزمه، قال مالك: ولو كان ذلك في قضاء دين فسأله أن يقضيه عنه فقال: نعم، وثمَّ رجال يشهدون عليه فما أحراه أن يلزمه إذا شهد عليه اثنان.

وقال أبو حنيفة وأصحابه، والأوزاعي، والشافعي وسائر الفقهاء: إن العدة لا يلزم منها شيء، لأنها منافع لم يقبضها في العارية لأنها طارئة، وفي غير العارية هي أشخاص وأعيان موهوبة لم تقبض فلصاحبها الرجوع فيها.

وفي البخاري: ﴿**وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِسْمَاعِيلَ إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ**﴾ وقضىٰ ابن أشوع بالوعد، وذكر ذلك عن سمرة بن جندب، قال البخاري: ورأيت إسحاق بن إبراهيم يحتج بحديث ابن أشوع. اهـ. كلام القرطبي.

وكلام البخاري الذي ذكر القرطبي بعضه، هو قوله في آخر كتاب «الشهادات»: باب من أمر بإنجاز الوعد وفعله الحسن ﴿ **وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِسْمَاعِيلَ إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ**﴾، وقضىٰ ابن الأشوع بالوعد، وذكر ذلك عن سمرة.

وقال المسور بن مخرمة: سمعت النبي ﷺ، وذكر صهراً له، قال: «**وعدني فوفى لي**».

قال أبو عبدالله: ورأيت إسحاق بن إبراهيم يحتج بحديث ابن أشوع: ـدثنا إبراهيم بن حمزة، حدثنا إبراهيم بن سعد. عن صالح عن ابن شهاب، عن عبيدالله بن عبدالله: أن عبدالله بن عباس رضي الله عنهما أخبره قال: أخبرني أبو سفيان أن هرقل قال له: سألتك ماذا يأمركم؟

فزعمت أنه أمركم بالصلاة والصدق والعفاف والوفاء بالعهد وأداء الأمانة. قال: وهذه صفة نبي.

حدثنا قتيبة بن سعيد، حدثنا إسماعيل بن جعفر عن أبي سهيل نافع ابن مالك بن أبي عامر عن أبي هريرة رضي الله عنه: أن رسول الله ﷺ قال: «**آية المنافق ثلاث: إذا حدث كذب، وإذا أؤتمن خان، وإذا وعد أخلف**».

حدثنا إبراهيم بن موسىٰ أخبرنا هشام عن ابن جريج قال: أخبرني عمرو ابن دينار عن محمد بن علي عن جابر بن عبدالله رضي الله عنهم قال: لما مات النبي ﷺ جاء أبا بكر مال من قبل العلاء بن الحضرمي فقال أبو بكر: من كان له علىٰ النبي ﷺ دين، أو كانت له قبله عدة فليأتنا.

قال جابر: فقلت وعدني رسول الله ﷺ أن يعطيني هكذا وهكذا وهكذا، فبسط يديه ثلاث مرات.

قال جابر: فعد في يدي خمسمائة، ثم خمسمائة ثم خمسمائة، حدثنا محمد بن عبدالرحيم، أخبرنا سعيد بن سليمان، حدثنا مروان بن شجاع عن سالم الأفطس عن سعيد بن جبير: قال: سألني يهودي من أهل الحيرة: أي الأجلين قضىٰ موسىٰ؟ قلت: لا أدري حتىٰ أقدم علىٰ حبر العرب فأسأله، فقدمت فسألت ابن عباس، قال: قضىٰ أكثرهما وأطيبهما إن رسول الله ﷺ إذا قال فعل - انتهىٰ من صحيح البخاري.

وقوله في ترجمة الباب المذكور «وفعله الحسن» يعني الأمر بإنجاز الوعد.

ووجه احتجاجه بآية ﴿إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ﴾ أن الثناء عليه بصدق الوعد يفهم منه أن إخلافه مذموم فاعله، فلا يجوز.

وابن الأشوع المذكور هو سعيد بن عمرو بن أشوع الهمداني الكوفي، كان قاضي الكوفة في زمان إمارة خالد القسري على العراق، وقد وقع بيان روايته المذكورة عن سمرة بن جندب في تفسير إسحاق بن راهويه وهو إسحاق بن إبراهيم الذي ذكر البخاري أنه رآه يحتج بحديث ابن أشوع، كما قاله ابن حجر في «الفتح».

والمراد أنه كان يحتج به في القول بوجوب إنجاز الوعد.

وصهر النبي ﷺ الذي أثنى عليه بوفائه له بالوعد هو أبو العاص بن الربيع زوج زينب بنت رسول الله ﷺ، وقد أسره المسلمون يوم بدر كافرًا، وقد وعده برد ابنته زينب إليه، وردها إليه.

خلافًا لمن زعم أن الصهر المذكور أبو بكر رضي الله عنه.

وقد ذكر البخاري في الباب المذكور أربعة أحاديث في كل واحد منها دليل على الوفاء بإنجاز الوعد.

الأول: حديث أبي سفيان بن حرب في قصة هرقل وهو طرف من حديث صحيح مشهور.

ووجه الدلالة منه في قوله: فزعمتَ أنه أمركم بالصلاة والصدق والعفاف والوفاء بالعهد وأداء الأمانة؟ فإن جميع المذكورات في هذا الحديث مع الوفاء بالعهد كلها واجبة، وهي الصلاة والصدق والعفاف وأداء الأمانة. وقد ذكر بعد ذلك أن هذه الأمور صفة نبي والاقتداء بالأنبياء واجب.

الثاني: حديث أبي هريرة في آية المنافق. ومحل الدليل منه قوله: «وإذا وعد أخلف» فكون إخلاف الوعد من علامات المنافق يدل على أن المسلم لا

يجوز له أن يتسم بسمات المنافقين.

الثالث: حديث جابر في قصته مع أبي بكر، ووجه الدلالة منه أن أبا بكر قال: من كان له على النبي ﷺ دين أو كانت له قبله عدة.. الحديث.

فجعل العدة كالدين، وأنجز لجابر ما وعده النبي ﷺ من المال: فدل ذلك على الوجوب.

الرابع: حديث ابن عباس في أي الأجلين قضى موسى؟ ووجه الدلالة منه أنه قضى أطيبهما وأكثرهما، وأن رسول الله ﷺ إذا قال فعل.

فعلى المؤمنين الاقتداء بالرسل، وأن يفعلوا إذا قالوا.

وفي الاستدلال بهذه الأحاديث مناقشات من المخالفين.

ومن أقوى الأدلة في الوفاء بالعهد قوله تعالى: ﴿**كَبُرَ مَقْتًا عِندَ اللهِ أَن تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ**﴾ [الصف: ٢] لأن المقت الكبير من الله على عدم الوفاء بالقول يدل على التحريم الشديد في عدم الوفاء به.

وقال ابن حجر في «الفتح»: في الكلام على ترجمة الباب المذكور وقال المهلب: إنجاز الوعد مأمور به مندوب إليه عند الجميع وليس بفرض: لاتفاقهم على أن الموعود لا يضارب بما وعد به مع الغرماء اهـ.

ونقل الإجماع في ذلك مردود، فإن الخلاف مشهور لكن القائل به قليل وقال ابن عبدالبر وابن العربي أجل من قال به عمر بن العزيز ـ انتهى محل الغرض من كلام الحافظ في «الفتح»، وقال أيضًا: وخرج بعضهم الخلاف في هذه المسألة على الخلاف في الهبة، هل تملك بالقبض أو قبله؟

فإذا علمت أقوال أهل العلم في هذه المسألة.

وما استدل به كل فريق منهم ـ فاعلم أن الذي يظهر لي في هذه المسألة

والله تعالىٰ أعلم: أن إخلاف الوعد لا يجوز، لكونه من علامات المنافقين، ولأن الله يقول: ﴿كَبُرَ مَقْتًا عِندَ اللهِ أَن تَقُولُوا مَا لا تَفْعَلُونَ﴾ [الصف: ٢] وظاهر عمومه يشمل إخلاف الوعد.

ولكن الواعد إذا امتنع من إنجاز الوعد لا يحكم عليه به ولا يلزم به جبراً؛ بل يؤمر به ولا يجبر عليه؛ لأن أكثر علماء الأمة علىٰ أنه لا يجبر علىٰ الوفاء به لأنه وعد بمعروف محض. والعلم عند الله تعالىٰ.

* * *

س: اذكر بعض الوارد في حث الرجل على تذكير أهل بيته بالصلاة وأمرهن بها.

ج: من ذلك ما يلي:

قول النبي ﷺ: «مُرُوا أَوْلادَكُمْ بالصَّلاة وَهُمْ أَبْنَاءُ سَبْعِ سِنِينَ، واضرِبُوهُمْ عَلَيْهَا وَهُمْ أَبْنَاءُ عَشْرٍ، وَفَرِّقُوا بيْنَهُم في المَضَاجِعِ».

وقوله تعالىٰ: ﴿وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا﴾ [طه: ١٣٢].

وقوله سبحانه: ﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِسْمَاعِيلَ إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولاً نَّبِيًّا (٥٤) وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُ بِالصَّلاةِ وَالزَّكَاةِ وَكَانَ عِندَ رَبِّهِ مَرْضِيًّا﴾ [مريم: ٥٤، ٥٥].

وقول لقمان لابنه: ﴿يَا بُنَيَّ أَقِمِ الصَّلاةَ وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنِ الْمُنكَرِ وَاصْبِرْ عَلَى مَا أَصَابَكَ إِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الأُمُورِ﴾ [لقمان: ١٧].

* * *

نبي الله إدريس عليه السلام

س: اذكر بعض التعريف بنبي الله إدريس عليه السلام!

ج: هو صديقٌ نبي رفعه الله مكانًا عليًّا وقد رآه النبي ﷺ في السماء الرابعة في رحلة المعراج كما في الصحيح من حديث أنس رضي الله عنه مرفوعًا[١] .

قال القرطبي رحمه الله:

قوله تعالىٰ: ﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِدْرِيسَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا﴾ إدريس عليه السلام أوّل من خط بالقلم، وأوّل من خاط الثياب ولبس المخيط، وأوّل من نظر في علم النجوم والحساب وسيرها. وسمي إدريس لكثرة درسه لكتاب الله تعالىٰ.

قلت: وذكر القرطبي أقوالاً أُخر، ولا نعلم علىٰ شيءٍ منها دليلاً من الكتاب والسنة.

* * *

س: ما المراد بالمكان العلي المذكور في قوله تعالى: ﴿وَرَفَعْنَاهُ مَكَانًا عَلِيًّا﴾؟

ج: قال بعض أهل العلم: رُفع إلىٰ السماء الرابعة ومازال حيًّا لم يمت.

(١) مسلم (حديث ١٦٢).

وقال بعض أهل العلم: إن المراد بالمكان العليّ هو الجنَّة.

وقال آخرون من أهل العلم: بل رفع إلى السماء السادسة فمات فيها.

قلت: وفي حديث المعراج[١] أن رسول الله ﷺ قال: «ثم عُرِج بنا إلى السماء الرابعة فاستفتح جبريل عليه السلام قيل: من هذا؟ قال: جبريل. قيل: ومن معك؟ قال: محمد، قال: وقد بعث إليه؟ ففتح لنا فإذا أنا بإدريس فرحب ودعا لي بخير، قال الله عزَّ وجل: ﴿وَرَفَعْنَاهُ مَكَانًا عَلِيًّا﴾.

* * *

س: من الذين عناهم الله بقوله: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ النَّبِيِّينَ مِن ذُرِّيَّةِ آدَمَ وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ وَمِن ذُرِّيَّةِ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْرَائِيلَ وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَاجْتَبَيْنَا﴾؟

ج: قال الطبري رحمه الله:

يقول تعالى ذكره لنبيه ﷺ: هؤلاء الذين اقتصصتُ عليك أنباءهم في هذه السورة يا محمد، الذين أنعم الله عليهم بتوفيقه، فهداهم لطريق الرشد من الأنبياء من ذرّيّة آدم، ومن ذرّيّة من حملنا مع نوح في الفُلك، ومن ذرّيّة إبراهيم خليل الرحمن، ومن ذرّيّة إسرائيل، وممن هدينا للإيمان بالله والعمل بطاعته واجتبينا؛ يقول: وممن اصطفينا واخترنا لرسالتنا ووحينا، فالذي عني به من ذرية آدم إدريس، والذي عني به من ذرية من حلمنا مع نوح إبراهيم، والذي عني به من ذرية إبراهيم إسحاق ويعقوب وإسماعيل، والذي عني به من ذرّيّة إسرائيل: موسى وهارون وزكريا وعيسى وأمه

(١) المصدر السابق.

مريم، ولذلك فرق تعالىٰ ذكره أنسابهم وإن كان يجمع جميعهم آدم لأن فيهم من ليس من ولد من كان مع نوح في السفينة، وهو إدريس، وإدريس جدّ نوح.

وقال القرطبي رحمه الله:

قوله تعالىٰ: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ النَّبِيِّينَ مِن ذُرِّيَّةِ آدَمَ﴾ يريد إدريس وحده.

﴿وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ﴾ يريد إبراهيم وحده.

﴿وَمِن ذُرِّيَّةِ إِبْرَاهِيمَ﴾ يريد إسماعيل وإسحاق ويعقوب.

﴿وَ﴾ من ذرية ﴿إِسْرَائِيلَ﴾ موسىٰ وهارون وزكريا ويحيىٰ وعيسىٰ.

فكان لإدريس ونوح شرف القرب من آدم، ولإبراهيم شرف القرب من نوح ولإسماعيل وإسحاق ويعقوب شرف القرب من إبراهيم.

﴿وَمِمَّنْ هَدَيْنَا﴾ أي إلىٰ الإسلام: ﴿وَاجْتَبَيْنَا﴾ بالإيمان.

❊ ❊ ❊

س: هل يشرع السجود عند قوله تعالى: ﴿إِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُ الرَّحْمَنِ خَرُّوا سُجَّداً وَبُكِيًّا﴾؟

ج: نقل الحافظ ابن كثير الإجماع علىٰ شرعية السجود هاهنا اقتداء بهم واتباعًا لمنوالهم.

❊ ❊ ❊

س: هل عند قول الله تعالى: ﴿إِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُ الرَّحْمَٰنِ خَرُّوا سُجَّدًا وَبُكِيًّا﴾ سجودٌ أم لا؟

ج: نقل ابن كثير رحمه الله الإجماع على مشروعية السجود عند هذه الآية الكريمة اقتداءً بهم، واتباعهم لمنوالهم.

* * *

س: من هؤلاء الخلف الذين عناهم الله بقوله: ﴿فَخَلَفَ مِن بَعْدِهِمْ خَلْفٌ﴾؟

ج: **قال بعض أهل العلم**: إنهم قومٌ يأتون في آخر الزمان من أمة محمد ﷺ بعد ذهاب الصالحين فينزو بعضهم على بعضٍ في الأزقة، وكما في الحديث: «**لا تقوم الساعة حتى يتسافدوا الطريقَ تسافدَ الحمير**»(١).

وفي الرواية الأخرى: «**فيكون خَيرهم يومئذ من يقول لو واريتها وراءَ هذا الجدارِ**»(٢).

ومن العلماء من قال: إنهم قوم أتوا بعد الأنبياء المذكورين عليهم الصلاة والسلام، وقبيل مبعث النبي ﷺ وكانوا متبعين للشهوات غارقين في الظلمات.

وثمَّ قول ثالث أن الآية الكريمة أُريد بها كلُّ من حاد عن الطريق بعد الأنبياء المذكورين وإلى قيام الساعة، واتبع شهواته وترك صلواته. والله تعالى أعلم.

* * *

(١) ابن حبان (موارد ١٨٨٩) بسندٍ صحيح.

(٢) أبو يعلى الموصلي (١١ / ٤٣) إسناده حسن.

المراد بإضاعة الصلاة

س: ما المراد بإضاعة الصلاة؟

ج: لأهل العلم قولان في المراد بإضاعة الصلاة:

أحدهما: أن المراد تأخيرها حتىٰ يخرج وقتها، وليس المراد تركها بالكلية.

الثاني: أن المراد تركها بالكلية، واختار الطبري هذا الأخير فقال: قال أبو جعفر: وأولىٰ التأويلين في ذلك عندي بتأويل الآية، قول من قال: إضاعتهموها تركهم إياها لدلالة قول الله تعالىٰ ذكره بعده علىٰ أن ذلك كذلك، وذلك قوله جلّ ثناؤه: ﴿إِلاَّ مَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا﴾ فلو كان الذين وصفهم بأنهم ضيعوها مؤمنين لم يستثن منهم من آمن وهم مؤمنون، ولكنهم كانوا كفاراً لا يصلون لله ولا يؤدّون له فريضة، فسقة قد آثروا شهوات أنفسهم علىٰ طاعة الله. وقد قيل: إن الذين وصفهم الله بهذه الصفة قوم من هذه الأمة يكونون في آخر الزمان.

قلت: ولا يمتنع أيضًا تصحيح الوجه الأول، وذلك لأن الله توعد أشد الوعيد أيضًا من تركها حتىٰ خرج وقتها، فقال تعالىٰ: ﴿فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ ﴿٤﴾ الَّذِينَ هُمْ عَن صَلاتِهِمْ سَاهُونَ﴾ [الماعون: ٤، ٥] والمراد بالسهو عنها تركها حتىٰ يخرج وقتها.

قال القرطبيَ رحمه الله:

واختلفوا أيضًا في معنىٰ إضاعتها؛ فقال القرطبي: هي إضاعة كفر وجحد بها.

وقال القاسم بن مخيمرة، وعبدالله بن مسعود: هي إضاعة أوقاتها، وعدم القيام بحقوقها وهو الصحيح، وأنها إذا صليت مخلًّىٰ بها لا تصح ولا تجزئ؛ لقوله ﷺ للرجل الذي صلىٰ وجاء فسلم عليه: «ارجع فصل فإنك لم تصلِّ» ثلاث مرات خَرَّجه مسلم.

* * *

بحث في تارك الصلاة عمداً هل يلزم بإعادتها؟

س: من ترك الصلاة عمدًا ثم تاب هل يُلزم بإعادتها؟

ج: نعم عليه أن يعيدها، وهذا رأي جمهور أهل العلم ومن حججهم ما يلي:

حديث ابن عباس رضي الله عنهما في الصحيحين [١]، وفيه أن امرأة أتت رسول الله ﷺ فقالت: إن أمي ماتت وعليها صوم، فقال ﷺ: **«أرأيت لو كان عليها دين أكنت تقضينه؟»** قالت: نعم، قال: **«فدين الله أحق بالقضاء»**.

ووجه الاستشهاد بهذا الحديث يتمثل في أن الصلاة قد أُمر بها المرء فأصبحت دينًا عليه، والمدين يلزمه أن يقضي ما عليه من دين، فهو وإن كان آثمًا بتركه الصلاة حتى انقضى وقتها لكن يسقط عنه الطلب بأدائها، وكمزيد إيضاح لذلك نقول:

إن تارك الصلاة حتى ينقضي وقتها يأثم لتركها، ويأثم لتأخيرها، فهو مطالب أصلاً بأدائها، ومطالب بأدائها في وقتها، فإذا قضاها بعد انتهاء وقتها سقط عنه إثم المطالبة بها، ويبقى عليه إثم التخلف عن قضائها في وقتها، إن شاء الله أن يعاقبه عليه عاقبه، وإن شاء أن يعفو عنه عفا.

وإلى نحو هذا أشار العلماء.

---

(١) البخاري (٧٣١٥) ومسلم (١١٤٨).

فقال الحافظ ابن حجر ـ رحمه الله تعالى[١] ـ:

ووجوب القضاء على العامد بالخطاب الأول؛ لأنه قد خوطب بالصلاة وترتبت في ذمته فصارت دينًا عليه، والدَّين لا يسقط إلا بأدائه، فيأثم بإخراجه لها عن الوقت المحدود لها، ويسقط عنه الطلب بأدائها، فمن أفطر في رمضان عامدًا، فإنه يجب عليه أن يقضيه مع بقاء إثم الإفطار عليه، والله أعلم.

قال ابن عبدالبر ـ رحمه الله[٢] ـ:

والصلاة والصيام كلاهما فرض واجب، ودين ثابت يؤدى أبدًا، وإن خرج الوقت المؤجل لهما، قال رسول الله ﷺ: «**دين الله أحق أن يقضى**».

ومما استدل به أيضًا:

ما ورد عن النبي ﷺ أنه قال[٣]: «**إن أوَّلَ ما يحاسب به العبدُ يومَ القيامة من عَمَلِه صلاتُه، فإن صلحتْ فقد أفلح وأنجح، وإن فسَدتْ فقد خاب وخسر، فإن انتُقِصَ من فريضته شيءٌ، قال الرب عز وجل: انظروا هل لعبدي من تطوعٍ، فيكمل بها ما انتُقِصَ من الفريضة؟ ثم يكون سائرُ عمله على ذلك**»[٤] وهو حديث حسن بمجموع طريقيه.

---

(١) الفتح (٢ / ٧١).

(٢) الاستذكار (١ / ٣٠١).

(٣) الترمذي (حديث ٤١٣)، والنسائي (١ / ٢٣٢).

(٤) له طرق عن أبي هريرة رضي الله عنه، وقد اختلف في رفعه ووقفه، وكذلك من حديث تميم الداري رضي الله عنه مرفوعًا وموقوفًا أيضًا، وفي الجملة فالحديث يحسن بمجموع طريقيه، والله أعلم.

فإن كانت الفرائض تُجبر بالنوافل، فلأن تؤدىٰ الفرائض نفسها فمن باب أولىٰ.

ومن الاستدلالات كذلك أيضًا:

ما أخرجه البخاري ومسلم(١) من حديث طلحة بن عبيدالله رضي الله عنه قال: جاء رجلٌ إلىٰ رسول الله ﷺ من أهل نجدٍ ثائرُ الرأس يُسمع دوي صوته، ولا يُفقه ما يقول حتىٰ دنا، فإذا هو يسأل عن الإسلام، فقال رسول الله ﷺ: «**خمسُ صلواتٍ في اليوم والليلة**» فقال: هل عليَّ غيرها؟ قال: «**لا.. إلا أن تطوع...**» الحديث.

فأفاد هذا الحديث أن علىٰ المسلم خمس صلوات في اليوم والليلة، وما دامت عليه فهي دينٌ سيُسأل عنه يوم القيامة، وما دام دينًا فلابد من سداده، وإن تأخر وقت السداد.

ومما استدل به كذلك في هذا الباب:

ما أخرجه البخاري ومسلم(٢) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «**من أدرك من الصبح ركعة قبل أن تطلع الشمس فقد أدرك الصبح، ومن أدرك ركعة من العصر قبل أن تغرب الشمس فقد أدرك العصر**».

ووجه الدلالة من ناحية أن هذا المُصلي الذي قد أدرك ركعة من العصر قبل أن تغرب الشمس سيصلي ثلاث ركعات بعد غروبها، أي بعد انقضاء وقتها، وليس في الحديث تفريق بين متعمدٍ وغير متعمدٍ.

---

(١) البخاري (حديث ٤٦)، ومسلم (حديث١١).

(٢) البخاري (حديث ٥٧٩)، ومسلم (حديث ٦٠٨).

وكذلك الذي أدرك ركعة من الصبح قبل طلوع الشمس فسيكون قد أدرك ركعة بعد طلوعها.

وهذا والذي قبله قد صليا بعض الركعات في غير وقت الصلاة المشروع لها، فهذا هو وجه الاستدلال لقضاء الفوائت لمن تركها متعمدًا أو غير متعمدٍ، والله تعالى أعلم.

ومما استدلوا به كذلك القياس على الصيام:

قالوا: فكما أن المفطر المتعمد في رمضان ثم تاب من ذنبه عليه القضاء بالإجماع فكذلك تارك صلاة الفرض المتعمد عليه القضاء كذلك إذا هو تاب.

قال ابن عبدالبر ـ رحمه الله تعالى [1] ـ في (الاستذكار):

وأجمعت الأمة، ونقلت الكافة فيمن لم يصم رمضان عامدًا، وهو مؤمن بفرضه، وإنما تركه أشرًا وبطرًا تعمد ذلك، ثم تاب عنه ـ أن عليه قضاءه، فكذلك من ترك الصلاة عامدًا فالعامد والناسي في القضاء للصلاة والصيام سواء، وإن اختلفا في الإثم.

وكما بينا أن هذا الرأي هو رأي الجمهور من العلماء.

رأيهم أن الصلاة التي تركها المرء عامدًا حتى خرج وقتها لزامًا أن تُصلى وهذا مع التوبة والاستغفار.

ومن نقل ذلك فريق من العلماء منهم ابن عبدالبر في (الاستذكار)،

(١) الاستذكار (١/ ٣٠١).

ومنهم شيخ الإسلام ابن تيمية ـ رحمه الله في (مجموع الفتاوىٰ) [١]، فقد قال: «وأما من فوتها متعمدًا فقد أتىٰ كبيرة من أعظم الكبائر، وعليه القضاء عند جمهور العلماء». ومنهم النووي ـ رحمه الله تعالىٰ [٢] ـ فقد قال: «أجمع العلماء الذين يعتد بهم علىٰ أن من ترك صلاةً عمدًا لزمه قضاؤها، وخالفهم أبو محمد علي بن حزم، فقال: لا يقدر علىٰ قضائها أبدًا، ولا يصح فعلها أبدًا، قال: بل يكثر من فعل الخير وصلاة التطوع، ليثقل ميزانه يوم القيامة، ويستغفر الله تعالىٰ ويتوب، وهذا الذي قاله مع أنه مخالف للإجماع باطل من جهة الدليل»، وبسط [٣] هو الكلام في الاستدلال به، وليس له فيما ذكر دلالة أصلاً.

قلت: (مصطفى):

وهذا حديث قد فُهم علىٰ غير وجهه واستدل به البعض علىٰ منع من تعمد ترك الصلاة حتىٰ فات وقتها من إعادتها:

حديث أنس بن مالك رضي الله عنه فيه أن النبي ﷺ قال: «**من نَسِيَ صلاةً أو نامَ عنها فكفارتُها أن يصليَها إذا ذكرها**» [٤].

وفي رواية: «**إذا رقَد أحدُكم عن الصلاة أو غَفَل عنها فليصلِّها إذا ذكرها، فإن الله يقول: أقم الصلاة لذكري**» [٥].

---

(١) مجموع الفتاوىٰ (٢٢ / ٣٩).

(٢) المجموع (شرح المهذب ٣ / ٧١).

(٣) يعني النووي أن ابن حزم بسط في سرد الاستدلالات لمذهبه، وليس فيما أورده دلالات أصلاً.

(٤) مسلم (صـ ٤٧٧).

(٥) المصدر السابق.

وفي ثالثة: «**مَنْ نسِيَ صلاة فليصلِّها إذا ذكرها لا كفارةَ لها إلا ذلك**»(١).

وفي «صحيح مسلم» من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «**من نَسِيَ الصلاة فليُصلِّها إذا ذكرها، فإن الله قال: أقمِ الصلاة لذكري**»(٢).

فهذه الأحاديث قد فهمها البعض على غير وجهها اللائق بها.

ففهمها البعض على أن الصلوات التي تقضى فقط هي الصلوات التي نام عنها المرءُ أو نسيها، قالوا: وما سوى ذلك فلا يُقضى إذا تركه الشخص متعمداً.

قلت: وليس في الحديث ما يفيد ذلك، فليس في الحديث أن الفوائت لا تقضى بحالٍ من الأحوال، وإنما الذي في الحديث أن من نام عن صلاة أو نسيها فليصلها إذا ذكرها.

ووجه ذلك عندي - والله تعالى أعلم - وهو قول عددٍ من أهل العلم أن النائم عن الصلاة حتى فاته وقتها، وكذلك الناسي لها حتى فات وقتها، قد يظن لنومه، أو لنسيانه أن الصلاة قد سقطت عنه، ولم يعد مطالبًا بها، فقيل لمن هذا ظنه: لا تظن ذلك أيها النائم، وأيها الناسي، بل الصلاة مازالت في ذمتكما، فمن نام عن صلاة، فلا يظن أن هذه الصلاة قد سقطت عنه. ومن نسى صلاة فلا يظن أن هذه الصلاة قد سقطت عنه(٣) بل لزامًا على هذا وذاك أن يأتيا بها إذا ذكراها.

---

(١) عند البخاري (حديث ٥٩٧)، ومسلم (٤٧٧).

(٢) مسلم (حديث ٦٨٠).

(٣) وعلى سبيل المثال: الصائم الناسي، قد يأكل ويشرب، ولكن لا يؤثر الطعام والشراب في صومه، فلهذا قد يظن ظان أن الناسي للصلاة قد سقط عنه فرضها.

هذا ومما يُعكر على القول القائل بأن الصلاة التي تقضى هي التي نام عنها المرء أو نسيها فقط أن النبي ﷺ صلى العصر بعد أن غربت الشمس يوم الأحزاب، وقال: «**ملأ الله بيُوتَهم وقبورَهم نارًا كما شغلونا عن الصلاة حتى غربتِ الشمس**»، فلم يكن صلوات الله وسلامه عليه نائمًا ولا ناسيًا.

فعلى هذا الذي ذكرناه آنفًا، من أن النائم والناسي يقضيان الصلاة فغيرهما من باب أولى، أعني المتعمد للترك، ثم تاب من ذلك.

قال ابن عبدالبر في «الاستذكار»[١]:

فإن قيل: لم خُصَّ النائم والناسي بالذكر في قوله في هذا الحديث: «**من نام عن صلاة أو نسِيَها فليصلِّها إذا ذكرها**»؟.

قيل: خُصَّ النائم والناسي ليرتفع الظن فيهما برفع القلم في سقوط المأثم عنهما بالنوم والنسيان، فأبان رسول الله ﷺ أن سقوط الإثم عنهما غير مُسقطٍ لما لزمهما من فرض الصلاة، وأنها واجبة عليهما عند الذكر لها، يقضيها كل واحد منهما، بعد خروج وقتها إذا ذكرها.

ولم يحتج إلى ذكر العامد معهما؛ لأن العلة المتوهمة في الناسي والنائم ليست فيه ولا عذر له في ترك فرض قد وجب عليه من صلاته إذا كان ذاكرًا له.

قلت: وها هو موطن قضيت فيه الصلاة، وقد تركت عن غير نومٍ أو نسيان، ففي الصحيحين[٢] أن عمر بن الخطاب جاء يوم الخندق بعدما

---

(١) الاستذكار: (١ / ٣٠٠).

(٢) البخاري (حديث ٥٩٦)، ومسلم (حديث ٦٣١).

غربت الشمس فجعل يسبُّ كفار قريش، قال: يا رسول الله! ما كدت أُصلي حتى كادت الشمس تغرب، قال النبي ﷺ: «**والله ما صليتها**»، فقمنا إلى بُطحان فتوضأ للصلاة وتوضأنا لها، فصلى العصر بعدما غربت الشمس، ثم صلى بعدها المغرب».

وها هو حديث آخر أيضًا:

أخرج البخاري ومسلم من حديث ابن عمر رضي الله عنهما قال: قال النبي ﷺ لنا لما رجع من الأحزاب: «**لا يصلين أحدٌ العصرَ إلا في بني قريظة**» فأدرك بعضهم العصر في الطريق، فقال بعضهم: لا نصلي حتى نأتيها، وقال بعضهم: بل يُصلي، لم يُرد منا ذلك، فذُكر للنبي ﷺ فلم يعنِّف واحدًا منهم.

قلت: فعلى هذا، فقد أصبح هذا الدليل «**من نام عن صلاة أو نسيها فصلاتُها حين يذكُرُها**» يستدل به على القضاء، أعني قضاء الصلاة التي تركها صاحبها متعمدًا حتى فات وقتها إذا هو تاب، ولا يستدل به على عدم القضاء كما فهمه البعض مخالفين بذلك الجمهور.

قلت: فبعد هذا العرض السريع لهذه الأدلة وبعض أقوال العلماء نرى - والله تعالى أعلم - أن الصواب مع من قال بالقضاء، غير مبدعين للرأي الآخر.

وقد يقول قائل: إن مثل هذا الأمر بالقضاء قد يشق على رجل ترك الصلاة سنوات طويلة، فنقول: إن الله قال: ﴿**فَاتَّقُوا اللهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ**﴾ [التغابن: ١٦]، وقال: ﴿**لا يُكَلِّفُ اللهُ نَفْسًا إِلاَّ وُسْعَهَا**﴾ [البقرة: ٢٨٦]، فليتق

مثل هذا ربه قدر استطاعته، والله تعالىٰ أعلم، وهو الهادي إلىٰ سواء السبيل.

* * *

س: ما المراد باتباعهم الشهوات؟

ج: المراد أنهم آثروا شهوات أنفسهم، وقدموها علىٰ طاعة الله ورسله.

* * *

س: قوله تعالى: ﴿إِلَّا مَن تَابَ﴾ تاب من ماذا؟

ج: الظاهر، والله أعلم أن المراد التوبة من تضيع الصلاة واتباع الشهوات، كما قاله القرطبي رحمه الله، وكما هو الظاهر من السياق.

* * *

فتح أبواب التوبة للتائبين

س: دائمًا يُفتح باب التوبة أمام المذنبين، وعقب كل كبيرة تُذكر وتُذكر عقوبتها، يعقّب بفتح أبواب التوبة النصوح أمام التائبين حتى يرجع كلُّ عاصٍ إلى ربِّه تبارك وتعالى ولا يقنط أحدٌ من رحمة الله!

ج: من ذلك قوله تعالى: ﴿فَخَلَفَ مِن بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهَوَاتِ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا (٥٩) إِلاَّ مَن تَابَ..﴾ الآية.

وقوله تعالى: ﴿.. وَلا يَزْنُونَ وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَامًا (٦٨) يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهَانًا (٦٩) إِلاَّ مَن تَابَ﴾ [الفرقان: ٦٨: ٦٩].

أو قطاع الطرق الذين سفكوا الدماء يقول تعالى في شأنهم: ﴿إِلاَّ الَّذِينَ تَابُوا مِن قَبْلِ أَن تَقْدِرُوا عَلَيْهِمْ فَاعْلَمُوا أَنَّ اللهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [المائدة: ٣٤].

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَى مِن بَعْدِ مَا بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ فِي الْكِتَابِ أُوْلَئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللاَّعِنُونَ (١٥٩) إِلاَّ الَّذِينَ تَابُوا﴾ [البقرة: ١٥٩: ١٦٠] والأدلة في هذا كثيرة جدًا، وقد ذكرناها في غير موضع من هذا الكتاب المبارك.

❊ ❊ ❊

س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿بِالْغَيْبِ﴾!

ج: قال السعدي في تفسيره:

فيكون المعنى على هذا، أن الله وعدهم إياها، وعدًا غائبًا، لم يشاهدوه

ولم يروه. فآمنوا بها، وصدقوا غيبها وسعوا لها سعيها، مع أنهم لم يروها. فكيف لو رأوها، لكانوا أشد لها طلبًا، وأعظم فيها رغبة، وأكثر لها سعيًا.

ويكون في هذا، مدح لهم بإيمانهم بالغيب، الذي هو الإيمان النافع. ويحتمل أن تكون متعلقة بعباده، أي: الذين عبدوه في حال غيبهم وعدم رؤيتهم إياه.

فهذه عبادتهم ولم يروه، فلو رأوه، لكانوا أشد له عبادة، وأعظم إنابة، وأكثر حبًّا، وأجلُّ شوقًا.

ويحتمل أيضًا، أن المعنى: هذه الجنات التي وعدها الرحمن عباده، من الأمور التي لا تدركها الأوصاف، ولا يعلمها أحد إلا الله. ففيه من التشويق لها، والوصف المجمل، ما يهيج النفوس، ويزعج الساكن إلى طلبها.

فيكون هذا مثل قوله: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [السجدة: ١٧] والمعاني كلها صحيحة ثابتة.

ولكن الاحتمال الأول، أولى بدليل قوله: ﴿إِنَّهُ كَانَ وَعْدُهُ مَأْتِيًّا﴾ [مريم: ٦١] لابد من وقوعه، فإنه لا يخلف الميعاد، وهو أصدق القائلين.

* * *

س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿إِنَّهُ كَانَ وَعْدُهُ مَأْتِيًّا﴾!

ج: المعنى، والله أعلم، إن وعد الله الذي وعد الله عباده للجزاء والحساب، ألا وهو الوعد بالبعث والحشر سيأتيه العباد ويحضرونه ويشهدونه ويُعطي فيه كل ذي حق حقه.

قال العلامة الشنقيطي في كتابه أضواء البيان:

قوله تعالىٰ: ﴿جَنَّاتِ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدَ الرَّحْمَنُ عِبَادَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّهُ كَانَ وَعْدُهُ مَأْتِيًّا﴾ [مريم: ٦١].

بين جلَّ وعلا في هذه الآية الكريمة: أنه وعد عباده المؤمنين المطيعين جنات عدن.

ثم بين أن وعده مأتيٌّ؛ بمعنىٰ أنهم يأتونه ينالون ما وعدوا به؛ لأنه جلَّ وعلا لا يخلف الميعاد.

وأشار لهذا المعنىٰ في مواضع أخر، كقوله: ﴿وَعْدَ اللَّهِ لا يُخْلِفُ اللَّهُ وَعْدَهُ..﴾ الآية [الروم: ٦]؛ وقوله: ﴿إن الله لا يخلف الميعاد﴾ [الرعد: ٣١].

وقوله: ﴿رَبَّنَا وَآتِنَا مَا وَعَدتَّنَا عَلَى رُسُلِكَ وَلا تُخْزِنَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّكَ لا تُخْلِفُ الْمِيعَادَ (١٩٤) فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ..﴾ [آل عمران: ١٩٤، ١٩٥] الآية، وقوله تعالىٰ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِن قَبْلِهِ إِذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلأَذْقَانِ سُجَّدًا (١٠٧) وَيَقُولُونَ سُبْحَانَ رَبِّنَا إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولاً﴾ [الإسراء: ١٠٧-١٠٨]، وقوله تعالىٰ: ﴿فَكَيْفَ تَتَّقُونَ إِن كَفَرْتُمْ يَوْمًا يَجْعَلُ الْوِلْدَانَ شِيبًا (١٧) السَّمَاءُ مُنفَطِرٌ بِهِ كَانَ وَعْدُهُ مَفْعُولاً﴾ [المزمل: ١٧، ١٨]، وقوله تعالىٰ: ﴿قُلْ أَذَلِكَ خَيْرٌ أَمْ جَنَّةُ الْخُلْدِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ كَانَتْ لَهُمْ جَزَاءً وَمَصِيرًا (١٥) لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَاءُونَ خَالِدِينَ كَانَ عَلَى رَبِّكَ وَعْدًا مَّسْئُولاً﴾ [الفرقان: ١٥، ١٦] إلىٰ غير ذلك من الآيات.

وقوله: ﴿مَأْتِيًّا﴾ اسم مفعول أتاه إذا جاءه. والمعنىٰ: أنهم لابد أن يأتوا ما وعدوا به.

خلافًا لمن زعم أن ﴿ مَأْتِيًّا ﴾ صيغة مفعول أريد بها الفاعل؛ أي: كان وعده آتيًا، إذ لا داعي لهذا مع وضوح ظاهر الآية.

❊ ❊ ❊

س: وضح المراد بقوله تعالى: ﴿لا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْواً إِلاَّ سَلامًا . . ﴾!

ج: قال الطبري رحمه الله: يقول تعالىٰ ذكره: لا يسمع هؤلاء الذين يدخلون الجنة فيها لغواً، وهو الهَذْي والباطل من القول والكلام: ﴿إِلاَّ سَلامًا ﴾ وهذا من الاستثناء المنقطع، ومعناه: ولكن يسمعون سلامًا، وهو تحية الملائكة إياهم.

وقال القرطبي رحمه الله: ﴿لا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْواً ﴾ أي: في الجنة. واللغو: معناه: الباطل من الكلام والفحش منه والفضول وما لا ينتفع به. ومنه الحديث: «**إذا قلت لصاحبك يوم الجمعة أنصت والإمام يخطب فقد لغوت**» ويروىٰ (لغيت) وهي لغة أبي هريرة؛ كما قال الشاعر:

وربّ أسْرَابٍ حَجِيجٍ كُظَّمِ   عن اللَّغَا ورَفَثِ التَّكَلُّمِ

قال ابن عباس: اللغو كل ما لم يكن فيه ذكر الله تعالىٰ؛ أي: كلامهم في الجنة حمد الله وتسبيحه. ﴿ إِلاَّ سَلامًا ﴾ أي: لكن يسمعون سلامًا فهو من الاستثناء المنقطع، يعني سلام بعضهم علىٰ بعض، وسلام الملك عليهم، قاله مقاتل وغيره.

والسلام اسم جامع للخير؛ والمعنىٰ: أنهم لا يسمعون فيها إلا ما يحبون.

قوله تعالى: ﴿ وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيًّا ﴾ أي لهم ما يشتهون من المطاعم والمشارب بكرة وعشيًّا؛ أي: في قدر هذين الوقتين؛ إذ لا بكرة ثمَّ ولا عشيًّا؛ كقوله تعالى: ﴿غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ ﴾ [سبأ: ١٢] أي: قدر شهر.

* * *

س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿ إِلاَّ سَلامًا ﴾!

ج: المعنى متعلق بما قبله، فالمعنى لا يسمعون فيها لغواً أي كلامًا لاغيًا لا فائدة فيه، ولكن يسمعون سلامًا أي يسمعون تحية وهي السلام، كما قال تعالى: ﴿ تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُ سَلامٌ ﴾ [الأحزاب: ٤٤] وكما قال تعالى: ﴿وَالْمَلائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ (٢٣) سَلامٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ﴾ [الرعد: ٢٣، ٢٤]، وكما قال تعالى: ﴿ سَلامٌ قَوْلاً مِّن رَّبٍّ رَّحِيمٍ﴾ [يس: ٥٨].

وأيضًا لا يسمعون فيها إلا أقوالاً سالمة من العيوب، إنهم يسمعون ذِكراً لله عز وجل وتحية وكلام سرور، وبشارة، ومطارحة الأحاديث الحسنة بين الإخوان، وسماع خطاب الرحمن، والأصوات الشجية، من الحور، والملائكة، والولدان، والنغمات المطربة، والألفاظ الرخيمة، لأن الدار، دار السلام، فليس فيها إلا السلام التام في جميع الوجوه.

قال ذلك السعدي رحمه الله.

* * *

س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيًّا﴾!

ج: قال الطبري رحمه الله:

﴿وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيًّا﴾ يقول: ولهم طعامهم وما يشتهون من المطاعم والمشارب في قدر وقت البُكرة ووقت العشيّ من نهار أيام الدنيا، وإنما يعني أن الذي بين غدائهم وعشائهم في الجنة قدر ما بين غداء أحدنا في الدنيا وعشائه، وكذلك ما بين العشاء والغداء وذلك لأنه لا ليل في الجنة ولا نهار، وذلك كقوله: ﴿خَلَقَ الأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ﴾ [فصلت:٩] و﴿خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾ [الأعراف: ٥٤، يونس: ٣، هود: ٧، الحديد: ٤] يعني به: من أيام الدنيا.

قال الحافظ ابن كثير رحمه الله:

وقوله: ﴿وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيًّا﴾ أي: في مثل وقت البكرات ووقت العشيّات لا أن هناك ليلاً أو نهاراً، ولكنهم في أوقات تتعاقب، يعرفون مضيها بأضواء وأنوار.

* * *

س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿لا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا إِلاَّ سَلامًا﴾!

ج: المعنى والله أعلم: لا يسمع أهل الجنة في الجنة كلامًا تافهًا ساقطًا كما يسمع أهل الدنيا، ولكن يسمعون كلامًا طيبًا كتسليم بعضهم على بعض وتسليم الملائكة عليهم وغير ذلك.

قال الشنقيطي في «أضواء البيان»:

ذكر جل وعلا في هذه الآية الكريمة: أن المؤمنين إذا أدخلهم ربهم جنات عدن التي وعدهم ﴿لا يَسْمَعُونَ فِيهَا﴾ أي: في الجنات المذكورة ﴿ لَغْوًا ﴾ أي: كلامًا تافهًا ساقطًا كما يسمع في الدنيا.

واللغو: هو فضول الكلام، وما لا طائل تحته.

ويدخل فيه فحش الكلام وباطله، ومنه قول رؤبة وقيل العجاج:

وَرَبِّ أَسْرَابٍ حَجِيجٍ كُظَّمِ عن اللَّغَا وَرَفَثِ التَّكَلُّمِ

كما تقدم في سورة «المائدة».

والظاهر أن قوله ﴿ إِلاَّ سَلامًا ﴾ استثناء منقطع، أي: لكن يسمعون فيها سلامًا، لأنهم يسلم بعضهم على بعض، وتسلم عليهم الملائكة، كما يدل على ذلك قوله تعالى: ﴿وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلامٌ..﴾ [الأحزاب: ٤٤] الآية، وقوله: ﴿وَالْمَلائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ (٢٣) سَلامٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ..﴾ [الرعد: ٢٣، ٢٤] الآية. كما تقدم مستوفى.

وهذا المعنى الذي أشار له هنا جاء في غير هذا الموضع أيضًا كقوله في «الواقعة»: ﴿لا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلا تَأْثِيمًا (٢٥) إِلاَّ قِيلاً سَلامًا سَلامًا﴾ [الواقعة: ٢٥، ٢٦].

* * *

س: اذكر بعض صور الاستثناء المنقطع؟

ج: قال الشنقيطي رحمه الله تعالى:

وقد جاء الاستثناء المنقطع في آيات أخر من كتاب الله، كقوله تعالى:

﴿ وَمَا لَهُم بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلاَّ اتِّبَاعَ الظَّنِّ.. ﴾ الآية [النجم:٢٨] وقوله: ﴿ وَمَا لأَحَدٍ عِندَهُ مِن نِّعْمَةٍ تُجْزَى ⑲ إِلاَّ ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِ الأَعْلَى ﴾ [الليل:١٩-٢٠]، وقوله: ﴿ لا يَذُوقُونَ فِيهَا الْمَوْتَ إِلاَّ الْمَوْتَةَ الأُولَى ﴾ [الدخان:٥٦]، وكقوله: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُم بَيْنَكُم بِالْبَاطِلِ إِلاَّ أَن تَكُونَ تِجَارَةً عَن تَرَاضٍ مِّنكُمْ... ﴾ الآية [النساء:٢٩]، إلى غير ذلك من الآيات.

فكل الاستثناءات المذكورة في هذه الآيات منقطعة. ونظير ذلك من كلام العرب في الاستثناء المنقطع قول نابغة ذبيان:

وقفتُ فيها أصيلالاً أسائلها عيَّت جوابًا وما بالربع من أحد
إلا الأواريَ لأيًا ما أبينها والنؤي كالحوض بالمظلومة الجلَد

«فالأواري» التي هي مرابط الخيل ليست من جنس «الأحد».

وقول الفرزدق:

وبنت كريم قد نكحنا ولم يكن لها خاطب إلا السنان وعامله

وقول جران العود:

وبلدةٍ ليس بها أنيس إلا اليعافير وإلا العيس

«فالسنان» ليس من جنس «الخاطب» و «اليعافير والعيس» ليس واحد منهما من جنس «الأنيس». وقول ضرار بن الأزور:

أجاهد إذ كان الجهاد غنيمة ولله بالعبد المجاهد أعلم
عشية لا تغني الرماح مكانها ولا النبل إلا المشرفيَّ المصمّم

وبهذا الذي ذكرنا تعلم صحة وقوع الاستثناء المنقطع كما عليه جماهير الأصوليين خلافًا للإمام أحمد بن حنبل وبعض الشافعية القائلين بأن

الاستثناء المنقطع لا يصح، لأن الاستثناء إخراج ما دخل في اللفظ، وغير جنس المستثنىٰ منه لم يدخل في اللفظ أصلاً حتىٰ يخرج بالاستثناء.

* * *

س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيًّا﴾!

ج: هذا، والله تعالىٰ أعلم، إنما يراد به أنهم يرزقون دائمًا.

وذلك لأن العرب في زمانهم كان الذي يرزق غداء وعشاء فهو المنعم فخوطبوا علىٰ قدر أفهامهم وأعرافهم، وإلا فقد قال تعالىٰ: ﴿**لَهُم مَّا يَشَاءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ**﴾ [ق: ٣٥].

هذا، وقد طرح الشنقيطي في «أضواء البيان» سؤالاً حول هذه الآية الكريمة فقال:

وقوله في هذه الآية الكريمة: ﴿**وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيًّا**﴾ فيه سؤال معروف، وهو أن يقال: ما وجه ذكر البكرة والعشي، مع أن الجنة ضياء دائم ولا ليل فيها؟ وللعلماء عن هذا السؤال أجوبة:

الأول: أن المراد بالبكرة والعشي قدر ذلك من الزمن، كقوله: ﴿**غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ**﴾ أي: قدر شهر.

وروي معنىٰ هذا عن ابن عباس، وابن جريج وغيرهما.

والجواب الثاني: أن العرب كانت في زمنها ترىٰ أن من وجد غداء وعشاء فذلك الناعم، فنزلت الآية مرغبة لهم وإن كان ما في الجنة أكثر من ذلك.

ويروىٰ هذا عن قتادة، والحسن، ويحيىٰ بن أبي كثير.

الجواب الثالث: أن العرب تعبر عن الدوام بالبكرة والعشي، والمساء والصباح، كما يقول الرجل: أنا عند فلان صباحًا ومساء، وبكرة وعشيًا.

يريد الديمومة ولا يقصد الوقتين المعلومين.

الجواب الرابع: أن تكون البكرة هي الوقت الذي قبل اشتغالهم بلذاتهم.

والعشي: هو الوقت الذي بعد فراغهم من لذاتهم، لأنه يتخللها فترات انتقال من حال إلىٰ حال وهذا يرجع معناه إلىٰ الجواب الأول.

الجواب الخامس: هو ما رواه الترمذي الحكيم في «نوادر الأصول» من حديث أبان عن الحسن وأبي قلابة قالا[١]: قال رجل: يا رسول الله، هل في الجنة من ليل؟ قال: «**وما يهيجك على هذا؟**» قال: سمعت الله تعالىٰ يذكر: ﴿ **وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيًّا** ﴾ فقلت: الليل بين البكرة والعشي. فقال رسول الله ﷺ: «**ليس هناك ليل، إنما هو ضوء ونور، يرد الغدو على الرواح والرواح على الغدو، تأتيهم طرف الهدايا من الله تعالى لمواقيت الصلاة التي كانوا يصلون فيها في الدنيا، وتسلم عليهم الملائكة**» انتهىٰ بواسطة نقل صاحب الدر المنثور والقرطبي في تفسيره.

وقال القرطبي بعد أن نقل هذا: وهذا في غاية البيان لمعنىٰ الآية.

وقد ذكرناه في كتاب (التذكرة) ثم قال: وقال العلماء ليس في الجنة ليل ولا نهار، وإنما هم في نور أبدًا إنما يعرفون مقدار الليل من النهار بإرخاء

---

(١) الحديث ضعيف لإرساله كما هو واضح، ثم إن مراسيل الحسن وأبي قلابة أشد ضعفًا من غيرها.

الحجب، وإغلاق الأبواب. ويعرفون مقدار النهار برفع الحجب، وفتح الأبواب؛ ذكره أبو الفرج الجوزي والمهدوي وغيرهما اهـ منه. وهذا الجواب الأخير الذي ذكره الحكيم الترمذي عن الحسن وأبي قلابة عن النبي ﷺ راجع إلى الجواب الأول. والعلم عند الله تعالى.

❊ ❊ ❊

س: وضح المراد بقوله تعالى: ﴿تِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي نُورِثُ مِنْ عِبَادِنَا مَن كَانَ تَقِيًّا﴾.

ج: قال الشنقيطي في «أضواء البيان»:

قوله تعالى: ﴿تِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي نُورِثُ مِنْ عِبَادِنَا مَن كَانَ تَقِيًّا﴾ [مريم: ٦٣].

الإشارة في قوله: ﴿تِلْكَ﴾ إلى ما تقدم من قوله: ﴿فَأُولَٰئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ شَيْئًا ۝٦٠ جَنَّاتِ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدَ الرَّحْمَٰنُ عِبَادَهُ بِالْغَيْبِ﴾ الآية.

وقد بين جل وعلا في هذه الآية الكريمة أنه يورث المتقين من عباده جنته.

وقد بين هذا المعنى أيضًا في مواضع أخر، كقوله تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ ۝١ الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ﴾ [المؤمنون: ١-٢] إلى قوله: ﴿أُولَٰئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ ۝١٠ الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ [المؤمنون: ١٠، ١١]، وقوله: ﴿وَسَارِعُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ﴾ الآيات [آل عمران: ١٣٣]، وقوله تعالى: ﴿وَسِيقَ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَى الْجَنَّةِ زُمَرًا﴾ [الزمر: ٧٣] الآية، وقوله: ﴿وَنُودُوا أَن تِلْكُمُ الْجَنَّةُ

أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [الأعراف: ٤٣]، إلىٰ غير ذلك من الآيات.

ومعنىٰ إيراثهم الجنة: الإنعام عليهم بالخلود فيها في أكمل نعيم وسرور، قال الزمخشري في «الكشاف»: نورث أي نبقي عليه الجنة كما نبقي علىٰ الوارث مال الموروث، ولأن الأتقياء يلقون ربهم يوم القيامة قد انقضت أعمالهم، وثمرتها باقية وهي الجنة فإذا أدخلهم الجنة فقد أورثهم من تقواهم كما يورث الوارث المال من المتوفىٰ.

وقال بعض أهل العلم: معنىٰ إيراثهم الجنة أن الله تعالىٰ خلق لكل نفس منزلاً في الجنة، ومنزلاً في النار: فإذا دخل أهل الجنة الجنة أراهم منازلهم في النار لو كفروا وعصوا الله ليزداد سرورهم وغبطتهم؛ وعند ذلك يقولون: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلَا أَنْ هَدَانَا اللهُ...﴾ الآية [الأعراف: ٤٣] وكذلك يرىٰ أهل النار منازلهم في الجنة لو آمنوا واتقوا الله لتزداد ندامتهم وحسرتهم، وعند ذلك يقول الواحد منهم: ﴿لَوْ أَنَّ اللهَ هَدَانِي لَكُنتُ مِنَ الْمُتَّقِينَ﴾ [الزمر: ٥٧].

ثم إنه تعالىٰ يجعل منازل أهل الجنة في النار لأهل النار، ومنازل أهل النار في الجنة لأهل الجنة فيرثون منازل أهل النار في الجنة. وهذا هو معنىٰ الإيراث المذكور علىٰ هذا القول.

قال مقيده عفا الله عنه وغفر له: قد جاء حديث يدل لما ذكر من أن لكل أحد منزلاً في الجنة ومنزلاً في النار، إلا أن حمل الآية عليه غير صواب؛ لأن أهل الجنة يرثون من الجنة منازلهم المعدة لهم بأعمالهم وتقواهم، كما قد قال تعالىٰ: ﴿وَنُودُوا أَن تِلْكُمُ الْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [الأعراف: ٤٣]

ونحوها من الآيات.

ولو فرضنا أنهم يرثون منازل أهل النار فحمل الآية على ذلك يوهم أنهم ليس لهم في الجنة إلا ما أورثوا من منازل أهل النار والواقع بخلاف ذلك كما ترى.

والحديث المذكور هو ما رواه الإمام أحمد في المسند، والحاكم في المستدرك من حديث أبي هريرة «**كل أهل الجنة يرى مقعده من النار فيقول: لولا أن الله هداني؛ فيكون له شكر. وكل أهل النار يرى مقعده من الجنة فيقول: لولا أن الله هداني؛ فيكون عليه حسرة**» اهـ. وعلم في «الجامع الصغير» على هذا الحديث علامة الصحة. وقال شارحه المناوي: قال الحاكم: صحيح على شرطهما وأقره الذهبي. وقال الهيثمي: رجال أحمد رجال الصحيح. اهـ.

❊ ❊ ❊

س: وضح المراد بالآية الكريمة ﴿وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلاَّ بِأَمْرِ رَبِّكَ ...﴾!

ج: قال القرطبي رحمه الله:

عن جملة: ﴿**وَمَا نَتَنَزَّلُ**﴾ أي: قال الله تعالى: قل يا جبريل: ﴿**وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلاَّ بِأَمْرِ رَبِّكَ**﴾ وهذا يحتمل وجهين:

أحدهما: إنا إذا أُمِرنا نَزَلْنا عليك.

والثاني: إذا أمرنا ربك نزّلنا عليك، فيكون الأمر على الوجه الأول متوجهًا إلى النزول، وعلى الوجه الثاني متوجهًا إلى التنزيل.

❊ ❊ ❊

س: وضح سبب نزول قوله تعالى: ﴿وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلاَّ بِأَمْرِ رَبِّك ...﴾.

ج: أخرج البخاري[١] من حديث ابن عباس رضي الله عنهما قال:

قال رسول الله ﷺ لجبريل: «ما يَمنعُكَ أن تزورَنا أكثرَ مما تزورُنا؟» فنزلَت ﴿وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلاَّ بِأَمْرِ رَبِّكَ لَهُ مَا بينَ أَيْدِينَا وَمَا خَلْفَنَا﴾.

* * *

س: اذكر بمزيدٍ من التفصيل معنى قوله تعالى: ﴿لَهُ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا وَمَا خَلْفَنَا﴾!

ج: قال القرطبي رحمه الله:

وقوله تعالى: ﴿لَهُ﴾ أي: لله، ﴿مَا بَيْنَ أَيْدِينَا﴾ أي: علم ما بين أيدينا، ﴿وَمَا خَلْفَنَا وَمَا بَيْنَ ذَلِكَ﴾ قال ابن عباس وابن جريج: ما مضى أمامنا من أمر الدنيا، وما يكون بعدنا من أمرها وأمر الآخرة، ﴿وَمَا بَيْنَ ذَلِكَ﴾ من البرزخ.

وقال قتادة ومقاتل: «له ما بين أيدينا» من أمر الآخرة، ﴿وَمَا خَلْفَنَا﴾ ما مضى من الدنيا، ﴿وَمَا بَيْنَ ذَلِكَ﴾ ما بين النفختين، وبينهما أربعون سنة.

الأخفش؛ ﴿مَا بَيْنَ أَيْدِينَا﴾: ما كان قبل أن نُخلق؛ ﴿وَمَا خَلْفَنَا﴾ ما يكون بعد أن نموت ﴿وَمَا بَيْنَ ذَلِكَ﴾ ما يكون منذ خلقنا إلى أن نموت.

---

(١) البخاري (٤٧٣١).

وقيل: ﴿مَا بَيْنَ أَيْدِينَا﴾ من الثواب والعقاب وأمور الآخرة.

﴿وَمَا خَلْفَنَا﴾ ما مضىٰ من أعمالنا في الدنيا، ﴿وَمَا بَيْنَ ذَٰلِكَ﴾ أي: ما يكون من هذا الوقت إلىٰ يوم القيامة.

ويحتمل خامسًا: ﴿مَا بَيْنَ أَيْدِينَا﴾ السماء: ﴿وَمَا خَلْفَنَا﴾: الأرض، ﴿وَمَا بَيْنَ ذَٰلِكَ﴾ أي: ما بين السماء والأرض.

وقال ابن عباس في رواية: ﴿لَهُ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا﴾: يريد الدنيا إلىٰ الأرض ﴿وَمَا خَلْفَنَا﴾: يريد السموات ـ وهذا علىٰ عكس ما قبله ـ ﴿وَمَا بَيْنَ ذَٰلِكَ﴾: يريد الهواء؛ ذكر الأوّل الماوردي والثاني القشيري.

الزمخشري: وقيل ما مضىٰ من أعمارنا وما غبر منها، والحال التي نحن فيها.

ولم يقل: ما بين ذينك لأن المراد ما بين ما ذكرنا؛ كما قال: ﴿لَّا فَارِضٌ وَلَا بِكْرٌ عَوَانٌ بَيْنَ ذَٰلِكَ﴾ [البقرة: ٦٨] أي: بين ما ذكرنا. ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا﴾ أي: ناسيًا، إذا شاء أن يرسل إليك أرسل.

وقيل: المعنىٰ لم ينسك وإن تأخر عنك الوحي. وقيل: المعنىٰ أنه عالم بجميع الأشياء متقدمها ومتأخرها، ولا ينسىٰ شيئًا منها.

* * *

بعض الحديث عن منكري البعث

﴿ وَيَقُولُ ٱلۡإِنسَٰنُ أَءِذَا مَا مِتُّ لَسَوۡفَ
أُخۡرَجُ حَيًّا ﴿٦٦﴾ أَوَلَا يَذۡكُرُ ٱلۡإِنسَٰنُ أَنَّا خَلَقۡنَٰهُ مِن قَبۡلُ
وَلَمۡ يَكُ شَيۡـٔٗا ﴿٦٧﴾ فَوَرَبِّكَ لَنَحۡشُرَنَّهُمۡ وَٱلشَّيَٰطِينَ ثُمَّ
لَنُحۡضِرَنَّهُمۡ حَوۡلَ جَهَنَّمَ جِثِيّٗا ﴿٦٨﴾ ثُمَّ لَنَنزِعَنَّ مِن كُلِّ
شِيعَةٍ أَيُّهُمۡ أَشَدُّ عَلَى ٱلرَّحۡمَٰنِ عِتِيّٗا ﴿٦٩﴾ ثُمَّ لَنَحۡنُ أَعۡلَمُ بِٱلَّذِينَ
هُمۡ أَوۡلَىٰ بِهَا صِلِيّٗا ﴿٧٠﴾ وَإِن مِّنكُمۡ إِلَّا وَارِدُهَاۚ كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ
حَتۡمٗا مَّقۡضِيّٗا ﴿٧١﴾ ثُمَّ نُنَجِّي ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ وَّنَذَرُ ٱلظَّٰلِمِينَ
فِيهَا جِثِيّٗا ﴿٧٢﴾ وَإِذَا تُتۡلَىٰ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٖ قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ
لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَيُّ ٱلۡفَرِيقَيۡنِ خَيۡرٞ مَّقَامٗا وَأَحۡسَنُ نَدِيّٗا ﴿٧٣﴾ وَكَمۡ
أَهۡلَكۡنَا قَبۡلَهُم مِّن قَرۡنٍ هُمۡ أَحۡسَنُ أَثَٰثٗا وَرِءۡيٗا ﴿٧٤﴾ قُلۡ مَن
كَانَ فِي ٱلضَّلَٰلَةِ فَلۡيَمۡدُدۡ لَهُ ٱلرَّحۡمَٰنُ مَدًّاۚ حَتَّىٰٓ إِذَا رَأَوۡاْ مَا يُوعَدُونَ
إِمَّا ٱلۡعَذَابَ وَإِمَّا ٱلسَّاعَةَ فَسَيَعۡلَمُونَ مَنۡ هُوَ شَرّٞ مَّكَانٗا
وَأَضۡعَفُ جُندٗا ﴿٧٥﴾ وَيَزِيدُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ٱهۡتَدَوۡاْ هُدٗىۗ
وَٱلۡبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ خَيۡرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابٗا وَخَيۡرٞ مَّرَدًّا ﴿٧٦﴾ ﴾

س: اذكر معنى ما يلي:

أُخرج حيًّا ـ ولم يك شيئا ـ لنحشرنهم والشياطين ـ جثيًّا ـ شيعة ـ عتيًّا ـ أولى بها صليًا ـ واردها ـ حتمًا مقضيًّا ـ بينات ـ مقامًا ـ نديًّا ـ أثاثًا ـ رئيا ـ في الضلالة ـ فليمدد له الرحمن مدًّا ـ شرٌّ مكانًا ـ أضعف جندًا ـ خير عند ربك ثوابًا ـ خيرٌ مردًّا.

ج:

الكلمة	معناها
﴿ أُخْرَجُ حَيًّا ﴾	أُبعث حيًّا ـ أخرج من القبور يوم القيامة حيًّا للحساب .
﴿ وَلَمْ يَكُ شَيْئًا ﴾	لم يكن شيئًا يُذكر ويُلتفت إليه كان عدمًا ـ كان لا شيء .
﴿ لَنَحْشُرَنَّهُمْ وَالشَّيَاطِينَ ﴾	لنجمعنهم يوم القيامة مع الشياطين. لنجمعنهم مقترنين بأوليائهم .
﴿ جِثِيًّا ﴾	بُروكًا على الرُّكب ـ قعودًا .
﴿ شِيعَةٍ ﴾	جماعةٍ ـ فرقةٍ، والشيعة : الجماعة المتعاونون على أمرٍ من الأمور . .
﴿ عِتِيًّا ﴾	تمردًا ـ عصيانًا .
﴿ أَوْلَى بِهَا صِلِيًّا ﴾	أحق بالعذاب الشديد ـ أحق بالنار أن يصلاها ويذوق أليم عذابها ، وبمن يستحق تضعيف العذاب .
﴿ وَارِدُهَا ﴾	داخلها ـ مارٌّ عليها ـ مار على الصراط المضروب على جسر جهنم حاضرٌ عندها .
﴿ حَتْمًا مَقْضِيًّا ﴾	قضاءً مقضيًّا (قد قضاه الله وقدَّره وأوجبه في أُم الكتاب) . قسمًا واجبًا (لابد أن يتحقق) .

الكلمة	معناها
﴿ بَيِّنَات ﴾	واضحات (لمن تأملها وفكَّر فيها) ـ ظاهرات الدلالة بينة الحجة .
﴿ مَّقَامًا ﴾	موضع الإقامة والمراد المنازل والبيوت .
﴿ خَيْرٌ مَّقَامًا ﴾	أحسن منزلاً ودارًا .
﴿ نَدِيًّا ﴾	مجلسًا ـ مجتمعًا يجتمعون فيه .
﴿ قَرْن ﴾	جماعة في زمنٍ مُعين .
﴿ أَثَاثًا ﴾	متاعًا (أي متاع البيوت كالمجالس والزينة ونحو ذلك) .
﴿ وَرِءْيًا ﴾	منظرًا ـ صورةً ـ شكلاً .
﴿ فِي الضَّلَالَةِ ﴾	في الكفر .
﴿ فَلْيَمْدُدْ لَهُ الرَّحْمَنُ مَدًّا ﴾	فليدعه الله في طغيانه ، وليزده الله من الطغيان والضلال .
﴿ شَرٌّ مَّكَانًا ﴾	أسوأ مسكنًا وإقامة .
﴿ وَأَضْعَفُ جُندًا ﴾	أقل جُندًا وأضعفهم .
﴿ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا ﴾	خيرٌ جزاء عند الله .
﴿ وَخَيْرٌ مَّرَدًّا ﴾	خير ما يلقاه المرء يوم القيامة . وقوله خيرٌ أي أفضل مما افتخر به الكفار في الدنيا ، والمرد : المرجع على صاحبها بالثواب فكل واحد يرد عليه ثواب عمله الذي عمله في الدنيا ، وخير هؤلاء الذين جاءهم ثواب الباقيات الصالحات التي عملوها .

س: من الإنسان القائل أإذا ما مت لسوف أُخرج حيًّا ؟

ج: هذا هو الإنسان الكافر المُنكر للبعث المُكذِّب بيوم الحساب .

* * *

س: يرد في مواطن كثيرة من كتاب الله عزَّ وجل إنكار الكافر للبعث وتعجبه من ذلك والرد عليه في ذلك وضح بعض هذه المواطن.

ج: من ذلك ما يلي :

قوله تعالى : ﴿وَيَقُولُ الإِنسَانُ أَئِذَا مَا مِتُّ لَسَوْفَ أُخْرَجُ حَيًّا ﴿٦٦﴾ أَوَلا يَذْكُرُ الإِنسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِن قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْئًا﴾ .

وقوله تعالى : ﴿وَقَالُوا أَئِذَا ضَلَلْنَا فِي الأَرْضِ أَئِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ بَلْ هُم بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ كَافِرُونَ ﴿١٠﴾ قُلْ يَتَوَفَّاكُم مَّلَكُ الْمَوْتِ الَّذِي وُكِّلَ بِكُمْ ثُمَّ إِلَى رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ﴾ [السجدة: ١٠، ١١] .

وقوله تعالى : ﴿وَإِن تَعْجَبْ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ أَئِذَا كُنَّا تُرَابًا أَئِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ أُوْلَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ وَأُوْلَئِكَ الأَغْلالُ فِي أَعْنَاقِهِمْ﴾ [الرعد: ٥] .

وقوله تعالى : ﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلاً وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَن يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ ﴿٧٨﴾ قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ﴾ [يس: ٧٨، ٧٩] .

وقوله تعالى في الحديث القدسي : «كذبني ابن آدم ولم يكن له أن يكذبني، وآذاني ابن آدم ولم يكن له أن يؤذيني، أما تكذيبه فقوله: لن يعيدني كما بدأني، وليس أول الخلق بأهون عليَّ من آخره..» الحديث .

* * *

بعض الاستدلالات على البعث

س: كثيرًا ما يستدل على البعث بابتداء الخلق، دلِّل على ذلك!

ج:من الأدلة على ذلك ما يلي:

قوله تعالى: ﴿وَيَقُولُ الإِنسَانُ أَئِذَا مَا مِتُّ لَسَوْفَ أُخْرَجُ حَيًّا (٦٦) أَوَلا يَذْكُرُ الإِنسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِن قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْئًا﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾ [الروم: ٢٧].

أي أن الإعادة أهون من الابتداء.

وقوله تعالى: ﴿أَفَعَيِينَا بِالْخَلْقِ الأَوَّلِ بَلْ هُمْ فِي لَبْسٍ مِّنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ [ق: ١٥].

وقوله تعالى: ﴿يَوْمَ نَطْوِي السَّمَاءَ كَطَيِّ السِّجِلِّ لِلْكُتُبِ كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُ وَعْدًا عَلَيْنَا إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٤].

وقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ النَّشْأَةَ الأُولَى فَلَوْلا تَذَكَّرُونَ﴾ [الواقعة: ٦٢].

وقوله تعالى: ﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلاً وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَن يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ (٧٨) قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ﴾ [يس: ٧٨، ٧٩].

وقوله تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ... ﴾ [الحج: ٥].

* * *

س: اذكر بمزيد من الإيضاح معنى قوله تعالى: ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَحْشُرَنَّهُمْ وَالشَّيَاطِينَ﴾ الآية!

ج: قال القرطبي رحمه الله:

قوله تعالى: ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَحْشُرَنَّهُمْ﴾ أقسم بنفسه بعد إقامة الحجة بأنه يحشرهم من قبورهم إلى المعاد كما يحشر المؤمنين.

﴿ وَالشَّيَاطِينَ﴾ أي: ولنحشرن الشياطين قرناء لهم.

قيل: يحشر كل كافر مع شيطان في سلسلة؛ كما قال: ﴿ احْشُرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ﴾ [الصافات: ٢٢].

الزمخشري: والواو في ﴿ وَالشَّيَاطِينَ﴾ يجوز أن تكون للعطف وبمعنى «مع»، وهي بمعنى «مع» أوقع.

والمعنى أنهم يحشرون مع قرنائهم من الشياطين الذين أغووهم؛ يقرنون كل كافر مع شيطان في سلسلة.

فإن قلت: هذا إذا أريد بالإنسان: الكفرة خاصة، فإن أريد الأناسي على العموم فكيف يستقيم حشرهم مع الشياطين؟

قلت: إذا حشر جميع الناس حشراً واحداً وفيهم الكفرة مقرونين بالشياطين، فقد حشروا مع الشياطين كما حشروا مع الكفرة.

فإن قلت: هلا عزل السعداء عن الأشقياء في الحشر كما عزلوا عنهم في الجزاء.

قلت: لم يفرق بينهم في المحشر، وأحضروا حيث تجاثوا حول جهنم، وأوردوا معهم النار ليشاهد السعداء الأحوال التي نجاهم الله منها وخلصهم، فيزدادوا لذلك غبطة، وسروراً إلىٰ سرور، ويشمتوا بأعداء الله تعالىٰ وأعدائهم؛ فتزداد مساءتهم وحسرتهم، وما يغيظهم من سعادة أولياء الله وشماتتهم بهم.

فإن قلت: ما معنىٰ إحضارهم جثيًّا؟

قلت: أما إذا فسر الإنسان بالخصوص، فالمعنىٰ: أنهم يعتلون من المحشر إلىٰ شاطئ جهنم عَتلاً علىٰ حالهم التي كانوا عليها في الموقف، جثاة علىٰ ركبهم غير مشاة علىٰ أقدامهم.

وذلك أن أهل الموقف وصفوا بالجثو؛ قال الله تعالىٰ: ﴿وَتَرَى كُلَّ أُمَّةٍ جَاثِيَةً﴾ [الجاثية: ٢٨] علىٰ الحالة المعهودة في مواقف المقاولات والمناقلات، من تجاثي أهلها علىٰ الركب.

لما في ذلك من الاستيفاز والقلق، وإطلاق الحُبَا خلاف الطمأنينة؛ أو لما يدهمهم من شدة الأمر التي لا يطيقون معها القيام علىٰ أرجلهم فيجثون علىٰ ركبهم جثواً.

وإن فسر بالعموم، فالمعنىٰ: أنهم يتجاثون عند موافاة شاطئ جهنم.

علىٰ أن «جثيًّا» حال مقدرة كما كانوا في الموقف متجاثين؛ لأنه من توابع التواقف للحساب، قبل التواصل إلىٰ الثواب والعقاب؛ ويقال: إن معنىٰ ﴿لَنُحْضِرَنَّهُمْ حَوْلَ جَهَنَّمَ جِثِيًّا﴾ أي: جثيًّا علىٰ ركبهم.

عن مجاهد وقتادة؛ أي إنهم لشدة ما هم فيه لا يقدرون علىٰ القيام.

﴿وَحَوْلَ جَهَنَّمَ﴾ يجوز أن يكون داخلها؛ كما تقول: جلس القوم حول

البيت أي داخله مطيفين به؛ فقوله: ﴿حَوْلَ جَهَنَّمَ﴾ على هذا يجوز أن يكون بعد الدخول. ويجوز أن يكون قبل الدخول. و﴿جِثِيًّا﴾ جمع جاثٍ.

يقال: جثا على ركبتيه يَجْثوا ويَجْثِي جُثوًّا وجثيًّا على فعول فيهما.

وأجثاه غيره. وقوم جُثيٌّ أيضًا؛ مثل جلس جلوسًا وقوم جلوس، وجِثِي أيضًا بكسر الجيم لما بعدها من الكسر.

وقال ابن عباس: ﴿جِثِيًّا﴾ جماعات.

وقال مقاتل: جمعًا جمعًا؛ وهو على هذا التأويل جمع جُثْوة وجَثْوَة وجِثوة وثلاث لغات، وهي الحجارة المجموعة والتراب المجموع؛ فأهل الخمر على حدة، وأهل الزنا على حدة، وهكذا؛ قال طرفة:

ترى جُثْوتين من تُرابٍ عليهما صفائحُ صُمٌّ من صفيحٍ مُنَضَّدِ

وقال الحسن والضحاك: جاثية على الركب، وهو على هذا التأويل جمع جاثٍ على ما تقدَّم.

وذلك لضيق المكان؛ أي لا يمكنهم أن يجلسوا جلوسًا تامًّا.

وقيل: جثيًّا على ركبهم للتخاصم؛ كقوله تعالى: ﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عِندَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ﴾ [الزمر: ٣١].

وقال الكميت:

هم تَركُوا سَرَاتَهُمُ جِثيًّا وهم دون السراة مقرَّنينا

وقال الشنقيطي رحمه الله:

قوله تعالى: ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَحْشُرَنَّهُمْ وَالشَّيَاطِينَ ثُمَّ لَنُحْضِرَنَّهُمْ حَوْلَ جَهَنَّمَ جِثِيًّا﴾ [مريم: ٦٨].

لما أقام الله جلَّ وعلا البرهان على البعث بقوله: ﴿أَوَلَا يَذْكُرُ الْإِنسَانُ أَنَّا

خَلَقْنَاهُ مِن قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْئًا﴾ أقسم جلَّ وعلا بنفسه الكريمة، أنه يحشرهم أي الكافرين المنكرين للبعث وغيرهم من الناس، ويحشر معهم الشياطين الذين كانوا يضلونهم في الدنيا، وأنه يحضرهم حول جهنم جثيًّا.

وهذان الأمران اللذان ذكرهما في هذه الآية الكريمة أشار إليهما في غير هذا الموضع.

أما حشره لهم ولشياطينهم فقد أشار إليه في قوله: ﴿احْشُرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ وَمَا كَانُوا يَعْبُدُونَ (٢٢) مِن دُونِ اللهِ فَاهْدُوهُمْ إِلَى صِرَاطِ الْجَحِيمِ﴾ [الصافات: ٢٢، ٢٣] على أحد التفسيرات.

وقوله: ﴿حَتَّى إِذَا جَاءَنَا قَالَ يَا لَيْتَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ بُعْدَ الْمَشْرِقَيْنِ فَبِئْسَ الْقَرِينُ﴾ [الزخرف: ٣٨].

وأما إحضارهم حول جهنم جثيًّا فقد أشار له في قوله: ﴿وَتَرَى كُلَّ أُمَّةٍ جَاثِيَةً كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَى إِلَى كِتَابِهَا الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [الجاثية: ٢٨].

* * *

س: وضح المراد بقوله تعالى: ﴿ثُمَّ لَنَنزِعَنَّ مِن كُلِّ شِيعَةٍ أَيُّهُمْ أَشَدُّ عَلَى الرَّحْمَنِ عِتِيًّا﴾!

ج: المراد، والله تعالى أعلم: ثم لنأخذن من كل جماعةٍ من كان في الدنيا أشدهم إجرامًا وتمردًا على الله، وعصيانًا لأمره ومخالفةً لرسله، لنأخذنه أخذًا شديدًا فلنبدأن به، أي: لنبدأن بأكابر الطغاة ثم الأكابر. أي: ننزع من أهل كلِّ دين قادتهم ورؤساءهم في الشر.

وقوله تعالىٰ: ﴿أَيُّهُمْ أَشَدُّ عَلَى الرَّحْمَنِ عِتِيًّا﴾ أي لنستخرجن ولنميزن من كل طائفة من طوائف الغي والفساد أعصاهم فأعصاهم، وأعتاهم فأعتاهم، فيبدأ بتعذيبه وإدخاله النار على حسب مراتبهم في الكفر، والإضلال والضلال.

وهذا هو الظاهر في معنىٰ الآية الكريمة: أن الرؤساء القادة في الكفر يعذبون قبل غيرهم ويشدد عليهم العذاب لضلالهم وإضلالهم.

وقد جاءت آيات من كتاب الله تعالىٰ تدل علىٰ هذا، كقوله تعالىٰ: ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ زِدْنَاهُمْ عَذَابًا فَوْقَ الْعَذَابِ بِمَا كَانُوا يُفْسِدُونَ﴾ [النحل: ٨٨]، وقوله تعالىٰ: ﴿وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالاً مَّعَ أَثْقَالِهِمْ وَلَيُسْأَلُنَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَمَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ [العنكبوت: ١٣]، وقوله: ﴿لِيَحْمِلُوا أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَمِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ أَلا سَاءَ مَا يَزِرُونَ﴾ [النحل: ٢٥] ولأجل هذا كان في أمم النار أولىٰ وأخرىٰ.

فالأولىٰ: التي يبدأ بعذابها وبدخولها النار.

والأخرىٰ: التي تدخل بعدها علىٰ حسب تفاوتهم في أنواع الكفر والضلال، كما قال تعالىٰ: ﴿قَالَ ادْخُلُوا فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُم مِّنَ الْجِنِّ وَالإِنسِ فِي النَّارِ كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَّعَنَتْ أُخْتَهَا حَتَّى إِذَا ادَّارَكُوا فِيهَا جَمِيعًا قَالَتْ أُخْرَاهُمْ لأُولاهُمْ رَبَّنَا هَؤُلاءِ أَضَلُّونَا فَآتِهِمْ عَذَابًا ضِعْفًا مِّنَ النَّارِ قَالَ لِكُلٍّ ضِعْفٌ وَلَكِن لاَّ تَعْلَمُونَ (٣٨) وَقَالَتْ أُولاهُمْ لأُخْرَاهُمْ فَمَا كَانَ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ﴾ [الأعراف: ٣٨، ٣٩].

❊ ❊ ❊

مبحث حول قوله تعالى

﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلاَّ وَارِدُهَا﴾

س: وضح معنى قول الله تعالى: ﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلاَّ وَارِدُهَا كَانَ عَلَى رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا﴾.

ج: قال الطبري رحمه الله: وإن منكم أيها الناس إلا وارد جهنم كان على ربك يا محمد إيراد هموما قضاء مقضيا، قد قضى ذلك وأوجبه في أم الكتاب.

* * *

س: لأهل العلم جملة أقوال في المراد بالورود في قوله تعالى: ﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلاَّ وَارِدُهَا﴾ اذكر بعض هذه الأقوال.

ج: بين يدي إيراد هذه الأقوال أُذكر أولاً بالآيات الكريمات التي ذكر فيها الورود، فمن ذلك ما يلي:

قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِّنَ النَّاسِ يَسْقُونَ﴾ [القصص: ٢٣].

وقوله تعالى: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَارِدُونَ﴾ [الأنبياء: ٩٨].

وقوله تعالى في شأن فرعون: ﴿يَقْدُمُ قَوْمَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَأَوْرَدَهُمُ النَّارَ وَبِئْسَ الْوِرْدُ الْمَوْرُودُ﴾ [هود: ٩٨].

وقوله تعالى: ﴿وَجَاءَتْ سَيَّارَةٌ فَأَرْسَلُوا وَارِدَهُمْ فَأَدْلَى دَلْوَهُ﴾ [يوسف: ١٩].

وقوله تعالى: ﴿وَنَسُوقُ الْمُجْرِمِينَ إِلَى جَهَنَّمَ وِرْدًا﴾ [مريم: ٨٦].

وهذه أيضًا آيات لا يستغنى عنها عند تفسير هذه الآية الكريمة فمن ذلك:

قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [الأحقاف: ١٣].

ونحوها قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ (٣٠) نَحْنُ أَوْلِيَاؤُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِي أَنفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ (٣١) نُزُلًا مِّنْ غَفُورٍ رَّحِيمٍ﴾ [فصلت: ٣٠، ٣١].

وقوله تعالى: ﴿فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [البقرة: ٣٨].

وقوله تعالى: ﴿لَا يَحْزُنُهُمُ الْفَزَعُ الْأَكْبَرُ وَتَتَلَقَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ هَذَا يَوْمُكُمُ الَّذِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ﴾ [الأنبياء: ١٠٣].

وهناك أدلة أيضًا تُشعر بأن أهل الإيمان ينالهم شيء من الهم والكرب، فمن ذلك حديث الشفاعة الطويل، وفيه أن الناس يبلغ بهم من الهمِّ والكرب ما لا يطيقون ولا يحتملون.

ومنه قول النبي ﷺ: «يقولُ الله تعالى لآدمَ يومَ القيامة: يا آدمُ فيقول: لبيك ربَّنا وسعديك فيُنادى إن الله يأمُرك أن تخرج من ذريتك بعثًا إلى النار قال: يا رب وما بعثُ النار؟ قال: من كل ألف تسعمائة وتسعة وتسعين،

فحينئذ تضع الحامل حملها ويشيب الوليد وترى الناس سكارى وما هم بسكارى ولكن عذاب الله شديد»[١] الحديث.

ومنه قول النبي ﷺ: «إنكم محشورون إلى الله عزَّ وجل حفاةً عراةً غرلاً، كما بدأنا أولَ خلقٍ نعيدُه...» الحديث، وفيه أن عائشة قالت: يا رسول الله الرجال والنساء ينظر بعضهم إلى بعض؟ قال: «الأمر أشد من أن يهمهم ذلك»[٢].

وعند مسلم أيضًا من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «أما أهل النار الذين هم أهلها فإنهم لا يموتون فيها ولا يحيون، ولكن أقوامًا أصابتهم النار بخطاياهم أو بذنوبهم فأماتتهم إماتة حتى إذا صاروا فحمًا أُذن لهم في الشفاعة»[٣].

* * *

(١) أخرجه البخاري (٤٧٤١)، ومسلم (٢٢٢) من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه مرفوعًا.

(٢) أخرجه البخاري (حديث ٦٥٢٧)، ومسلم (حديث ٢٨٥٩) من حديث عائشة رضي الله عنها مرفوعًا.

(٣) مسلم (حديث ١٨٥).

وهذه بعض الأحاديث
التي قد يستعان بها في تفسير الورود

أخرج الإمام مسلم[١] من طريق جابر بن عبدالله رضي الله عنهما: قال أخبرتني أم مُبشر أنَّهَا سمِعْتِ النبي ﷺ يقُولُ عنْد حفْصَةَ: «**لاَ يَدْخُلُ النَّارَ، إنْ شَاءَ الله، منْ أصْحَابِ الشَّجَرَة، أَحَدٌ، الذين بايعُوا تحتها**» قالتْ: بلَى، يا رسولُ الله! فانْتَهرَهَا، فَقَالَتْ حَفْصَة: ﴿**وَإِن مِّنكُمْ إِلاَّ وَارِدُهَا**﴾ [مريم: ٧١]، فَقَالَ النَّبيُّ ﷺ: «**قَدْ قَال الله عزَّ وجَلَّ: ﴿ ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوْا وَّنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا ﴾**»[٢] [مريم: ٧٢].

وأخرج مسلم[٣] في «صحيحه» من حديث أبي هريْرَةَ، عنِ النَّبِيِّ ﷺ قال: «**لاَ يمُوتُ لأحَدٍ منَ المسْلمِينَ ثلاثةٌ منَ الوَلَدِ فتَمَسَّهُ النَارُ، إلا تحلَّة القَسَمِ**».

وفي رواية أخرىٰ عند مسلم:

أنَّ رسولَ الله ﷺ قال لنسْوَة منَ الأنْصَارِ: «**لاَ يَمُوتُ لإحْدَاكُنَّ ثلاثةٌ منَ الولدِ فتحْتسبَهُ، إلا دخلَتِ الجنَّةَ**» فقالتِ امرَأَةٌ منْهُنَّ: أوِ اثنَيْنِ؟ يا رسول الله! قال: «**أوِ اثْنَيْنِ**».

---

(١) مسلم (حديث ٢٤٩٦).

(٢) وأخرجه الطبري (٢٣٨٥٨): لا يدخل النار أحدٌ شهد بدرًا والحديبية.. الحديث.

(٣) مسلم (٢٦٣٢).

وأخرج الإمام أحمد(١) رحمه الله تعالىٰ من طريق أبي سمية قال: اختلفنا ها هنا في الورود فقال بعضنا: لا يدخلها مؤمن، وقال بعضنا: يدخلونها جميعًا ثم ينجي الله الذين اتقوا فلقيت جابر بن عبدالله فقلت له: إنا اختلفنا في ذلك الورود فقال بعضنا: لا يدخلها مؤمن وقال بعضنا: يدخلونها جميعًا فاهوىٰ بإصبعيه إلىٰ أذنيه وقال: صمتًا إن لم أكن سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**الورود الدخول لا يبقى برٌّ ولا فاجر إلا دخلها فتكون على المؤمن بردًا وسلامًا كما كانت على إبراهيم حتى إن للنار - أو قال لجهنم - ضجيجًا من بردهم ثم ينجي الله الذين اتقوا ويذر الظالمين فيها**».

وهذه أيضًا بعض الآثار:

أثر جابر بن عبدالله رضي الله عنهما:

أخرج الطبري(٢) بسندٍ صحيح عن جابر بن عبدالله رضي الله عنهما وقد سُئل عن الورود، فقال: «نحن يوم القيامة علىٰ كوىٰ أو كرىٰ، فوق الناس، فتدعىٰ الأمم بأوثانها، وما كانت تعبد الأوّلَ فالأوّلَ، فينطلق بهم ويتبعونه، قال: ويُعطىٰ كلُّ إنسانٍ منافق ومؤمن نورًا، ويغشىٰ ظلمة ثم يتبعونه، وعلىٰ جسر جهنمَ كلاليبُ تأخذ من شاء الله، فيطْفأ نور المنافق، وينجو المؤمنون، فتنجو أوّلُ زمرة كالقمر ليلة البدر، وسبعون ألفًا لا حساب عليهم، ثم الذين يلونهم كأضوأ نجمٍ في السماء، ثم كذلك ثم، تحلّ الشفاعة فيشفعون، ويخرج من النار من قال لا إله إلا الله ممن في قلبه وزن شعيرة من خير، ثم يلقون تلقاء الجنة، ويُهريقُ عليهم أهلُ الجنةِ الماءَ،

---

(١) أحمد في المسند (٣/ ٣٢٨-٣٢٩).

(٢) الطبري أثر (٢٣٨٥٥).

فينبتـون نبات الشيء في السيل، ثـم يسألون فيجُعل لهم الدنيا وعشرةُ أمثالها».

أثر أبي هريرة رضي الله عنه:

أخرج الطبري[(١)] بسندٍ صحيح عن بكيرٍ أنه قال لبسر بن سعيد: إن فلانًا يقول: إن ورود النار: القيام عليها.

قال بسرٌ: أما أبو هريرةَ فسمعتُهُ يقول: إذا كان يومُ القيامة يجتمع الناس، نادىٰ منادٍ: ليلحق كلُّ أناسٍ بما كانوا يعبدون، فيقومُ هذا إلىٰ الحجر، وهذا إلىٰ الفرس، وهذا إلىٰ الخشبة حتىٰ يبقىٰ الذين يعبدون الله، فيأتيهم الله، فإذا رأوه قاموا إليه، فيذهب بهم فيسلك بهم علىٰ الصراط، وفيه عليق، فعند ذلك يؤْذن بالشفاعة، فيمر الناس، والنبيون يقولون: اللهمّ سلِّم سلِّم.

قال بكير: فكان ابن عميرة يقول: فناج مسلم ومنكوس في جهنم ومخدوش، ثم ناج.

أثر ابن مسعود رضي الله عنه:

أخرج الطبري[(٢)] بسنده إلىٰ ابن مسعود:

في قوله: ﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلاَّ وَارِدُهَا﴾ قال: الصراط علىٰ جهنم مثل حدِّ السيف فتمرُّ الطبقة الأولىٰ كالبرق، والثانية كالريح، والثالثة كأجود الخيل، والرابعة كأجود البهائم. ثم يمرُّون والملائكة يقولون: اللهمّ سلم سلم.

---

(١) الطبري أثر (٢٣٨٥٧).

(٢) الطبري أثر (٢٣٨٤٦).

أما عن أقوال العلماء فهذا حاصلها:

أولاً: قول القائل: إن المراد بالورود هنا الدخول واستدل قائلوه بأن الله تبارك وتعالى قال: ﴿ **إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَارِدُونَ** ﴾ [الأنبياء: ٩٨].

وبقوله تعالى في شأن فرعون: ﴿ **يَقْدُمُ قَوْمَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَأَوْرَدَهُمُ النَّارَ وَبِئْسَ الْوِرْدُ الْمَوْرُودُ** ﴾ [هود: ٩٨].

ثانيًا: ذهب بعض أهل العلم إلى أن الورود هو المرور على الصراط.

ثالثًا: ذهب بعض أهل العلم إلى أن الورود هو الحضور والشهود والرؤية، فينجي الله أهل الإيمان وينتقم من أهل الجحود والكفر والعصيان.

هذا، وقد ذهب بعض العلماء إلى أن المراد بالآية الكريمة الحمى التي يُصاب بها بنو آدم في الدنيا فقالوا وورود المؤمن: ما يصيبه في الدنيا من حمىً ومرض، واستدل لهذا القول بحديث: «**الحمى من فيح جهنم فأبردوها بالماء**».

وقال بعض أهل العلم: الورود هو الدخول ولكن عنى ربنا سبحانه وتعالى الكفار دون المؤمنين.

أي: وإن منكم أيها الكفار إلا داخلها.

لكن قوله تعالى: ﴿ **ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوْا** ﴾ يُعكر على هذا التأويل.

وقال بعض أهل العلم: إن الورود عامٌّ لكل مؤمن وكافر غير أن ورود المؤمن: المرور، وورود الكافر: الدخول.

قال ابن زيد[١]: وورود المسلمين: المرور على الجسر بين ظهريها، وورود المشركين: أن يدخلوها.

وهذه بعض النقولات عنهم:

قال الطبري رحمه الله تعالى:

وأولى الأقوال في ذلك بالصواب قول من قال: يردها الجميع ثم يصدر عنها المؤمنون، فينجيهم الله، ويهوي فيها الكفار.

وورودهموها: هو ما تظاهرت به الأخبار عن رسول الله ﷺ من مرورهم على الصراط المنصوب على متن جهنم، فناج مسلم ومكدس فيها.

وقال القرطبي رحمه الله تعالى:

بعد أن أورد طائفة كبيرة من الأقوال:

وقال الأكثر: المخاطب العالم كله، ولابد من ورود الجميع، وعليه نشأ الخلاف في الورود.

وقد بينا أقوال العلماء فيه.

وظاهر الورود الدخول؛ لقوله عليه الصلاة والسلام: «**فتمسَّه النار**» لأن المسيس حقيقته في اللغة المماسة، إلا أنها تكون بردًا وسلامًا على المؤمنين، وينجون منها سالمين.

قال خالد بن معدان: إذا دخل أهل الجنةِ الجنةَ قالوا ألم يقل ربنا: إنا نرد النار؟ فيقال: لقد وردتموها فألفيتموها رمادًا.

---

(١) الطبري أثر (٢٣٨٤٩) بإسنادٍ صحيح إلى ابن زيد.

قلت: وهذا القول يجمع شتات الأقوال؛ فإن من وردها ولم تؤذه بلهبها وحرها فقد أبعد عنها ونُجِّي منها.

نجانا الله تعالىٰ منها بفضله وكرمه، وجعلنا ممن وردها فدخلها سالمًا، وخرج منها غانمًا.

فإن قيل: فهل يدخل الأنبياء النار؟ قلنا: لا نطلق هذا، ولكن نقول: إن الخلق جميعًا يردونها كما دل عليه حديث جابر أوّل الباب؛ فالعصّاة يدخلونها بجرائمهم، والأولياء والسعداء لشفاعتهم فبين الدخولين بَوْنٌ.

وقال **ابن الأنباري** محتجًّا لمصحف عثمان وقراءة العامة: جائز في اللغة أن يرجع من خطاب الغيبة إلىٰ لفظ المواجهة بالخطاب؛ كما قال: ﴿**وَسَقَاهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا (٢١) إِنَّ هَذَا كَانَ لَكُمْ جَزَاءً وَكَانَ سَعْيُكُم مَّشْكُورًا**﴾ [الإنسان: ٢١، ٢٢] فأبدل الكاف من الهاء.

وقال الشنقيطي رحمه الله تعالى في «أضواء البيان»:

قوله تعالىٰ: ﴿**وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا كَانَ عَلَى رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا (٧١) ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوْا وَّنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا**﴾ [مريم: ٧٠، ٧١].

اختلف العلماء في المراد بورود النار في هذه الآية الكريمة علىٰ أقوال:

الأول: أن المراد بالورود الدخول، ولكن الله يصرف أذاها عن عباده المتقين عند ذلك الدخول.

الثاني: أن المراد بورود النار المذكور: الجواز علىٰ الصراط، لأنه جسر منصوب علىٰ متن جهنم.

الثالث: أن الورود المذكور هو الإشراف عليه والقرب منها.

الرابع: أن حظ المؤمنين من ذلك الورود هو حر الحمَّىٰ في دار الدنيا.

وقد قدمنا في ترجمة هذا الكتاب المبارك: أن من أنواع البيان التي تضمنها الاستدلال علىٰ أحد المعاني الداخلة في معنىٰ الآية بكونه هو الغالب في القرآن فغلبته فيه دليل استقرائي علىٰ عدم خروجه من معنىٰ الآية.

وقد قدمنا أمثلة لذلك.

فإذا علمت ذلك ـ فاعلم أن ابن عباس رضي الله عنهما استدل علىٰ المراد بورود النار في الآية بمثل ذلك الدليل الذي ذكرنا أنه من أنواع البيان في هذا الكتاب المبارك.

وإيضاحه: أن ورود النار جاء في القرآن، في آيات متعددة، والمراد في كل واحدة منها الدخول.

فاستدل بذلك ابن عباس علىٰ أن الورود في الآية التي فيها النزاع هو الدخول، لدلالة الآيات الأخرىٰ علىٰ ذلك، كقوله تعالىٰ: ﴿**يَقْدُمُ قَوْمَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَأَوْرَدَهُمُ النَّارَ وَبِئْسَ الْوِرْدُ الْمَوْرُودُ**﴾ [هود:٩٨] قال: فهذا ورود دخول، وكقوله: ﴿**لَوْ كَانَ هَؤُلاءِ آلِهَةً مَّا وَرَدُوهَا وَكُلٌّ فِيهَا خَالِدُونَ**﴾ [الأنبياء: ٩٩] فهو ورود دخول أيضًا وكقوله: ﴿**وَنَسُوقُ الْمُجْرِمِينَ إِلَى جَهَنَّمَ وِرْدًا**﴾ [مريم:٨٦] وقوله تعالىٰ: ﴿**إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَارِدُونَ**﴾ [الأنبياء: ٩٨] وبهذا استدل ابن عباس علىٰ نافع بن الأزرق في أن الورود الدخول.

واحتج من قال بأن الورود: الإشراف والمقاربة بقوله تعالىٰ: ﴿**وَلَمَّا وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ ..**﴾ [القصص: ٢٣] الآية.

قال: فهذا ورود مقاربة وإشراف عليه.

وكذا قوله تعالىٰ: ﴿**فَأَرْسَلُوا وَارِدَهُمْ** ..﴾ [يوسف: ١٩] الآية. ونظيره من كلام العرب قول زهير بن أبي سلمىٰ في معلقته:

فلما وردن الماء زرقًا جمامه وضعن عصي الحاضر المتخيم

قالوا: والعرب تقول: وردت القافلة البلد وإن لم تدخله، ولكن قربت منه.

واحتج من قال بأن الورود في الآية التي نحن بصددها ـ ليس نفس الدخول بقوله تعالىٰ: ﴿**إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا الْحُسْنَىٰ أُولَٰئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ (١٠١) لَا يَسْمَعُونَ حَسِيسَهَا وَهُمْ فِي مَا اشْتَهَتْ أَنفُسُهُمْ خَالِدُونَ**﴾ [الأنبياء: ١٠٢].

قالوا: إبعادهم عنها المذكور في هذه الآية يدل علىٰ عدم دخولهم فيها؛ فالورود غير الدخول.

واحتج من قال: بأن ورود النار في الآية بالنسبة للمؤمنين ـ حر الحمىٰ في دار الدنيا ـ بحديث: «**الحمَّى من فيح جهنم فأبردوها بالماء**» وهو حديث متفق عليه من حديث عائشة وأسماء ابنتي أبي بكر، وابن عمر ورافع بن خديج رضي الله عنهم. ورواه البخاري أيضًا مرفوعًا عن ابن عباس:

قال مقيده عفا الله عنه وغفر له: قد دلت علىٰ أن الورود في الآية معناه الدخول ـ أدلة:

الأول: هو ما ذكره ابن عباس رضي الله عنهما من أن جميع ما في القرآن من ورود النار معناه دخولها غير محل النزاع، فدل ذلك علىٰ أن محل النزاع كذلك، وخير ما يفسر به القرآن القرآن.

الدليل الثاني: هو أن في نفس الآية قرينة دالة على ذلك، وهي أنه تعالى لما خاطب جميع الناس بأنهم سيردون النار برهم وفاجرهم بقوله: ﴿**وَإِن مِّنكُمْ إِلاَّ وَارِدُهَا كَانَ عَلَى رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا**﴾ [مريم: ٧١] بين مصيرهم ومآلهم بعد ذلك الورود المذكور بقوله: ﴿**ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوْا وَّنَذَرُ الظَّالِمِينَ**﴾ [مريم: ٧٢] أي نترك الظالمين فيها ـ دليل على أن ورودهم لها دخولهم فيها، إذ لو لم يدخلوها لم يقل: ﴿**وَّنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا**﴾؛ بل يقول: وندخل الظالمين، وهذا واضح كما ترى وكذلك قوله: ﴿**ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوْا**﴾ دليل على أنهم وقعوا فيما من شأنه أنه هلكة، ولذا عطف على قوله: ﴿**وَإِن مِّنكُمْ إِلاَّ وَارِدُهَا**﴾ قوله: ﴿**ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوْا**﴾.

الدليل الثالث: ما روي من ذلك عن النبي ﷺ. قال صاحب «الدر المنثور» في الكلام على هذه الآية الكريمة: أخرج أحمد وعبد بن حميد، والحكيم الترمذي، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والحاكم وصححه، وابن مردويه، والبيهقي في «البعث»، عن أبي سميحة قال: اختلفنا في الورود فقال بعضنا: لا يدخلها مؤمن.

وقال بعضهم: يدخلونها جميعًا ثم ينجي الله الذين اتقوا. فلقيت جابر ابن عبدالله رضي الله عنهما فذكرت له ذلك فقال وأهوى بأصبعيه إلى أذنيه: صمتًا إن لم أكن سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**لا يبقى بر ولا فاجر إلا دخلها: فتكون على المؤمنين بردًا وسلامًا كما كانت على إبراهيم، حتى إن للنار ضجيجًا من بردهم، ثم ينجي الله الذين اتقوا ويذر الظالمين فيها جثيًا**». اهـ.

وقال ابن حجر في «الكاف الشاف في تخريج أحاديث الكشاف» في هذا الحديث: رواه أحمد وابن أبي شيبة، وعبد بن حميد، قالوا: حدثنا

سليمان بن حرب، وأخرجه أبو يعلىٰ والنسائي في «الكنىٰ» والبيهقي في «الشعب» في باب النار، والحكيم في «النوادر»، كلهم من طريق سليمان قال: حدثنا أبو صالح غالب بن سليمان، عن كثير بن زياد عن أبي سمية قال: اختلفنا في الورود فسألنا جابراً فذكر الحديث أتم من اللفظ الذي ذكره الزمخشري، وخالفهم كلهم الحاكم فرواه من طريق سليمان بهذا الإسناد، فقال: عن سمية الأزدية عن عبدالرحمن بن شيبة بدل أبي سمية عن جابر. اهـ.

وقال ابن كثير رحمه الله في تفسير هذه الآية: قال الإمام أحمد: حدثنا سليمان بن حرب، حدثنا غالب بن سليمان، عن كثير بن زياد البرساني، عن أبي سمية قال: اختلفنا في الورود فقال بعضنا: لا يدخلها مؤمن.

وقال بعضهم: يدخلونها جميعًا ثم ينجي الله الذين اتقوا، فلقيت جابر بن عبدالله فقلت: إنا اختلفنا في الورود فقال: يدخلونها جميعًا. ثم ذكر الحديث المتقدم.

ثم قال ابن كثير رحمه الله: غريب ولم يخرجوه.

قال مقيده عفا الله عنه وغفر له: الظاهر أن الإسناد المذكور لا يقل عن درجة الحسن لأن طبقته الأولىٰ: سليمان بن حرب، وهو ثقة إمام حافظ مشهور.

وطبقته الثانية: أبو صالح أو أبو سلمة غالب بن سليمان العتكي الجهضمي الخراساني أصله من البصرة، وهو ثقة.

وطبقته الثالثة: كثير بن زياد أبو سهل البرساني. نصري نزل بلخ، وهو ثقة.

وطبقته الرابعة: أبو سمية وقد ذكره ابن حبان في الثقات، قاله ابن حجر في «تهذيب التهذيب»: وبتوثيق أبي سمية المذكور تتضح صحة الحديث، لأن غيره من رجال هذا الإسناد معروفون، مع أن حديث جابر المذكور يعتضد بظاهر القرآن وبالآيات الأخرىٰ التي استدل بها ابن عباس ـ وآثار جاءت عن علماء السلف رضي الله عنهم كما ذكره ابن كثير عن خالد بن معدان، وعبدالله بن رواحة رضي الله عنه، وذكره هو وابن جرير عن أبي ميسرة، وذكره ابن كثير عن عبدالله بن المبارك عن الحسن البصري، كلهم يقولون: إنه ورود دخول.

وأجاب من قال: بأن الورود في الآية: الدخول من قوله تعالىٰ: ﴿أُوْلَئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ﴾ [الأنبياء: ١٠١] بأنهم مبعدون عن عذابها وألمها.

فلا ينافي ذلك ورودهم إياها من غير شعورهم بألم ولا حر منها كما أوضحناه في كتابنا «دفع إيهام الاضطراب عن آيات الكتاب» في الكلام علىٰ هذه الآية الكريمة.

وأجابوا عن الاستدلال بحديث «**الحمى من فيح جهنم**» بالقول بموجبه، قالوا: الحديث حق صحيح ولكنه لا دليل فيه لمحل النزاع، لأن السياق صريح في أن الكلام في النار في الآخرة وليس في حرارة منها في الدنيا، لأن أول الكلام قوله تعالىٰ: ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَحْشُرَنَّهُمْ وَالشَّيَاطِينَ ثُمَّ لَنُحْضِرَنَّهُمْ حَوْلَ جَهَنَّمَ جِثِيًّا﴾ إلىٰ أن قال: ﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلاَّ وَارِدُهَا﴾ فدل علىٰ أن كل ذلك في الآخرة لا في الدنيا كما ترىٰ.

والقراءة في قوله تعالىٰ: ﴿جِثِيًّا﴾ كما قدمنا في قوله: ﴿ثُمَّ لَنُحْضِرَنَّهُمْ حَوْلَ جَهَنَّمَ جِثِيًّا﴾، وقوله: ﴿ثُمَّ نُنَجِّي﴾ قراءة الكسائي بإسكان النون الثانية وتخفيف الجيم، وقرأه الباقون بفتح النون الثانية وتشديد الجيم.

وقد ذكرنا في كتابنا «دفع إيهام الاضطراب عن آيات الكتاب» أن جماعة رووا عن ابن مسعود: أن ورود النار المذكور في الآية هو المرور عليها، لأن الناس تمر على الصراط وهو جسر منصوب على متن جهنم.

وأن الحسن وقتادة روي عنهما نحو ذلك أيضًا.

وروي عن ابن مسعود أيضًا مرفوعًا: أنهم يردونها جميعًا ويصدرون عنها بحسب أعمالهم. وعنه أيضًا تفسير الورود بالوقوف عليها. والعلم عند الله تعالى.

وقوله تعالى في الآية الكريمة: ﴿كَانَ عَلَى رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا﴾ يعني: أن ورودهم النار المذكور كان حتمًا على ربك مقضيًا، أي: أمرًا واجبًا مفعولاً لا محالة، والحتم: الواجب الذي لا محيد عنه. ومنه قول أمية بن أبي الصلت الثقفي:

عبادك يخطئون وأنت رب يكفيك المنايا والحتوم

فقوله: «والحتوم» جمع حتم، يعني الأمور الواجبة التي لابد من وقوعها. وما ذكره جماعة من أهل العلم من أن المراد بقوله: ﴿حَتْمًا مَّقْضِيًّا﴾: قسمًا واجبًا، كما روي عن عكرمة وابن مسعود ومجاهد وقتادة وغيرهم - لا يظهر كل الظهور.

واستدل من قال: إن في الآية قسمًا بحديث أبي هريرة الثابت في «الصحيحين».

قال البخاري في «صحيحه»: حدثنا علي، حدثنا سفيان قال: سمعت الزهري عن سعيد بن المسيب، عن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال: «لا يموت لمسلم ثلاثة من الولد فيلج النار إلا تحلة القسم» قال أبو

عبدالله: ﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلاَّ وَارِدُهَا﴾. اهـ.

وقال مسلم في «صحيحه»: حدثنا يحيى بن يحيى قال: قرأت على مالك، عن ابن شهاب عن سعيد بن المسيب، عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ قال: «**لا يموت لأحد من المسلمين ثلاثة من الولد فتمسه النار إلا تحلة القسم**».

حدثنا أبو بكر بن أبي شيبة، وعمرو الناقد، وزهير بن حرب قالوا: حدثنا سفيان بن عيينة (ح)، وحدثنا عبد بن حميد، وابن رافع، عن عبدالرزاق، أخبرنا معمر كلاهما عن الزهري بإسناد مالك، وبمعنى حديثه إلا أن في حديث سفيان «**فيلج النار إلا تحلة القسم**». اهـ.

قالوا: المراد بالقسم المذكور في هذا الحديث الصحيح هو قوله تعالى: ﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلاَّ وَارِدُهَا كَانَ عَلَى رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا﴾ وهو معنى ما ذكرنا عن البخاري في قوله: قال أبو عبدالله ﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلاَّ وَارِدُهَا﴾. والذين استدلوا بالحديث المذكور على أن الآية الكريمة قسم اختلفوا في موضع القسم من الآية، فقال بعضهم هو مقدر دل عليه الحديث المذكور، أي: والله وإن منكم إلا واردها. وقال بعضهم: هو معطوف على القسم قبله، والمعطوف على القسم قسم، والمعنى: فوربك لنحشرنهم والشياطين وربك إن منكم واردها، وقال بعضهم: القسم المذكور مستفاد من قوله: ﴿كَانَ عَلَى رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا﴾ أي: قسمًا واجبًا كما قدمناه عن ابن مسعود ومجاهد، وعكرمة، وقتادة.

وقال بعضهم: يحتمل أن يكون المراد بالقسم ما دل على القطع والبت من السياق؛ فإن قوله تعالى: ﴿كَانَ عَلَى رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا﴾ تذييل وتقرير لقوله: ﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلاَّ وَارِدُهَا﴾ وهذا بمنزلة القسم في تأكيد الإخبار.

بل هذا أبلغ للحصر في الآية بالنفي والإثبات .

قال مقيده عفا الله عنه وغفر له: الذي يظهر لي والله تعالىٰ أعلم أن الآية ليس يتعين فيها قسم ؛ لأنها لم تقترن بأداة من أدوات القسم ، ولا قرينة واضحة دالة علىٰ القسم ، ولم يتعين عطفها علىٰ القسم .

والحكم بتقدير قسم في كتاب الله دون قرينة ظاهرة فيه زيادة علىٰ معنىٰ كلام الله بغير دليل يجب الرجوع إليه . وحديث أبي هريرة المذكور المتفق عليه لا يتعين منه أن في الآية قسمًا ؛ لأن من أساليب اللغة العربية التعبير بتحلة القسم عن القلة الشديدة وإن لم يكن هناك قسم أصلاً .

يقولون : ما فعلت كذا إلا تحلة القسم ، يعنون إلا فعلاً قليلاً جدًّا قدر ما يحلل به الحالف قسمه .

وهذا أسلوب معروف في كلام العرب ، ومنه قول كعب بن زهير في وصف ناقته :

تخدي على يسرات وهي لاصقة ذوابل مسهن الأرض تحليل

يعني : أن قوائم ناقته لا تمس الأرض لشدة خفتها إلا قدر تحليل القسم ، ومعلوم أنه لا يمين من ناقته أنها تمس الأرض حتىٰ يكون ذلك المس تحليلاً لها كما ترىٰ .

وعلىٰ هذا المعنىٰ المعروف : فمعنىٰ قوله ﷺ : «**إلا تحلة**» أي : لا يلج النار إلا ولوجًا قليلاً جدًّا لا ألم فيه ولا حر ، كما قدمنا في حديث جابر المرفوع .

وأقرب أقوال من قالوا : إن في الآية قسمًا قول من قال : إنه معطوف علىٰ قوله : ﴿**فَوَرَبِّكَ لَنَحْشُرَنَّهُمْ**﴾ لأن الجمل المذكورة بعده معطوفة عليه ،

كقوله: ﴿ثُمَّ لَنُحْضِرَنَّهُمْ﴾، وقوله: ﴿ثُمَّ لَنَنزِعَنَّ﴾ وقوله: ﴿ثُمَّ لَنَحْنُ أَعْلَمُ﴾ لدلالة قرينة لام القسم في الجمل المذكورة على ذلك.

أما قوله: ﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلاَّ وَارِدُهَا﴾ فهو محتمل للعطف أيضًا، ومحتمل للاستئناف.

والعلم عند الله تعالى.

* * *

س: وضح المراد بقول رسول الله ﷺ «إلا تحلة القسم» وذلك في حديثه صلوات الله وسلامه عليه «ما من مسلمين يموت لهما ثلاثة من الولد إلا لم تمسهما النار إلا تحلَّة القسم».

ج: قال القرطبي رحمه الله:

الاستثناء في قوله عليه السلام: «**إلا تَحِلَّة القَسَم**» يحتمل أن يكون استثناء منقطعًا: لكن تحلة القسم؛ وهذا معروف في كلام العرب؛ والمعنى ألا تمسه النار أصلاً؛ وتم الكلام هنا ثم ابتدأ «**إلا تحلة القسم**» أي: لكن تحلة القسم لا بد منها في قوله تعالى: ﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلاَّ وَارِدُهَا﴾ وهو الجواز على الصراط أو الرؤية أو الدخول دخول سلامة، فلا يكون في ذلك شيء من مسيس؛ لقوله عليه الصلاة والسلام: «**لا يموت لأحدكم ثلاثة من الولد فيحتسبهم إلا كانوا له جُنَّة من النار**» والجُنّة الوقاية والستر، ومن وقي النار وسُتر عنها فلن تمسّه أصلاً، ولو مسّته لما كان موقى.

* * *

س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوا وَّنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا﴾.

ج: قال الحافظ ابن كثير رحمه الله تعالى في إيضاح ذلك:

وقوله: ﴿ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوْا﴾ أي: إذا مر الخلائق كلهم على النار، وسقط فيها من سقط من الكفار والعصاة ذوي المعاصي، بَحَسَبهم، نجى الله تعالى المؤمنين المتقين منها بحسب أعمالهم، فجوازهم على الصراط وسرعتهم بقدر أعمالهم التي كانت في الدنيا، ثم يشفعون في أصحاب الكبائر من المؤمنين، فيشفع الملائكة والنبيون والمؤمنون، فيخرجون خلقًا كثيراً قد أكلتهم النار، إلا دارات وجوههم - وهي مواضع السجود - وإخراجهم إياهم من النار بحسب ما في قلوبهم من الإيمان، فيخرجون أولاً من كان في قلبه مثقال دينار من إيمان، ثم الذي يليه، ثم الذي يليه، ثم الذي يليه، حتى يخرجوا من كان في قلبه أدنى أدنى أدنى مثقال ذرة من إيمان، ثم يخرج الله من النار من قال يومًا من الدهر: لا إله إلا الله، وإن لم يعمل خيراً قط، ولا يبقى في النار إلا من وجب عليه الخلود، كما وردت بذلك الأحاديث الصحيحة عن رسول الله ﷺ؛ ولهذا قال تعالى: ﴿ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوْا وَّنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا﴾.

* * *

س: اذكر المعنى الإجمالي لقوله تعالى: ﴿وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا أَيُّ الْفَرِيقَيْنِ خَيْرٌ مَّقَامًا وَأَحْسَنُ نَدِيًّا﴾.

ج: المعنى، والله تعالى أعلم، وإذا تتلى على أهل الكفر آيات هذا

الكتاب العزيز المبارك واضحات جليات ظاهرات المعاني، ما كان لهم من حجة يردون بها الآيات ولا يطفئون بها نورها إلا اغترارهم بدنياهم وقولهم لأهل الإيمان: أي الفريقين منا ومنكم خيرٌ منزلاً وأحسن مجلسًا فاغتروا بمنازلهم ومجالسهم.

قال الطبري رحمه الله:

وتأويل الكلام: وإذا تُتلى عليهم آياتنا بيِّنات، قال الذين كفروا للذين آمنوا: أي الفريقين منا ومنكم أوسع عيشًا، وأنعم بالاً، وأفضل مسكنًا، وأحسن مجلسًا، وأجمع عددًا وغاشية في المجلس، نحن أم أنتم؟

وقال القرطبي رحمه الله تعالى:

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ﴾ أي على الكفار الذين سبق ذكرهم في قوله تعالى: ﴿أَئِذَا مَا مِتُّ لَسَوْفَ أُخْرَجُ حَيًّا﴾ [مريم: ٦٦].

وقال فيهم: ﴿وَّنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا﴾. أي: هؤلاء إذا قرئ عليهم القرآن تعزَّزوا بالدنيا، وقالوا: فما بالنا - إن كنا على باطل - أكثر أموالاً وأعز نفرًا.

وغرضهم إدخال الشبهة على المستضعفين وإيهامهم أن من كثر ماله دل ذلك على أنه المحقّ في دينه، وكأنهم لم يروا في الكفار فقيراً ولا في المسلمين غنيًّا، ولم يعلموا أن الله تعالى نحَّى أولياءه عن الاغترار بالدنيا، وفرط الميل إليها.

و «بينات»: معناه: مرتَّلات الألفاظ، ملخصة المعاني، مبينات المقاصد؛ إما محكمات، أو متشابهات قد تبعها البيان بالمحكمات، أو تبيين الرسول ﷺ قولاً أو فعلاً.

أو ظاهرات الإعجاز تُحدي بها فلم يقدر على معارضتها.

أو حججًا وبراهين.

والوجه أن تكون حالاً مؤكدة؛ كقوله تعالى: ﴿وَهُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقًا﴾ [البقرة: ٩١] لأن آيات الله تعالى لا تكون إلا واضحة وحججًا ﴿قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾: يريد مشركي قريش النضر بن الحارث وأصحابه. ﴿لِلَّذِينَ آمَنُوا﴾ يعني فقراء أصحاب النبي ﷺ، وكانت فيهم قشافة، وفي عيشهم خشونة، وفي ثيابهم رثاثة؛ وكان المشركون يرجلون شعورهم، ويدهنون رءوسهم، ويلبسون خير ثيابهم، فقالوا للمؤمنين: ﴿أَيُّ الْفَرِيقَيْنِ خَيْرٌ مَّقَامًا وَأَحْسَنُ نَدِيًّا﴾.

قال الشنقيطي رحمه الله:

ومعنى الآية الكريمة: أن كفار قريش كانوا إذا يتلوا عليهم رسول الله ﷺ وأصحابه آيات هذا القرآن، في حال كونها بينات أي مرتلات الألفاظ، واضحات المعاني، بينات المقاصد، إما محكمات جاءت واضحة، أو متشابهات قد تبعها البيان بالمحكمات، أو تبيين الرسول ﷺ قولاً أو فعلاً، أو ظاهرات الإعجاز تحدى بها فلم يقدر على معارضتها - أو حججًا وبراهين.

والظاهر أن قوله: ﴿بَيِّنَاتٍ﴾ حال مؤكدة؛ لأن آيات الله لا تكون إلا كذلك.

ونظير ذلك قوله تعالى: ﴿وَهُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقًا﴾ أي: إذا تتلى عليهم آيات الله في حال كونها متصفة بما ذكرنا عارضوها واحتجوا على بطلانها، وأن الحق معهم لا مع من يتلوها بشبهة ساقطة لا يحتج بها إلا من لا عقل له.

ومضمون شبهتهم المذكورة: أنهم يقولون لهم: نحن أوفر منكم حظًّا في الدنيا، فنحن أحسن منكم منازل، وأحسن منكم متاعًا، وأحسن منكم منظرًا، فلولا أننا أفضل عند الله منكم لما آثرنا عليكم في الحياة الدنيا، وأعطانا من نعيمها وزينتها ما لم يعطكم.

* * *

س: وضح المعنى الإجمالي لقوله تعالى: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هُمْ أَحْسَنُ أَثَاثًا وَرِءْيًا﴾.

ج: المعنى، والله تعالى أعلم، وكم أهلكنا من أقوامٍ قبل هؤلاء المغترين ببيوتهم ومنازلهم ونواديهم، كانوا - أي: الذين أهلكناهم - أحسن من هؤلاء متاعًا، وأحسن منهم شكلاً ومنظرًا.

فقد أهلكنا قرونًا كثيرةً قبلهم متعناهم متاعًا أفضل مما متعنا به هؤلاء، وكانت صورهم وأشكالهم وأجسامهم أحسن من صور هؤلاء وأشكالهم وأجسامهم، فأفنيناهم وأهلكناهم كما قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ﴿٦﴾ إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ ﴿٧﴾ الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ ﴿٨﴾ وَثَمُودَ الَّذِينَ جَابُوا الصَّخْرَ بِالْوَادِ ﴿٩﴾ وَفِرْعَوْنَ ذِي الْأَوْتَادِ ﴿١٠﴾ الَّذِينَ طَغَوْا فِي الْبِلَادِ ﴿١١﴾ فَأَكْثَرُوا فِيهَا الْفَسَادَ ﴿١٢﴾ فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ ﴿١٣﴾ إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ﴾ [الفجر: ٦-١٤].

وكما قال تعالى: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هُمْ أَشَدُّ مِنْهُم بَطْشًا فَنَقَّبُوا فِي الْبِلَادِ هَلْ مِن مَّحِيصٍ﴾ [ق: ٣٦].

وكما قال سبحانه: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ الْقُرُونِ مِن بَعْدِ نُوحٍ﴾ [الإسراء: ١٧].

إلى غير ذلك من الآيات الواردة في هذا الصدد.

* * *

س: دائمًا أهل الكفر يُعيِّرون أهل الإيمان بفقرهم ويستبعدون - لفقر أهل الإيمان - أن يسبقهم المؤمنون إلى الجنان بل ويظنون أنه لن يعذبوا بل وسيكرمون دلل على ذلك.

ج: من الأدلة على ذلك ما يلي:

قول قوم نوح لنوح عليه السلام ﴿أَنُؤْمِنُ لَكَ وَاتَّبَعَكَ الأَرْذَلُونَ﴾ [الشعراء: ١١١].

قوله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لِّيَقُولُوا أَهَؤُلاءِ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْهِم مِّن بَيْنِنَا﴾ [الأنعام: ٥٣].

وقول صاحب الجنتين: ﴿أَنَا أَكْثَرُ مِنكَ مَالاً وَأَعَزُّ نَفَرًا﴾ [الكهف: ٣٤] إلى قوله: ﴿وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَى رَبِّي لأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنقَلَبًا﴾ [الكهف: ٣٦] وقول الآخر: ﴿وَلَئِن رُّجِعْتُ إِلَى رَبِّي إِنَّ لِي عِندَهُ لَلْحُسْنَى﴾ [فصلت: ٥٠].

وقوله تعالى: ﴿وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا أَيُّ الْفَرِيقَيْنِ خَيْرٌ مَّقَامًا وَأَحْسَنُ نَدِيًّا﴾ [مريم: ٧٣].

وقوله تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا لَوْ كَانَ خَيْرًا مَّا سَبَقُونَا إِلَيْهِ﴾ [الأحقاف: ١١].

وقوله تعالى: ﴿وَقَالُوا نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَالاً وَأَوْلادًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ﴾ [سبأ: ٣٥].

وقوله تعالىٰ: ﴿أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِ مِن مَّالٍ وَبَنِينَ (٥٥) نُسَارِعُ لَهُمْ فِي الْخَيْرَاتِ بَل لاَّ يَشْعُرُونَ﴾ [المؤمنون: ٥٥].

وقوله تعالىٰ: ﴿أَفَرَءَيْتَ الَّذِي كَفَرَ بِآيَاتِنَا وَقَالَ لأُوتَيَنَّ مَالاً وَوَلَدًا﴾ [مريم: ٧٧].

* * *

س: لقد أبطل الله دعوى الكفار التي ادعوها والتي حاصلها: أن أموالهم وأولادهم تنفعهم يوم القيامة وذلك في عدة آيات، وضح ذلك!

ج: من الآيات الدالة علىٰ ذلك ما يلي:

وقوله تعالىٰ: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هُمْ أَحْسَنُ أَثَاثًا وَرِءْيًا﴾ [مريم: ٧٤].

وقوله تعالىٰ: ﴿وَمَا أَمْوَالُكُمْ وَلا أَوْلادُكُم بِالَّتِي تُقَرِّبُكُمْ عِندَنَا زُلْفَى إِلاَّ مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَأُوْلَئِكَ لَهُمْ جَزَاءُ الضِّعْفِ بِمَا عَمِلُوا وَهُمْ فِي الْغُرُفَاتِ آمِنُونَ﴾ [سبأ: ٣٧].

وقوله تعالىٰ: ﴿فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ﴾ [الأنعام: ٤٤].

وقوله تعالىٰ: ﴿وَلا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ خَيْرٌ لأَنفُسِهِمْ إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُوا إِثْمًا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾ [آل عمران: ١٧٨].

* * *

س: أهل الكفر يغترون دائمًا بدنياهم، ويحتقرون لذلك أهل الإيمان دلِّل على ذلك!

ج: من الأدلة على ذلك قولهم: ﴿أَيُّ الْفَرِيقَيْنِ خَيْرٌ مَّقَامًا وَأَحْسَنُ نَدِيًّا﴾ [مريم: ٧٣].

وما ذكره الله تبارك وتعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا لَوْ كَانَ خَيْرًا مَّا سَبَقُونَا إِلَيْهِ﴾ [الأحقاف: ١١].

وقوله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لِّيَقُولُوا أَهَؤُلاءِ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْهِم مِّن بَيْنِنَا أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِالشَّاكِرِينَ﴾ [الأنعام: ٥٣].

* * *

س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿أَيُّ الْفَرِيقَيْنِ خَيْرٌ مَّقَامًا وَأَحْسَنُ نَدِيًّا﴾!

ج: قال الشنقيطي رحمه الله «أضواء البيان»:

فقوله: ﴿أَيُّ الْفَرِيقَيْنِ خَيْرٌ مَّقَامًا﴾ أي نحن وأنتم أينا خير مقامًا.

والمقام على قراءة ابن كثير بضم الميم محل الإقامة، وهو المنازل والأمكنة التي يسكنونها.

وعلى قراءة الجمهور فالمقام بفتح الميم مكان القيام وهو موضع قيامهم وهو مساكنهم ومنازلهم.

وقيل: وهو موضع القيام بالأمور الجليلة. والأول هو الصواب.

وقوله: ﴿ وَأَحْسَنُ نَدِيًّا﴾ أي مجلسًا ومجتمعًا.

والاستفهام في قوله: ﴿أَيُّ الْفَرِيقَيْنِ﴾ الظاهر أنه استفهام تقرير؛

ليحملوا به ضعفاء المسلمين الذين هم في تقشف ورثاثة هيئة على أن يقولوا: أنتم خير مقامًا وأحسن نديًّا منا.

وعلى كل حال فلا خلاف أن مقصودهم بالاستفهام المذكور أنهم - أي كفار قريش - خير مقامًا وأحسن نديًّا من أصحاب النبي ﷺ، وأن ذلك هو دليلهم على أنهم على الحق، وأنهم أكرم على الله من المسلمين.

وما في «التلخيص» وشروحه من أن السؤال بـ ﴿أَيُّ﴾ في الآية التي نحن بصددها سؤال بها عما يميز أحد المشتركين في أمر يعمهما كالعادة في أي غلط منهم؛ لأنهم فسروا الآية الكريمة بغير معناها الصحيح.

والصواب ما ذكرناه إن شاء الله تعالى.

واستدلالهم هذا بحظهم في الحياة الدنيا على حظهم يوم القيامة، وأن الله ما أعطاهم في الدنيا إلا لمكانتهم عنده، واستحقاقهم لذلك لسخافة عقولهم - ذكره الله تعالى في مواضع من كتابه؛ كقوله تعالى عنهم: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا لَوْ كَانَ خَيْرًا مَّا سَبَقُونَا إِلَيْهِ وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُوا بِهِ فَسَيَقُولُونَ هَٰذَا إِفْكٌ قَدِيمٌ﴾ [الأحقاف: ١١].

وقوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لِّيَقُولُوا أَهَٰؤُلَاءِ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْهِم مِّن بَيْنِنَا أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِالشَّاكِرِينَ﴾ [الأنعام: ٥٣].

وقوله تعالى: ﴿وَقَالُوا نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَالًا وَأَوْلَادًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ﴾ [سبأ: ٣٥].

وقوله تعالى: ﴿أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِ مِن مَّالٍ وَبَنِينَ ﴿٥٥﴾ نُسَارِعُ لَهُمْ فِي الْخَيْرَاتِ بَل لَّا يَشْعُرُونَ﴾ [المؤمنون: ٥٥].

وقوله: ﴿أَفَرَأَيْتَ الَّذِي كَفَرَ بِآيَاتِنَا وَقَالَ لَأُوتَيَنَّ مَالًا وَوَلَدًا﴾ [مريم: ٧٧]،

وقوله: ﴿قَالَ مَا أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَذِهِ أَبَدًا ﴿٣٥﴾ وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَى رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنقَلَبًا﴾ [الكهف:٣٦]، وقوله: ﴿وَلَئِن رُّجِعْتُ إِلَى رَبِّي إِنَّ لِي عِندَهُ لَلْحُسْنَى﴾ [فصلت:٥٠]، إلى غير ذلك من الآيات.

فكل هذه الآيات دالة على أنهم لجهلهم يظنون أن الله لم يعطهم نصيبًا من الدنيا إلا لرضاه عنهم، ومكانتهم عنده، وأن الأمر في الآخرة سيكون كذلك.

وقال أيضًا: والآيات التي أبطل الله بها دعواهم هذه كثيرة؛ كقوله تعالى: ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ خَيْرٌ لِّأَنفُسِهِمْ إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُوا إِثْمًا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾ [آل عمران:١٧٨]، وقوله: ﴿وَمَا أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُم بِالَّتِي تُقَرِّبُكُمْ عِندَنَا زُلْفَى إِلَّا مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَأُولَئِكَ لَهُمْ جَزَاءُ الضِّعْفِ بِمَا عَمِلُوا وَهُمْ فِي الْغُرُفَاتِ آمِنُونَ﴾ [سبأ:٣٧]؛ وقوله: ﴿فَذَرْنِي وَمَن يُكَذِّبُ بِهَذَا الْحَدِيثِ سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٤﴾ وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ﴾ [القلم:٤٥]، وقوله تعالى: ﴿فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ﴾ [الانعام:٤٤]؛ والآيا ت بمثل ذلك كثيرة جدًّا، وقد قدمنا شيئًا من ذلك.

وقول الكفار الذي حكاه الله عنهم في هذه الآية الكريمة ﴿أَيُّ الْفَرِيقَيْنِ خَيْرٌ مَّقَامًا وَأَحْسَنُ نَدِيًّا﴾ [مريم: ٧٣] الظاهر فيه أن وجه ذكرهم للمقام والندى: أن المقام هو محل السكنى الخاص لكل واحد منهم.

والندىٰ محل اجتماع بعضهم ببعض، فإذا كان كل منهما للكفار أحسن من نظيره عند المسلمين دل ذلك علىٰ أن نصيبهم في الدنيا أوفر من نصيب أصحاب النبي ﷺ في ذلك الوقت.

ونظير ذلك من كلام العرب قول الشاعر:

يومان يوم مقامات وأندية ... ويوم سير إلى الأعداء تأويب

والمقامات: جمع مقامة بمعنىٰ المقام.

والأندية: جمع ناد بمعنىٰ الندىٰ وهو مجلس القوم، ومنه قوله تعالىٰ: ﴿وَتَأْتُونَ فِي نَادِيكُمُ الْمُنكَرَ﴾ [العنكبوت:٢٩] فالنادي والندىٰ يطلقان علىٰ المجلس، وعلىٰ القوم الجالسين فيه.

وكذلك المجلس يطلق علىٰ القوم الجالسين، ومن إطلاق الندىٰ علىٰ المكان قول الفرزدق:

وما قام منا قائم في ندينا ... فينطق إلا بالتي هي أعرف

* * *

س اذكر بمزيد من الإيضاح معنى قوله تعالى: ﴿وكم أهلكنا قبلهم من قرن هم أحسن أثاثا ورءيا﴾؟

ج المعنىٰ، ولقد أهلكنا قبل هؤلاء القرشيين المكذبين المعاندين أُممًا أكثر وأحسن بيوتًا ومتاعًا وأجمل شكلاً ومنظرًا.

قال الشنقيطي رحمه الله تعالى في «أضواء البيان»:

المعنىٰ: أهلكنا قرونًا كثيرة، أي أُممًا كانت قبلهم وهم أكثر نصيبًا في الدنيا منهم، فما بلغهم ما كان عندهم من زينة الدنيا ومتاعها من إهلاك الله

إياهم لما عصوا وكذبوا رسله، فلو كان الحظ والنصيب في الدنيا يدل على رضا الله والمكانة عنده لما أهلك الذين من قبلكم، الذين هم أحسن أثاثًا ورئيًا منكم.

وقوله في هذه الآية الكريمة: ﴿ وَكَمْ ﴾ هي الخبرية، ومعناها الإخبار بعدد كثير، وهي في حمل نصب على المفعول به لأهلكنا، أي أهلكنا كثيراً.

و﴿من﴾ مبينة لـ ﴿كم﴾ وكل أهل عصر، قرن لمن بعدهم لأنهم يتقدمونهم.

قيل: سموا قرنًا لاقترانهم في الوجود.

والأثاث: متاع البيت.

وقيل: هو الجديد من الفرش.

وغير الجديد منها يسمى «الخُرْثي» بضم الخاء وسكون الراء والثاء المثلثة بعدها ياء مشددة.

وأنشد لهذا التفصيل الحسن بن علي الطوسي قول الشاعر:

تقادم العهد من أم الوليد بنا　　دهرًا وصار أثاث البيت خرثيا

والإطلاق المشهور في العربية هو إطلاق الأثاث على متاع البيت مطلقًا.

قال الفراء: لا واحد له.

ويطلق الأثاث على المال أجمع: الإبل، والغنم، والعبيد، والمتاع. والواحد أثاثة. وتأثث فلان: إذا أصاب رياشًا، قاله الجوهري عن أبي زيد.

وقوله ﴿وَرِءْيًا ﴾ على قراءة الجمهور مهموزًا، أي فأحسن منظرًا وهيئة، وهو فعل بمعنى مفعول من رأى البصرية.

والمراد به الذي تراه العين من هيئاتهم الحسنة ومتاعهم الحسن.

وقال أيضًا: والجملة في قوله: ﴿هُمْ أَحْسَنُ أَثَاثًا وَرِءْيًا﴾:

قال الزمخشري: هي في محل نصب صفة لقوله: ﴿كَمْ﴾ ألا ترىٰ أنك لو تركت لفظة ﴿هم﴾ لم يكن لك بد من نصب ﴿أحسن﴾ علىٰ الوصفية اهـ.

وتابع الزمخشري أبو البقاء علىٰ ذلك.

وتعقبه أبو حيان في البحر بأن بعض علماء النحو نصوا علىٰ أن «كم» سواء كانت استفهامية أو خبرية لا توصف ولا يوصف بها.

قال: وعلىٰ هذا يكون ﴿هم أحسن﴾ في موضع الصفة لـ ﴿قرن﴾ وجمع نعت القرن اعتبارًا لمعنىٰ القرن، وهذا هو الصواب عندي لا ما ذكره الزمخشري وأبو البقاء.

وصيغة التفضيل في قوله: ﴿هُمْ أَحْسَنُ أَثَاثًا وَرِءْيًا﴾ تلزمها «من» لتجردها من الإضافة والتعريف، إلا أنها محذوفة لدلالة المقام عليها. والتقدير: هم أحسن أثاثًا ورئيًا منهم، علىٰ حد قوله في الخلاصة:

وأفعل التفضيل صله أبدًا تقديرًا أو لفظًا بمن إن جردا

فإن قيل: أين مرجع الضمير في هذه الآية الكريمة في قوله: ﴿وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا..﴾ الآية؟ فالجواب ـ أنه راجع إلىٰ الكفار المذكورين في قوله: ﴿وَيَقُولُ الإِنسَانُ أَئِذَا مَا مِتُّ..﴾ الآية، وقوله: ﴿وَنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا﴾ قاله القرطبي. والله تعالىٰ أعلم.

* * *

س: اذكر المعنى الإجمالي لقوله تعالى: ﴿قُلْ مَن كَانَ فِي الضَّلَالَةِ فَلْيَمْدُدْ لَهُ الرَّحْمَٰنُ مَدًّا﴾.

ج: المعنى، والله تعالى أعلم، قل يا محمد لهؤلاء المشركين القائلين أنهم خيرٌ مقامًا وأحسن نديًا، قل لهؤلاء الزاعمين أنهم على حقٍ وهم يعبدون الصنم والوثن قل لهم هلُمُّوا ندعو ربنا أن يزيد كلاًّ مما هو فيه فمن كان ضالاً زاده الله ضلالةً إلى ضلاله فكأن الآية الكريمة من آيات المباهلة والله تعالى أعلم.

قال الطبري رحمه الله تعالى:

يقول تعالى ذكره لنبيه محمد ﷺ: قل يا محمد لهؤلاء المشركين بربهم، القائلين، إذ تتلى عليهم آياتنا: أي الفريقين منا ومنكم خير مقامًا وأحسن نديًّا، من كان منا ومنكم في الضلالة جائرًا عن طريق الحقّ، سالكًا غير سبيل الهدى، فليمدد له الرحمن مدًّا.

يقول: فليطوِّل له الله في ضلالته، وليمله فيها إملاء.

يقول تعالى: ﴿قُلْ﴾ يا محمد لهؤلاء المشركين بربهم، المدعين أنهم على الحق وأنكم على الباطل: ﴿مَن كَانَ فِي الضَّلَالَةِ﴾ أي: منا ومنكم ﴿فَلْيَمْدُدْ لَهُ الرَّحْمَٰنُ مَدًّا﴾ أي: فأمهله الرحمن فيما هو فيه، حتى يلقى ربه وينقضي أجله ﴿إِمَّا الْعَذَابَ﴾ يصيبه ﴿وَإِمَّا السَّاعَةَ﴾ بغتة تأتيه ﴿فَسَيَعْلَمُونَ﴾ حينئذ ﴿مَنْ هُوَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضْعَفُ جُندًا﴾ في مقابلة ما احتجوا به من خيرية المقام وحسن النَّدي.

قال مجاهد في قوله: ﴿فَلْيَمْدُدْ لَهُ الرَّحْمَٰنُ مَدًّا﴾ فليدعه الله في طغيانه. وهكذا قرر ذلك أبو جعفر بن جرير، رحمه الله.

وهذه مباهلة للمشركين الذين يزعمون أنهم على هدًى فيما هم فيه، كما ذكر تعالى مباهلة اليهود في قوله: ﴿ قُلْ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ هَادُوا إِن زَعَمْتُمْ أَنَّكُمْ أَوْلِيَاءُ لِلَّهِ مِن دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴾ [الجمعة:٦] أي: ادعوا على المبطل منا ومنكم بالموت، إن كنتم تدعون أنكم على الحق، فإنه لا يضركم الدعاء، فنكلوا عن ذلك.

وقد تقدم تقرير ذلك في سورة البقرة مبسوطًا، ولله الحمد. وكما ذكر تعالى المباهلة مع النصارى في سورة آل عمران حين صمموا على الكفر، واستمروا على الطغيان والغلو في دعواهم أن عيسى ولد الله، وقد ذكر الله حججه وبراهينه على عبودية عيسى، وأنه مخلوق كآدم، قال تعالى بعد ذلك: ﴿فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ مِن بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنفُسَنَا وَأَنفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَل لَّعْنَةَ اللَّهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ ﴾ [آل عمران: ٦١] فنكلوا أيضًا عن ذلك.

وقال القرطبي رحمه الله:

قوله تعالى: ﴿قُلْ مَن كَانَ فِي الضَّلالَةِ ﴾ أي في الكفر ﴿ فَلْيَمْدُدْ لَهُ الرَّحْمَنُ مَدًّا ﴾ أي فليدعه في طغيان جهله وكفره؛ فلفظه لفظ الأمر ومعناه الخبر؛ أي من كان في الضلالة مدّه الرحمن مدًّا حتى يطول اغتراره فيكون ذلك أشدّ لعقابه.

نظيره: ﴿إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُوا إِثْمًا ﴾ [آل عمران: ١٧٨] وقوله: ﴿وَنَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴾ [الأنعام: ١١٠] ومثله كثير؛ أي فليعش ما شاء، وليوسع لنفسه في العمر؛ فمصيره إلى الموت والعقاب.

وهذا غاية في التهديد والوعيد.

وقيل: هذا دعاء أمر به النبي ﷺ؛ تقول: من سرق مالي فليقطع الله تعالىٰ يده؛ فهو دعاء علىٰ السارق. وهو جواب الشرط. وعلىٰ هذا فليس قوله: ﴿فَلْيَمْدُدْ﴾ خبراً.

وقال الشنقيطي رحمه الله تعالى في «أضواء البيان»:

قوله تعالىٰ: ﴿قُلْ مَن كَانَ فِي الضَّلَالَةِ فَلْيَمْدُدْ لَهُ الرَّحْمَنُ مَدًّا حَتَّى إِذَا رَأَوْا مَا يُوعَدُونَ إِمَّا الْعَذَابَ وَإِمَّا السَّاعَةَ فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضْعَفُ جُندًا﴾ [مريم: ٧٥].

في معنىٰ هذه الآية الكريمة وجهان من التفسير معروفان عند العلماء، وكلاهما يشهد له قرآن:

الأول:أن الله جل وعلا أمر نبيه ﷺ في هذه الآية الكريمة أن يقول هذه الكلمات كدعاء المباهلة بينه وبين المشركين.

وإيضاح معناه: قل يا نبي الله - ﷺ - لهؤلاء المشركين الذين ادعوا أنهم خير منكم، وأن الدليل علىٰ ذلك أنهم خير منكم مقامًا وأحسن منكم نديًا، من كان منا ومنكم في الضلالة أي الكفر والضلال عن طريق الحق فليمدد له الرحمن مدًّا، أي فأمهله الرحمن إمهالاً فيما هو فيه حتىٰ يستدرجه بالإمهال ويموت علىٰ ذلك ولا يرجع عنه، بل يستمر علىٰ ذلك حتىٰ يرىٰ ما يوعده الله، وهو: إما عذاب في الدنيا بأيدي المسلمين، كقوله: ﴿قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ﴾ [التوبة: ١٤] أو بغير ذلك.

وإما عذاب الآخرة إن ماتوا وهم علىٰ ذلك الكفر.

وعلىٰ ذلك التفسير فصيغة الطلب المدلول عليها باللام في قوله ﴿ فَلْيَمْدُدْ ﴾ علىٰ بابها .

وعليه فهي لام الدعاء بالإمهال في الضلال علىٰ الضال من الفريقين، حتىٰ يرىٰ ما يوعده من الشر وهو علىٰ أقبح حال من الكفر والضلال .

واقتصر علىٰ هذا التفسير ابن كثير وابن جرير، وهو الظاهر من صيغة الطلب في قوله ﴿ فَلْيَمْدُدْ ﴾ ونظير هذا المعنىٰ في القرآن قوله تعالىٰ: ﴿ **فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنفُسَنَا وَأَنفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَل لَّعْنَةَ اللهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ** ﴾ [آل عمران: ٦١] لأنه علىٰ ذلك التفسير يكون في كلتا الآيتين دعاء بالشر علىٰ الضال من الطائفتين .

وكذلك قوله تعالىٰ في اليهود: ﴿ **فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ** ﴾ في «البقرة والجمعة» عند من يقول: إن المراد بالتمني الدعاء بالموت علىٰ الكاذبين من الطائفتين، وهو اختيار ابن كثير، وظاهر الآية لا يساعد عليه .

الوجه الثاني: أن صيغة الطلب في قوله: ﴿ فَلْيَمْدُدْ ﴾ يراد بها الإخبار عن سنة الله في الضالين، وعليه فالمعنىٰ: أن الله أجرىٰ العادة بأنه يمهل الضال ويملي له فيستدرجه بذلك حتىٰ يرىٰ ما يوعده وهو في غفلة وكفر وضلال .

وتشهد لهذا الوجه آيات كثيرة، كقوله: ﴿وَلا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ خَيْرٌ لأَنفُسِهِمْ إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُوا إِثْمًا..﴾ [آل عمران: ١٧٨] الآية، وقوله: ﴿فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُم بَغْتَةً...﴾ [الأنعام: ٤٤] الآية، كما قدمنا قريبًا بعض الآيات الدالة عليه.

ومما يؤيد هذا الوجه ما أخرجه ابن أبي شيبة، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن حبيب بن أبي ثابت قال: في حرف أبي: «قل من كان في الضلالة فإنه يزيده الله ضلالة» اهـ. قاله صاحب الدر المنثور.

ومثل هذا من جنس التفسير لا من جنس القراءة؛ فإن قيل على هذا الوجه؛ ما النكتة في إطلاق صيغة الطلب في معنى الخبر؟

فالجواب: أن الزمخشري أجاب في «كشافه» عن ذلك، قال في تفسير قوله تعالى: ﴿فَلْيَمْدُدْ لَهُ الرَّحْمَنُ مَدًّا﴾:

أي: مد له الرحمن يعني: أمهله وأملى له في العمر؛ فأخرج على لفظ الأمر إيذانًا بوجوب ذلك، وأنه مفعول لا محالة، كالمأمور به الممتثل لتنقطع معاذير الضال، ويقال له يوم القيامة: ﴿أو لم نعمركم ما يتذكر فيه من تذكر﴾ اهـ.

محل الغرض منه. وأظهر الأقوال عندي في قوله: ﴿حَتَّى إِذَا رَأَوْا مَا يُوعَدُونَ﴾ أنه متعلق بما قبله يليه، والمعنى: فليمدد له الرحمن مدًّا حتى إذا

رأىٰ ما يوعد علم أن الأمر علىٰ خلاف ما كان يظن .

وقال الزمخشري : إن «حتىٰ» في هذه الآية هي التي تحكي بعدها الجمل ، واستدل علىٰ ذلك بمجيء الجملة الشرطية بعدها .

* * *

س: هل لقوله تعالى: ﴿حَتَّى إِذَا رَأَوْا مَا يُوعَدُونَ﴾ تعلق بما قبله؟

ج: قال الشنقيطي رحمه الله تعالى:

وأظهر الأقوال عندي في قوله : ﴿حَتَّى إِذَا رَأَوْا مَا يُوعَدُونَ﴾ أنه متعلق بما قبله يليه ، والمعنىٰ : فليمدد له الرحمن مداً حتىٰ إذا رأىٰ ما يوعد علم أن الأمر علىٰ خلاف ما كان يظن .

* * *

س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿حَتَّى إِذَا رَأَوْا مَا يُوعَدُونَ إِمَّا الْعَذَابَ وَإِمَّا السَّاعَةَ فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضْعَفُ جُندًا﴾ .

ج: قال الطبري رحمه الله تعالى في معنى ذلك:

وقوله : ﴿حَتَّى إِذَا رَأَوْا مَا يُوعَدُونَ إِمَّا الْعَذَابَ وَإِمَّا السَّاعَةَ﴾ يقول تعالىٰ ذكره : قل لهم : من كان منا ومنكم في الضلالة ، فليمدد له الرحمن في ضلالته إلىٰ أن يأتيهم أمر الله ، إما عذاب عاجل ، أو يلقوا ربهم عند

قيام الساعة التي وعد الله خلقه أن يجمعهم لها، فإنهم إذا أتاهم وعد الله بأحد هذين الأمرين ﴿ فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ شَرٌّ مَّكَانًا ﴾ ومسكنًا منكم ومنهم ﴿ وَأَضْعَفُ جُندًا ﴾ أهم أم أنتم؟ ويتبينون حينئذٍ أي الفريقين خير مقامًا، وأحسن نديًّا.

قال القرطبي رحمه الله:

قوله تعالىٰ: ﴿حَتَّى إِذَا رَأَوْا مَا يُوعَدُونَ﴾ قال ﴿رأوا﴾ لأن لفظ ﴿من﴾ يصلح للواحد والجمع.

و «إذا» مع الماضي بمعنىٰ المستقبل؛ أي حتىٰ يروا ما يوعدون.

والعذاب هنا إما أن يكون بنصر المؤمنين عليهم فيعذبونهم بالسيف والأسر؛ وإما أن تقوم الساعة فيصيرون إلىٰ النار. ﴿فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضْعَفُ جُندًا﴾ أي تنكشف حينئذ الحقائق. وهذا رد لقولهم: ﴿أَيُّ الْفَرِيقَيْنِ خَيْرٌ مَّقَامًا وَأَحْسَنُ نَدِيًّا﴾.

* * *

س: هل يوصف المكان بأنه شرٌّ؟

ج: قال بعض العلماء: نعم يجوز ذلك، ويكون المراد بالمكان المنزلة.

وثمَّ قول آخر ألا وهو: أن المراد الشخص الذي ينزل المكان هو الموصوف بالشر.

قال الشنقيطي رحمه الله:

وقد دلت آية من كتاب الله علىٰ إطلاق ﴿ شَرٌّ مَّكَانًا ﴾.

والمراد اتصاف الشخص بالشر لا المكان؛ وهوقوله تعالىٰ: ﴿**قَالُوا إِن يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَّهُ مِن قَبْلُ فَأَسَرَّهَا يُوسُفُ فِي نَفْسِهِ وَلَمْ يُبْدِهَا لَهُمْ قَالَ أَنتُمْ شَرٌّ مَّكَانًا**﴾ [يوسف: ٧٧] فتفضيل المكان في الشر ها هنا، الظاهر أن المراد به تفضيله إخوته في الشر علىٰ نفسه فيما نسبوا إليه من شر السرقة لا نفس المكان، اللهم إلا أن يراد بذلك المكان المعنوي: أي أنتم شر منزلة عند الله تعالىٰ.

* * *

س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿وَيَزِيدُ اللهُ الَّذِينَ اهْتَدَوْا هُدًى﴾.

ج: المعنىٰ، والله تعالىٰ أعلم أن الذين آمنوا وسلكوا طريق الهداية يزيدهم الله هدايةً إلىٰ ما هم فيه من الهداية وييسر لهم أمر طاعتهم وأمر استقامتهم، ويثبتهم علىٰ طريق الإيمان فلا يتزحزحون عنه وعلىٰ الهداية فلا يحيدون عنها، وقيل أيضًا يزيدهم نصرًا وعزًّا وتمكينًا وينزل من الآيات ما يكون سببًا في زيادة اليقين مجازاةً لهم.

وفي الآية الكريمة: دلالة علىٰ زيادة الإيمان، كما هو واضح.

هذا، وقد قال الشنقيطي رحمه الله تعالى في تفسيره «أضواء البيان»:

قوله تعالىٰ: ﴿**وَيَزِيدُ اللهُ الَّذِينَ اهْتَدَوْا هُدًى وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ مَّرَدًّا**﴾ [مريم: ٧٦].

قوله جل وعلا في هذه الآية الكريمة: ﴿**وَيَزِيدُ اللهُ الَّذِينَ اهْتَدَوْا هُدًى**﴾

دليل على رجحان القول الثاني في الآية المتقدمة .

وأن المعنى : أن من كان في الضلالة زاده الله ضلالة ، ومن اهتدى زاده الله هدى . والآيات الدالة على هذا المعنى كثيرة ، كقوله في الضلال ﴿فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾ [الصف : ٥] .

وقوله : ﴿بَلْ طَبَعَ اللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ﴾ [النساء : ١٥٥] ، وقوله : ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا فَطُبِعَ عَلَى قُلُوبِهِمْ﴾ [المنافقون : ٣] ، وقوله تعالى : ﴿وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ . . .﴾ [الأنعام : ١١٠] الآية ، كما قدمنا كثيراً من الآيات الدالة على هذا المعنى .

وقال في الهدى : ﴿وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ﴾ [محمد : ١٧] ، وقال : ﴿هُوَ الَّذِي أَنزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوا إِيمَانًا مَّعَ إِيمَانِهِمْ﴾ [الفتح : ٤] ، وقال : ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا . . .﴾ [العنكبوت : ٦٩] الآية .

وقد جمع بينهما في آيات أخر ؛ كقوله : ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلاَّ خَسَارًا﴾ [الإسراء : ٨٢] .

وقوله تعالى : ﴿قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاءٌ وَالَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى . . .﴾ [فصلت : ٤٤] الآية .

وقوله تعالى : ﴿وَإِذَا مَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَذِهِ إِيمَانًا فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَزَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ (١٢٤) وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَى رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا وَهُمْ كَافِرُونَ﴾ [التوبة : ١٢٤ ، ١٢٥] كما تقدم إيضاحه .

س: اذكر بعض الأدلة على أن الذين يسلكون سبل الهداية يهديهم الله وييسر لهم سبلها والذين يسلكون سبيل الغواية يضلهم الله؟

ج: من الأدلة على ذلك ما يلي:

قوله تعالى: ﴿ **وَيَزِيدُ اللهُ الَّذِينَ اهْتَدَوْا هُدًى** ﴾ [مريم: ٧٦].

وقوله تعالى: ﴿ **فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى (٥) وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى (٦) فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَى** ﴾ [الليل: ٥-٧] أي: سنهيئه لعمل الخير. ﴿ **وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَى (٨) وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَى (٩) فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَى** ﴾ [الليل: ٨-١٠].

وقوله تعالى: ﴿ **وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ** ﴾ [محمد: ١٧].

وقوله تعالى: ﴿ **سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ** ﴾ [الأعراف: ١٤٦].

وقوله تعالى: ﴿ **فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللهُ قُلُوبَهُمْ** ﴾ [الصف: ٥].

وقوله تعالى: ﴿ **وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا** ﴾ [العنكبوت: ٦٩].

وقوله تعالى: ﴿ **وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ** ﴾ [الأنعام: ١١٠] إلى غير ذلك من الآيات.

* * *

الباقيات الصالحات

س: ما المراد بالباقيات الصالحات؟

ج: لأهل العلم في ذلك أقوال - قدمنا ذكرها في «سورة الكهف» - ومنها أن المراد بالباقيات الصالحات قول: «سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر ولا حول ولا قوة إلا بالله».

ومنها الصلاة، ومنها أن الباقيات الصالحات عموم الأعمال الصالحة والأقوال الصالحة التي يبتغى بها وجه الله عزَّ وجل فهذه التي تبقى لأصحابها يوم القيامة والله أعلم.

* * *

س: من المعروف أن المفضل عليه يشترك مع المفضل في أصل المصدر فمثلاً إذا قلنا السيف أحدُّ من السكين فيفيد هذا أن كليهما مشترك في أصل وهو القطع لكن السيفُ أشد قطعًا وكذلك قول القائل أنا أبرُّ أمي أكثرً من بري بأبي يفيد أنه يبر أباه وأمه ولكن برُّه بأمه أشد.

فكيف ينسحب هذا على المذكور في قوله تعالى: ﴿وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ مَّرَدًّا﴾.

فهذا يفيد بظاهره أن غير الباقيات الصالحات لهم أجر وثواب، ولكنها دون الباقيات الصالحات.

وكذا قوله: ﴿فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضْعَفُ جُندًا﴾؟

ج: الجواب على هذا أن هناك من صيغ أفعل التفضيل صيغًا تطلق وليس في الوجه المقابل شيءٌ كقوله تعالى: ﴿أَصْحَابُ الْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُّسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلاً﴾ [الفرقان: ٢٤].

مع أن أهل النار ليس لهم من حسن المُستقر وحُسن المقيل شيءٌ.

وكقول الصحابيات لعمر (أنت أفظ وأغلظ من رسول الله ﷺ).

هذا، وقد أورد الشنقيطي رحمه الله وجهًا آخر من وجوه الجواب فقال:

فإن قيل: ظاهر الآية أن لفظة «خير» في قوله: ﴿خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ مَّرَدًّا﴾ صيغة تفضيل، والظاهر أن المفضل عليه هو جزاء الكافرين؛ ويدل لذلك ما قاله صاحب «الدر المنثور»، قال: وأخرج ابن أبي حاتم عن سعيد بن جبير في قوله: ﴿خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا﴾. يعني: خيرٌ جزاءً من جزاء المشركين.

﴿وَخَيْرٌ مَّرَدًّا﴾ يعني: مرجعًا من مرجعهم إلى النار.

والمعروف في العربية أن صيغة التفضيل تقتضي مشاركة المفضل والمفضل عليه في أصل المصدر، مع أن المفضل يزيد فيه على المفضل عليه. والخيرية منفية بتاتًا عن جزاء المشركين وعن مردهم، فلم يشاركوا في ذلك المسلمين حتى يفضلوا عليهم.

فالجواب - أن الزمخشري في «كشافه» حاول الجواب عن هذا السؤال بما حاصله: أنه كأنه قيل ثوابهم النار، والجنة خير منها على طريقة قول بشر بن أبي حازم:

غضبت تميم أن تقتل عامرًا ... يوم النسار فأعتبوا بالصيلم

فقوله: «أعتبوا بالصيلم» يعني أرضوا بالسيف، أي: لا رضا لهم عندنا إلا السيف لقتلهم به. ونظيره قول عمرو بن معدي كرب:

وخيل قد دلفت لها بخيل ... تحية بينهم ضرب وجيع

أي: لا تحية بينهم إلا الضرب الوجيع. وقول الآخر:

شجعاء جرتها الذميل تلوكه ... أصلاً إذا راح المطي غراثا

يعني أن هذه الناقة لا جرة لها تخرجها من كرشها فتمضعها إلا السير.

* * *

أَفَرَءَيْتَ ٱلَّذِى كَفَرَ بِـَٔايَٰتِنَا وَقَالَ لَأُوتَيَنَّ مَالًا وَوَلَدًا
﴿٧٧﴾ أَطَّلَعَ ٱلْغَيْبَ أَمِ ٱتَّخَذَ عِندَ ٱلرَّحْمَٰنِ عَهْدًا ﴿٧٨﴾ كَلَّا ۚ
سَنَكْتُبُ مَا يَقُولُ وَنَمُدُّ لَهُۥ مِنَ ٱلْعَذَابِ مَدًّا ﴿٧٩﴾ وَنَرِثُهُۥ
مَا يَقُولُ وَيَأْتِينَا فَرْدًا ﴿٨٠﴾ وَٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ ءَالِهَةً
لِّيَكُونُوا۟ لَهُمْ عِزًّا ﴿٨١﴾ كَلَّا ۚ سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ
عَلَيْهِمْ ضِدًّا ﴿٨٢﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّآ أَرْسَلْنَا ٱلشَّيَٰطِينَ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ
تَؤُزُّهُمْ أَزًّا ﴿٨٣﴾ فَلَا تَعْجَلْ عَلَيْهِمْ ۖ إِنَّمَا نَعُدُّ لَهُمْ عَدًّا ﴿٨٤﴾
يَوْمَ نَحْشُرُ ٱلْمُتَّقِينَ إِلَى ٱلرَّحْمَٰنِ وَفْدًا ﴿٨٥﴾ وَنَسُوقُ ٱلْمُجْرِمِينَ
إِلَىٰ جَهَنَّمَ وِرْدًا ﴿٨٦﴾ لَّا يَمْلِكُونَ ٱلشَّفَٰعَةَ إِلَّا مَنِ ٱتَّخَذَ عِندَ
ٱلرَّحْمَٰنِ عَهْدًا ﴿٨٧﴾ وَقَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَلَدًا ﴿٨٨﴾ لَّقَدْ
جِئْتُمْ شَيْـًٔا إِدًّا ﴿٨٩﴾ تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ
وَتَنشَقُّ ٱلْأَرْضُ وَتَخِرُّ ٱلْجِبَالُ هَدًّا ﴿٩٠﴾ أَن دَعَوْا۟ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدًا
﴿٩١﴾ وَمَا يَنۢبَغِى لِلرَّحْمَٰنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا ﴿٩٢﴾ إِن كُلُّ مَن فِى
ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّآ ءَاتِى ٱلرَّحْمَٰنِ عَبْدًا ﴿٩٣﴾ لَّقَدْ أَحْصَىٰهُمْ
وَعَدَّهُمْ عَدًّا ﴿٩٤﴾ وَكُلُّهُمْ ءَاتِيهِ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فَرْدًا ﴿٩٥﴾

إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَيَجۡعَلُ لَهُمُ
ٱلرَّحۡمَٰنُ وُدّٗا ﴿٩٦﴾ فَإِنَّمَا يَسَّرۡنَٰهُ بِلِسَانِكَ لِتُبَشِّرَ بِهِ
ٱلۡمُتَّقِينَ وَتُنذِرَ بِهِۦ قَوۡمٗا لُّدّٗا ﴿٩٧﴾ وَكَمۡ أَهۡلَكۡنَا قَبۡلَهُم
مِّن قَرۡنٍ هَلۡ تُحِسُّ مِنۡهُم مِّنۡ أَحَدٍ أَوۡ تَسۡمَعُ لَهُمۡ رِكۡزَۢا ﴿٩٨﴾

س: اذكر معنى ما يلي:

كفر بآياتنا ـ لأوتين ـ أطلع الغيب ـ اتخذ عند الرحمن عهدًا ـ كلاَّ ـ نمدُّ له من العذاب مدًّا ـ نرثه ما يقول ـ يأتينا فردًا ـ عِزًّا ـ سيكفرون بعبادتهم ـ ضدًّا ـ ويكونون عليهم ضدًّا ـ تؤزهم أزًّا ـ نعدُّ لهم عدًّا ـ فلا تعجل عليهم ـ نحشر ـ وفدًا ـ وردًا ـ إدًّا ـ لقد جئتم ـ يتفطرن ـ هدًّا ـ أن دعوا للرحمن ولدًا ـ وما ينبغي ـ عبدًا ـ عدهم عدًّا ـ ودًّا ـ لُدًّا ـ تحس ـ رِكزًا.

ج:

الكلمة	معناها
﴿كفر بآياتنا﴾	كذَّب بحججنا فلم يصدِّق بها. كذَّب بالقرآن.
﴿لأُوتَيَنَّ﴾	لأعطين.
﴿أطَّلَعَ الْغَيْبَ﴾	أنظر في اللوح المحفوظ الذي كُتبت فيه المقادير؟ أعلم عِلمَ الغيب؟ أعلم ماله في الآخرة حتى يحلف؟

الكلمـــــة	معنـــاهـــــا
﴿ اتَّخَذَ عِندَ الرَّحْمَنِ عَهْدًا ﴾	أأعطاه الله عهداً أن يؤتيه المال والولد ؟ أعمل عملاً صالحًا فكان له بذلك العمل عند الله عهدٌ أن يدخله الجنة ويؤتيه المال والولد؟
﴿ كَلَّا ﴾	هي حرف ردعٍ لما قبلها ، وتأكيد لما بعدها وكلا بمعنى حقًّا وأيضًا بمعنى لا ، أي : ليس الأمر كما قدروا
﴿ وَنَمُدُّ لَهُ مِنَ الْعَذَابِ مَدًّا ﴾	نزيده من العذاب زيادة ، نعذبه عذابًا فوق عذاب ، نوسع عليه من العذاب توسعةً .
﴿ وَنَرِثُهُ مَا يَقُولُ ﴾	نسلبه ماله وولده ، ويصير ماله وولده إلينا .
﴿ وَيَأْتِينَا فَرْدًا ﴾	يأتينا وحده يوم القيامة لا مال معه ولا ولد .
﴿ عِزًّا ﴾	مانعًا ـ مُقربًا ـ قويًّا ـ ناصراً . (يتعززون بها كي تمنعهم من عذاب الله بزعمهم وكي يتقربوا بها إلى الله زلفى بزعمهم) .
﴿ سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ ﴾	سيبرءون من عبادتهم .
﴿ ضِدًّا ﴾	عونًا ـ أعداءً ـ وقيل قرناء في النار معهم .
﴿ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا ﴾	تكون الآلهة التي عبدوها من دون الله عونًا عليهم تخاصمهم وتكذبهم ، أعوانًا ، وأيضًا أوثانهم في النار معهم يحترقون بها ، وقيل : ضدًّا أي : بلاءً وحسرة .
﴿ تَؤُزُّهُمْ أَزًّا ﴾	تغريهم إغراءً وتُغويهم إغواءً .

معناها	الكلمة
تضلهم إضلالاً، تزعجهم إزعاجًا. تدفعهم إلى المعاصي دفعًا.	
لا تعجل بطلب عذابهم ـ لا تستعجل نزول العذاب عليهم.	﴿فلا تعجل عليهم﴾
نعد السنوات التي يعيشونها والتي بقيت من آجالهم، فلهم آجال لا يتجاوزونها. وقيل: نحسب أنفاسهم التي يتنفسونها فهي معدودة كأعمارهم. وقيل: نعد أعمالهم التي عملوها.	﴿نَعُدُّ لَهُمْ عَدًّا﴾
نجمع.	﴿نَحْشُرُ﴾
ركبانًا (قيل: على إبل لم يُر مثلها قط). والوفد [1] جمع وافد، كـ(صحب) جمع (صاحب) و(ركب) جمع (راكب).	﴿وَفْدًا﴾
عطاشًا.	﴿وِرْدًا﴾
لقد فعلتم ـ لقد قلتم.	﴿لقد جئتم﴾
عظيمًا ـ منكرًا.	﴿إِدًّا﴾
يتشققن.	﴿يَتَفَطَّرْنَ﴾
سقوطًا ـ هدمًا ـ انقضاضًا.	﴿هَدًّا﴾
لكونهم قالوا: إن الله له ابن.	﴿أن دَعَوْا لِلرَّحْمنِ وَلَدًا﴾

الكلمـــة	معنـاهـــــا
﴿ومَا ينبغِي﴾	وما يصلح ولا يجوز، ولا يليق به وبعظمته (لأنه لا كفؤ له من خلقه فهو إله، والخلق عبيد).
﴿ عَبْدًا ﴾	خاضعًا ذليلاً مُقرًّا بالعبودية.
﴿ وُدًا ﴾	محبةً في قلوب المؤمنين في الدنيا، يحببهم الله إلى قلوب العباد.
﴿وعَدَّهُمْ عدًّا﴾	أحصاهم إحصاءً. عرف عددهم.
﴿ لُدًّا ﴾	ظَلَمة ـ شديدي الخصومة والجدل، ومنه قوله تعالى: ﴿وَهُوَ أَلَدُّ الخِصَامِ﴾ ـ فجارًا ـ عوجًا (غير مستقيمين).
﴿تُحِسُّ﴾	تشعر ـ ترى[1]
﴿رِكْزًا﴾	صوتًا ـ صوتًا خفيًّا.

س: اذكر سبب نزول قوله تعالى: ﴿أَفَرَءَيْتَ الَّذِي كَفَرَ بِآيَاتِنَا وَقَالَ لَأُوتَيَنَّ مَالاً وَوَلَدًا﴾.

ج: أخرج البخاري[١] في «صحيحه» من حديث خباب رضي الله عنه قال: كنت رجلاً قينًا[٢]، وكان لي على العاص بن وائل دينٌ[٣]، فأتيته أتقاضاه، فقال لي: لا أقضيك حتى تكفر بمحمد، قال قلتُ لن أكفرَ به حتى تموت ثم تبعث. قال: وإني لمبعوثٌ من بعد الموت؟ فسوف أقضيكَ إذا رجَعتُ إلى مالٍ وولد[٤] قال فنزلَتْ: ﴿أَفَرَءَيْتَ الَّذِي كَفَرَ بِآيَاتِنَا وَقَالَ لَأُوتَيَنَّ مَالاً وَوَلَدًا ﴿٧٧﴾ أَطَّلَعَ الْغَيْبَ أَمِ اتَّخَذَ عِندَ الرَّحْمَنِ عَهْدًا ﴿٧٨﴾ كَلاَّ سَنَكْتُبُ مَا يَقُولُ وَنَمُدُّ لَهُ مِنَ الْعَذَابِ مَدًّا ﴿٧٩﴾ وَنَرِثُهُ مَا يَقُولُ وَيَأْتِينَا فَرْدًا﴾.

* * *

س: الكافر ينكر البعث، ويتوهم أيضًا أن لو كان بعث فالذي أكرمه في الدنيا وأعطاه من المال والولد ما أعطاه سيعطيه في الآخرة أيضًا، دلِّل على ذلك.

ج: من الأدلة على ذلك ما يلي:

قول الكافر ها هنا: ﴿لَأُوتَيَنَّ مَالاً وَوَلَدًا﴾ أي: يوم القيامة كما أوتيت

---

(١) البخاري (٤٧٣٥) وفي غير موطنٍ من «صحيحه».

(٢) قينًا: القين هو الحداد.

(٣) في رواية عند البخاري (٤٧٣٣): فعملت للعاص بن وائل سيفًا... وفي ثالثة (٤٧٣٤) كنت قينًا في الجاهلية...

(٤) في بعض الروايات: إن لي هناك مالاً وولدًا فأقضيك.

المال في الدنيا سيؤتيني الله يوم القيامة.

وقوله أيضًا في مواطن أخر ﴿وَلَئِن رُّجِعْتُ إِلَى رَبِّي إِنَّ لِي عِندَهُ لَلْحُسْنَى﴾ [فصلت: ٥٠].

وقول الكافر صاحب الجنتين المذكور في سورة الكهف: ﴿وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَى رَبِّي لأَجِدَنَّ خَيْراً مِّنْهَا مُنقَلَبًا﴾ [الكهف: ٣٦].

هذا، ومن العلماء من أورد في الآية المذكورة ﴿لأُوتَيَنَّ مَالاً وَوَلَدًا﴾ وجهًا آخر.

ألا وهو إن هذا الكافر قال مقالته سخريةً من الدين واستهزاءً به واستهزاءً بخباب رضي الله عنه.

* * *

س: وضح المراد بقوله تعالى: ﴿أَطَّلَعَ الْغَيْبَ أَمِ اتَّخَذَ عِندَ الرَّحْمَنِ عَهْدًا﴾.

ج: إيضاحه، والله تعالى أعلم: أن قائل هذه المقولة ﴿لأُوتَيَنَّ مَالاً وَوَلَدًا﴾ لا يخلو قوله من احتمالات ثلاثة:

أولها: أنه اطلع على اللوح المحفوظ ونظر فيه فوجد أن الله سيؤتيه المال والولد.

الثاني: أن الله عهد إليه عهدًا أن يؤتيه المال والولد.

الثالث: أنه افترىٰ علىٰ الله كذبًا فيما ادعاه.

فلما كان لم يطلع علىٰ اللوح المحفوظ ولم يعهد الله إليه عهدًا فما بقي إلا الثالث ألا وهو: أنه افترىٰ علىٰ الله كذبًا فعليه فسنكتب كذبه علىٰ الله

وافتراءه عليه وسنعاقبه على ذلك بما يستحق.

* * *

س: اذكر بمزيد من الإيضاح معنى قوله تعالى: ﴿ أَمِ اتَّخَذَ عِندَ الرَّحْمَنِ عَهْدًا ﴾.

ج: المعنى، والله تعالى أعلم: أأعطى الله سبحانه وتعالى هذا المُدعي عهدًا أنه سيؤتى مالاً وولدًا، وأنه سيدخله الجنة ويرزقه هنالك بالمال والولد؟

وبمعنى آخر: أعمل هذا المُدعي أعمالاً صالحة وعد الله من عملها بدخول الجنة؟!

وبتنزيل آخر: أقال هذا الشخص لا إله إلا الله، فدخل بذلك ضمن من وُعدوا بدخول الجنة بقولهم لا إله إلا الله؟!

ثم هذا مزيد من أقوال العلماء في هذا الصدد.

قال الطبري رحمه الله:

وقوله: ﴿أَطَّلَعَ الْغَيْبَ﴾ يقول عز ذكره: أعلم هذا القائل هذا القول علم الغيب، فعلم أن له في الآخرة مالاً وولدًا بإطلاعه على علم ما غاب عنه؟ ﴿ أَمِ اتَّخَذَ عِندَ الرَّحْمَنِ عَهْدًا ﴾ يقول: أم آمن بالله وعمل بما أمر به، وانتهى عما نهاه عنه، فكان له بذلك عند الله عهد أن يؤتيه ما يقول من المال والولد؟!

وقال الشنقيطي في «أضواء البيان»:

وأظهر الأقوال عندي في معنى العهد في قوله تعالى في هذه الآية الكريمة: ﴿ أَمِ اتَّخَذَ عِندَ الرَّحْمَنِ عَهْدًا ﴾ أن المعنى: أم أعطاه الله عهدًا أنه سيفعل له

ذلك، بدليل قوله تعالى في نظيره في سورة «البقرة»: ﴿قُلْ أَتَّخَذْتُمْ عِندَ اللَّهِ عَهْدًا فَلَن يُخْلِفَ اللَّهُ عَهْدَهُ﴾. وخير ما يفسره به القرآن القرآن. وقيل: العهد المذكور: العمل الصالح. وقيل: شهادة أن لا إله إلا الله.

* * *

س: اذكر بعض الأدلة على أن الأقوال والأعمال تُكتب؟

ج: من الأدلة على ذلك ما يلي:

قوله تعالى: ﴿سَنَكْتُبُ مَا يَقُولُ وَنَمُدُّ لَهُ مِنَ الْعَذَابِ مَدًّا﴾ [مريم: ٧٩].

وقوله تعالى: ﴿بَلَى وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ﴾ [الزخرف: ٨٠].

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ رُسُلَنَا يَكْتُبُونَ مَا تَمْكُرُونَ﴾ [يونس: ٢١].

وقوله تعالى: ﴿وَكُلُّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ مُّسْتَطَرٌ﴾ [القمر: ٥٣].

وقوله تعالى: ﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ (١٠) كِرَامًا كَاتِبِينَ﴾ [الانفطار: ١٠، ١١].

وقوله تعالى: ﴿وَوُضِعَ الْكِتَابُ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَا وَيْلَتَنَا مَا لِهَذَا الْكِتَابِ لا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلا كَبِيرَةً إِلاَّ أَحْصَاهَا﴾ [الكهف: ٤٩].

وقوله تعالى: ﴿سَنَكْتُبُ مَا قَالُوا وَقَتْلَهُمُ الأَنبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ﴾ [آل عمران: ١٨١].

وقوله تعالى: ﴿وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ مَنشُورًا (١٣) اقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَى بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا﴾ [الإسراء: ١٣، ١٤].

وقوله تعالى: ﴿سَتُكْتَبُ شَهَادَتُهُمْ وَيُسْأَلُونَ﴾ [الزخرف: ١٩].

وقوله تعالى: ﴿هَذَا كِتَابُنَا يَنطِقُ عَلَيْكُم بِالْحَقِّ إِنَّا كُنَّا نَسْتَنسِخُ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [الجاثية: ٢٩].

س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿واتَّخَذُوا مِن دُونِ اللهِ آلِهَةً لِّيَكُونُوا لَهُمْ عِزًّا﴾؟

ج: المعنى، والله تعالى أعلم، أن أهل الشرك اتخذوا آلهة أخرى سوى الله عزَّ وجل، ومع الله عزَّ وجل ليتعززوا بها وينتصروا بها ويتقووا بها، ويتقربوا إلى الله بها ويفتخروا بها، كما كان أبو سفيان يقول أثناء كفره يوم أحد لنا العزى ولا عزى لكم، وكان يقول أُعلُ هبل. إلى غير ذلك.

قال الشنقيطي رحمه الله في «أضواء البيان»:

قوله تعالى: ﴿ وَاتَّخَذُوا مِن دُونِ اللهِ آلِهَةً لِّيَكُونُوا لَهُمْ عِزًّا (٨١) كَلاَّ سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا﴾ [مريم: ٨١، ٨٢].

ذكر جل وعلا في هذه الآية الكريمة: أن الكفار المتقدم ذكرهم في قوله: ﴿وَنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا﴾ اتخذوا من دون الله آلهة أي معبودات من أصنام وغيرها يعبدونها من دون الله، وأنهم عبدوهم لأجل أن يكونوا لهم عزًّا أي أنصاراً وشفعاء ينقذونهم من عذاب الله؛ كما أوضح تعالى مرادهم بذلك في قوله: ﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلاَّ لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللهِ زُلْفَى﴾ [الزمر: ٣] فتقريبهم إياهم إلى الله زلفى في زعمهم هو عزهم الذي أملوه بهم؛ وكقوله تعالى عنهم: ﴿وَيَقُولُونَ هَؤُلاءِ شُفَعَاؤُنَا عِندَ اللهِ﴾ [يونس: ١٨] الآية. فالشفاعة عند الله عز لهم بهم يزعمونه كذبًا وافتراء على الله؛ كما بينه بقوله تعالى: ﴿ قُلْ أَتُنَبِّئُونَ اللهَ بِمَا لا يَعْلَمُ فِي السَّمَوَاتِ وَلا فِي الأَرْضِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [يونس: ١٨].

* * *

تبرؤ المعبودين من دون الله ممن عبدهم

س: المعبودون من دون الله يتبرءون ممن عبدهم يوم القيامة دلِّل على ذلك.

ج: من الأدلة على ذلك ما يلي:

قوله تعالى: ﴿ كَلاَّ سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا ﴾ [مريم: ٨٢].

وقوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ فَيَقُولُ أَأَنتُمْ أَضْلَلْتُمْ عِبَادِي هَؤُلاءِ أَمْ هُمْ ضَلُّوا السَّبِيلَ (١٧) قَالُوا سُبْحَانَكَ مَا كَانَ يَنبَغِي لَنَا أَن نَّتَّخِذَ مِن دُونِكَ مِنْ أَوْلِيَاءَ وَلَكِن مَّتَّعْتَهُمْ وَآبَاءَهُمْ حَتَّى نَسُوا الذِّكْرَ وَكَانُوا قَوْمًا بُورًا (١٨) فَقَدْ كَذَّبُوكُم بِمَا تَقُولُونَ فَمَا تَسْتَطِيعُونَ صَرْفًا وَلا نَصْرًا﴾ [الفرقان: ١٧-١٩].

وقوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلائِكَةِ أَهَؤُلاءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا يَعْبُدُونَ (٤٠) قَالُوا سُبْحَانَكَ أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِم بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ الْجِنَّ أَكْثَرُهُم بِهِم مُّؤْمِنُونَ﴾ [سبأ: ٤٠، ٤١].

وقوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَهَيْنِ مِن دُونِ اللَّهِ قَالَ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ إِن كُنتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنتَ عَلاَّمُ الْغُيُوبِ (١١٦) مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلاَّ مَا أَمَرْتَنِي بِهِ أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ...﴾ [المائدة: ١١٦، ١١٧].

* * *

س: اذكر بمزيدٍ من الإيضاح معنى قوله تعالى: ﴿وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا﴾.

ج: المعنى، والله تعالى أعلم أن الآلهة التي عبدها المشركون من دون الله، تكون يوم القيامة بلاءً على من عبدها وتكون قرينة له تعاديه وتكذبه وتلعنه، بل ويعذب بها (إذا كانت مما يُعذَّب به كالحجارة ونحوها) وتقوده إلى النار، كما في الحديث: «**تتبع كل أمة ما كانت تعبد فيتبع من كان يعبد الشمس الشمس، ويتبع من كان يعبد القمر القمر، ويتبع من كان يعبد الطواغيت الطواغيت...**» الحديث[1].

وهذا مزيد من أقوال العلماء في ذلك:

أخرج الطبري[2] بسندٍ حسن عن قتادة قوله ﴿وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا﴾ قرناء في النار يلعن بعضهم بعضًا ويتبرأ بعضهم من بعض وبسندٍ صحيح[3] عن ابن زيد في قوله ويكونون عليهم ضدًّا.

قال: يكونون عليهم بلاء. الضدّ: البلاء، والضدّ في كلام العرب: هو الخلاف، يقال: فلان يضادّ فلانًا في كذا، إذا كان يخالفه في صنيعه، فيفسد ما أصلحه، ويصلح ما أفسده، وإذ كان ذلك معناه، وكانت آلهة هؤلاء المشركين الذين ذكرهم الله في هذا الموضع يتبرءون منهم، وينتفون يومئذٍ صاروا لهم أضدادًا، فوصفوا بذلك.

* * *

---

(١) البخاري (٦٠٨) ومسلم (١/ ١٦٣-١٦٤) بنحوه.

(٢) الطبري (٢٣٩١٦).

(٣) أثر (٢٣٩١٩).

س: اذكر آيةً في معنى قوله تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّا أَرْسَلْنَا الشَّيَاطِينَ عَلَى الْكَافِرِينَ تَؤُزُّهُمْ أَزًّا ﴾ مع إيضاح بعض معاني الآية الكريمة.

ج: في معناها قوله تعالىٰ: ﴿وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ ۝٣٦ وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ﴾ [الزخرف: ٣٦، ٣٧].

وقوله تعالىٰ: ﴿وَقَيَّضْنَا لَهُمْ قُرَنَاءَ فَزَيَّنُوا لَهُم مَّا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَحَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِم مِّنَ الْجِنِّ وَالإِنسِ إِنَّهُمْ كَانُوا خَاسِرِينَ﴾ [فصلت: ٢٥].

وقوله تعالىٰ: ﴿وَإِخْوَانُهُمْ يَمُدُّونَهُمْ فِي الْغَيِّ ثُمَّ لا يُقْصِرُونَ﴾ [الأعراف: ٢٠٢].

أما عن معنى الآية الكريمة فقد قال القرطبي رحمه الله:

قوله تعالىٰ: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّا أَرْسَلْنَا الشَّيَاطِينَ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ أي سلطناهم عليهم بالإغواء، وذلك حين قال لإبليس: ﴿وَاسْتَفْزِزْ مَنِ اسْتَطَعْتَ مِنْهُم بِصَوْتِكَ﴾ [الإسراء: ٦٤].

وقيل: «أرسلنا» أي خلينا؛ يقال: أرسلت البعير أي خليته، أي خلينا الشياطين وإياهم ولم نعصمهم من القبول منهم.

الزجاج: قَيَّضنا.

﴿ تَؤُزُّهُمْ أَزًّا ﴾ قال ابن عباس: تزعجهم إزعاجًا من الطاعة إلىٰ المعصية.

وعنه: تغريهم إغراء بالشر: امض امض في هذا الأمر، حتىٰ توقعهم في النار.

حكىٰ الأول الثعلبي، والثاني الماوردي، والمعنىٰ واحد.

الضحاك: تغويهم إغواء.

مجاهد: تشليهم إشلاء، وأصله الحركة والغَلَيان، ومنه الخبر المرويّ عن النبي ﷺ (قام إلى الصلاة ولجوفه أزيز كأزيز المِرْجل من البكاء).

وائتزت القِدر ائتزازًا اشتد غليانها.

والأزّ التّهييج والإغراء، قال الله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّا أَرْسَلْنَا الشَّيَاطِينَ عَلَى الْكَافِرِينَ تَؤُزُّهُمْ أَزًّا﴾ أي تغريهم على المعاصي. والأز الاختلاط. وقد أززت الشيء أؤزّه أزًّا أي ضممتُ بعضه إلى بعض. قاله الجوهري.

وقال الشنقيطي في أضواء البيان:

قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّا أَرْسَلْنَا الشَّيَاطِينَ عَلَى الْكَافِرِينَ تَؤُزُّهُمْ أَزًّا﴾ [مريم: ٨٣].

قوله: ﴿أَرْسَلْنَا الشَّيَاطِينَ﴾ الآية: أي سلطناهم عليهم وقيضناهم لهم؛ وهذا هو الصواب.

خلافًا لمن زعم أن معنى ﴿أَرْسَلْنَا الشَّيَاطِينَ﴾ الآية: أي خلينا بينهم وبينهم، ولم نعصمهم من شرهم؛ يقال: أرسلت البعير أي خليته.

وقوله: ﴿تَؤُزُّهُمْ أَزًّا﴾: الأزُّ والهزُّ والاستفزاز بمعنى، ومعناها: التهييج وشدة الإزعاج، فقوله: ﴿تَؤُزُّهُمْ أَزًّا﴾ أي: تهيجهم وتزعجهم إلى الكفر والمعاصي.

وأقوال أهل العلم في الآية راجعة إلى ما ذكرنا: كقول ابن عباس ﴿تَؤُزُّهُمْ أَزًّا﴾: أي تغويهم إغواء.

وكقول مجاهد ﴿تَؤُزُّهُمْ أَزًّا﴾: أي تشليهم إشلاء.

وكقول قتادة ﴿تَؤُزُّهُمْ أَزًّا﴾ أي تزعجهم إزعاجًا.

وما ذكره جل وعلا في هذه الآية الكريمة - من أنه سلط الشياطين على الكافرين، وقيضهم لهم يضلونهم عن الحق بينه في مواضع أخر من كتابه؛

كقوله تعالىٰ: ﴿وَقَيَّضْنَا لَهُمْ قُرَنَاءَ فَزَيَّنُوا لَهُم مَّا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ﴾ [فصلت: ٢٥] الآية، وقوله تعالىٰ: ﴿وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ الرَّحْمَٰنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ (٣٦) وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ السَّبِيلِ﴾ [الزخرف: ٣٦، ٣٧] الآية، وقوله تعالىٰ: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ قَدِ اسْتَكْثَرْتُم مِّنَ الْإِنسِ﴾ [الأنعام: ١٢٨] الآية، وقوله: ﴿وَإِخْوَانُهُمْ يَمُدُّونَهُمْ فِي الْغَيِّ ثُمَّ لَا يُقْصِرُونَ﴾ [الأعراف: ٢٠٢]، إلىٰ غير ذلك من الآيات.

❊ ❊ ❊

س: هل كان رسولنا ﷺ يتعجل نزول العذاب عليهم؟ فإن كان ذلك كذلك فكيف يُجمع بينه وبين تأني رسول الله ﷺ بالقوم لعل الله أن يخرج من أصلابهم من يعبد الله ولا يشرك به شيئًا كما في حديث الأخشبين المعروف؟

ج: جواب ذلك، وبالله التوفيق أن هناك أقوامًا دعا عليهم رسول الله ﷺ، وأحب تعجيل عقابهم فقد دعا رسول الله ﷺ علىٰ رعلٍ وذكوان وعصية عصت الله ورسوله، وذلك لفسادهم وشدة طغيانهم وصدهم عن سبيل الله، وغدرهم.

وأقوام آخرون (وهم عموم أهل مكة). تأنىٰ رسول الله ﷺ بهم لعلّ الله يخرج من أصلابهم من يعبد الله ولا يشرك به شيئًا.

فحاصل الأمر أن الأحوال تختلف، والأقوام كذلك يختلفون، ولهذا نظائر عدةٌ في كتاب الله عزَّ وجل.

❊ ❊ ❊

س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿فَلا تَعْجَلْ عَلَيْهِمْ إِنَّمَا نَعُدُّ لَهُمْ عَدًّا﴾.

ج: المعنى، والله تعالى أعلم، لا تستعجل يا محمد، يا رسولنا ـ عذاب هؤلاء وهلاكهم فإن لهم أجلاً قدره الله وحفظه لن يتأخروا عنه ولن يتقدموا، وكلُّ ما مرَّ من أنفاسهم وما بقي من آجالهم فهو محسوب، ومقربهم من ذلك اليوم وكذا أعمالهم معدودة محفوظة.

وهذه بعض أقوال العلماء في ذلك.

قال الطبري رحمه الله:

وقوله: **﴿فَلا تَعْجَلْ عَلَيْهِمْ إِنَّمَا نَعُدُّ لَهُمْ عَدًّا﴾** يقول عزّ ذكره: فلا تعجل على هؤلاء الكافرين بطلب العذاب لهم والهلاك، يا محمد إنما نعدّ لهم عدًّا، يقول: فإنما نؤخر إهلاكهم ليزدادوا إثمًا، ونحن نعدّ أعمالهم كلها ونحصيها حتى أنفاسهم لنجازيهم على جميعها، ولم نترك تعجيل هلاكهم لخير أردناه بهم.

وقال الحافظ ابن كثير رحمه الله:

وقوله: **﴿فَلا تَعْجَلْ عَلَيْهِمْ إِنَّمَا نَعُدُّ لَهُمْ عَدًّا﴾** أي: لا تعجل يا محمد على هؤلاء في وقوع العذاب بهم **﴿إِنَّمَا نَعُدُّ لَهُمْ عَدًّا﴾** أي: إنما نؤخرهم لأجل معدود مضبوط، وهم صائرون لا محالة إلى عذاب الله ونكاله، : **﴿وَلا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَافِلاً عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الأَبْصَارُ﴾** [إبراهيم: ٤٢].

﴿فَمَهِّلِ الْكَافِرِينَ أَمْهِلْهُمْ رُوَيْدًا﴾ [الطارق: ١٧] **﴿إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُوا إِثْمًا﴾** [آل عمران: ١٧٨] **﴿نُمَتِّعُهُمْ قَلِيلاً ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ إِلَى عَذَابٍ**

غليظ﴾ [لقمان: ٣٤]، ﴿قُلْ تَمَتَّعُوا فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى النَّارِ﴾ [إبراهيم: ٣٠].

قال السدي: ﴿إِنَّمَا نَعُدُّ لَهُمْ عَدًّا﴾: السنين والشهور والأيام والساعات.

وقال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس: ﴿إِنَّمَا نَعُدُّ لَهُمْ عَدًّا﴾ قال: نعد أنفاسهم في الدنيا.

* * *

س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿وَنَسُوقُ الْمُجْرِمِينَ إِلَى جَهَنَّمَ وِرْدًا﴾.

ج: قال القرطبي رحمه الله:

﴿وَنَسُوقُ الْمُجْرِمِينَ إِلَى جَهَنَّمَ وِرْدًا﴾ السوق الحثّ على السير، و «وردًا» عِطاشًا؛ قاله ابن عباس وأبو هريرة رضي الله عنهما.

والحسن، والأخفش، والفراء، وابن الأعرابي: حفاة مشاة.

وقيل: أفواجًا. وقال الأزهري: أي مشاة عِطاشًا، كالإبل ترد الماء؛ فيقال: جاء ورد بني فلان.

القشيري: وقوله ﴿وِرْدًا﴾ يدل على العطش؛ لأن الماء إنما يورد في الغالب للعطش.

وفي «التفسير»: مشاة عِطاشًا تتقطع أعناقهم من العطش، وإذا كان سوق المجرمين إلى النار فحشر المتقين إلى الجنة.

وقيل: «وِردًا» أي الورود؛ كقولك: جئتك إكرامًا لك أي لإكرامك، أي نسوقهم لورود النار.

قلت: ولا تناقض بين هذه الأقوال، فيساقون عِطاشًا حفاة مشاة أفواجًا.

قال ابن عرفة : الورد القوم يردون الماء ، فسمي العطاش وردًا لطلبهم ورود الماء ؛ كما تقول : قوم صَوْم أي صيام ، وقوم زَوْر أي زوّار ، فهو اسم على لفظ المصدر ، واحدهم وارد .

والورد أيضًا الجماعة التي ترد الماء من طير وإبل .

والورد الماء الذي يوردُ . وهذا من باب الإيماء بالشيء إلى الشيء .

الورد الجزء من القرآن يقال : قرأت وِرِدي . والوِرد يوم الحمى إذا أخذت صاحبها لوقت . فظاهره لفظ مشترك . وقال الشاعر يصف قَلِيبًا .

يَطْمو إذا الوِرْدُ عليه التكَّا

أي الورّاد الذين يريدون الماء .

* * *

س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿يَوْمَ نَحْشُرُ الْمُتَّقِينَ إِلَى الرَّحْمَنِ وَفْدًا﴾.

ج: قال الحافظ ابن كثير رحمه الله تعالى:

يخبر تعالى عن أوليائه المتقين ، الذين خافوه في الدار الدنيا ، واتبعوا رسله ، وصدقوهم فيما أخبروهم ، وأطاعوهم فيما أمروهم به ، وانتهوا عما عنه زجروهم أنه يحشرهم يوم القيامة وفدًا إليه ، والوفد : هم القادمون ركبانًا ، ومنه الوفود ، وركوبهم على نجائب من نور ، من مراكب الدار الآخرة ، وهم قادمون على خير موفود إليه ، إلى دار كرامته ورضوانه .

وقال الشنقيطي في أضواء البيان:

قوله تعالى : ﴿يَوْمَ نَحْشُرُ الْمُتَّقِينَ إِلَى الرَّحْمَنِ وَفْدًا ﴿٨٥﴾ وَنَسُوقُ

الْمُجْرِمِينَ إِلَى جَهَنَّمَ وِرْدًا ﴾ [مريم: ٨٥-٨٦].

ذكر جل وعلا في هذه الآية الكريمة: أن المتقين الذين كانوا يتقونه في دار الدنيا بامتثال أمره واجتناب نهيه يحشرون إليه يوم القيامة في حال كونهم وفدًا.

والوفد على التحقيق: جمع وافد كصاحب وصحب، وراكب وركب.

وقدمنا في سورة «النحل» أن التحقيق أن الفعل بفتح فسكون من صيغ جموع الكثرة للفاعل وصفًا، وبينا شواهد ذلك من العربية، وإن أغفله الصرفيون.

والوافد: من يأتي إلى الملك مثلاً في أمر له شأن. وجمهور المفسرين على أن معنى قوله: ﴿وَفْدًا﴾ أي ركبانًا.

وبعض العلماء يقول: هم ركبان على نجائب من نور من مراكب الدار الآخرة.

وبعضهم يقول: يحشرون ركبانًا على صور من أعمالهم الصالحة في الدنيا في غاية الحسن وطيب الرائحة.

* * *

س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿لا يَمْلِكُونَ الشَّفَاعَةَ إِلاَّ مَنِ اتَّخَذَ عِندَ الرَّحْمَنِ عَهْدًا﴾.

ج: المعنى، والله تعالى أعلم، لا يملك هؤلاء الكفار شفاعة، فلا يشفعون لأحدٍ ولا يشفع فيهم أحد، لكن من شهد ألا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله وعمل صالحًا فله بإذن الله شفاعة، وفيه بإذن الله شفاعة.

فلهؤلاء المؤمنين الذين عملوا الصالحات شفاعات يوم القيامة.

هذا، وقد قال الطبري رحمه الله:

يقول تعالىٰ ذكره: لا يملك هؤلاء الكافرون بربهم -يا محمد، يوم يحشر الله المتقين إليه وفداً- الشفاعة، حين يشفع أهل الإيمان بعضهم لبعض عند الله، فيشفع بعضهم لبعض ﴿إِلاَّ مَنِ اتَّخَذَ﴾ منهم ﴿عِندَ الرَّحْمَنِ﴾ في الدنيا ﴿عَهْداً﴾ بالإيمان به، وتصديق رسوله، والإقرار بما جاء به، والعمل بما أمر به.

وقال الشنقيطي في أضواء البيان:

قد قدمنا في ترجمة هذا الكتاب المبارك: أن من أنواع البيان التي تضمنها أن يكون في الآية وجهان أو أوجه من التفسير كلها حق، وكل واحد منها يشهد له قرآن فإنا نذكر الجميع وأدلته من كتاب الله تعالىٰ لأنه كله حق، فإذا علمت ذلك فاعلم- أن هذه الآية الكريمة من ذلك النوع.

قال بعض أهل العلم: الواو في قوله: ﴿لا يَمْلِكُونَ﴾ راجعه إلىٰ ﴿الْمُجْرِمِينَ﴾ المذكورين في قوله: ﴿وَنَسُوقُ الْمُجْرِمِينَ إِلَى جَهَنَّمَ﴾ أي لا يملك المجرمون الشفاعة، أي لا يستحقون أن يشفع فيهم شافع يخلصهم مما هم فيه من الهول والعذاب.

﴿لا يَمْلِكُونَ﴾ أي لا يملك من جميعهم أحد الشفاعة إلا من اتخذ عند الرحمن عهداً وهم المؤمنون. والعهد: العمل الصالح.

والقول بأنه لا إله إلا الله وغيره من الأقوال يدخل في ذلك؛ أي إلا المؤمنون فإنهم يشفع بعضهم في بعض، كما قال تعالىٰ: ﴿يَوْمَئِذٍ لاَّ تَنفَعُ الشَّفَاعَةُ إِلاَّ مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَرَضِيَ لَهُ قَوْلاً﴾ [طه:١٠٩].

وقد بين تعالىٰ في مواضع أخر: أن المعبودات التي يعبدونها من دون الله لا تملك الشفاعة، وأن من شهد بالحق يملكها بإذن الله له في ذلك، وهو قوله تعالىٰ: ﴿وَلَا يَمْلِكُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِ الشَّفَاعَةَ إِلَّا مَن شَهِدَ بِالْحَقِّ﴾ [الزخرف: ٨٦] الآية: أي لكن من شهد بالحق يشفع بإذن الله له في ذلك.

وقال تعالىٰ: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُبْلِسُ الْمُجْرِمُونَ ﴿١٢﴾ وَلَمْ يَكُن لَّهُم مِّن شُرَكَائِهِمْ شُفَعَاءُ﴾ [الروم: ١٢، ١٣] الآية، وقال تعالىٰ: ﴿وَيَقُولُونَ هَؤُلَاءِ شُفَعَاؤُنَا عِندَ اللَّهِ قُلْ أَتُنَبِّئُونَ اللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ﴾ [يونس: ١٨] الآية.

والأحاديث في الشفاعة وأنواعها كثيرة معروفة. والعلم عند الله تعالىٰ.

وفي إعراب جملة «لا يملكون» وجهان:

الأول: أنها حالية؛ أي نسوق المجرمين إلىٰ جهنم في حال كونهم لا يملكون الشفاعة.

أو نحشر المتقين ونسوق المجرمين في حال كونهم لا يملكون الشفاعة إلا من اتخذ منهم عند الرحمن عهداً.

والثاني: أنها مستأنفة للإخبار، حكاه أبو حيان في البحر.

ومن أقوال العلماء في العهد المذكور في الآية: أنه المحافظة علىٰ الصلوات الخمس، واستدل من قال ذلك بحديث عبادة بن الصامت الذي قدمنا الكلام علىٰ قوله تعالىٰ ﴿فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ﴾ [مريم: ٥٩].

وهذا الوجه من التفسير تشهد له آيات من كتاب الله؛ كقوله تعالىٰ: ﴿فَمَا تَنفَعُهُمْ شَفَاعَةُ الشَّافِعِينَ﴾ [المدثر: ٤٨]، وقوله تعالىٰ: ﴿فَمَا لَنَا مِن شَافِعِينَ ﴿١٠٠﴾ وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ﴾ [الشعراء: ١٠٠-١٠١]، وقوله تعالىٰ: ﴿وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ

الآزِفَةِ إِذِ الْقُلُوبُ لَدَى الْحَنَاجِرِ كَاظِمِينَ مَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلا شَفِيعٍ يُطَاعُ﴾ [غافر:١٨] الآية؛ وقوله: **﴿وَلا يَشْفَعُونَ إِلاَّ لِمَنِ ارْتَضَى﴾** [الأنبياء:٢٨] مع قوله: **﴿وَلا يَرْضَى لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ﴾** [الزمر:٧]، إلى غير ذلك من الآيات.

وهذا الوجه يفهم منه بالأحرى أن المجرمين لا يشفعون في غيرهم، لأنهم إذا كانوا لا يستحقون أن يشفع فيهم غيرهم لكفرهم فشفاعتهم في غيرهم ممنوعة من باب أولى.

وعلى كون الواو في ﴿لا يملكون﴾ راجعة إلى ﴿المجرمين﴾ فالاستثناء منقطع و «من» في محل نصب.

والمعنى: لكن من اتخذ عند الرحمن عهداً يملكون الشفاعة، أي بتمليك الله إياهم وإذنه لهم فيها.

فيملكون الشافعون بما ذكرنا، ويستحقها به المشفوع لهم، قال تعالى: **﴿مَن ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِندَهُ إِلاَّ بِإِذْنِهِ﴾** [البقرة:٢٥٥]، وقال: **﴿وَلا يَشْفَعُونَ إِلاَّ لِمَنِ ارْتَضَى﴾** [الأنبياء:٢٨]، وقال: **﴿وَكَم مِّن مَّلَكٍ فِي السَّمَوَاتِ لا تُغْنِي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا إِلاَّ مِنْ بَعْدِ أَن يَأْذَنَ اللَّهُ لِمَن يَشَاءُ وَيَرْضَى﴾** [النجم:٢٦].

وقال بعض أهل العلم: الواو في قوله: **﴿لا يَمْلِكُونَ الشَّفَاعَةَ﴾** راجعة إلى «المتقين والمجرمين» جميعًا المذكورين في قوله **﴿يَوْمَ نَحْشُرُ الْمُتَّقِينَ إِلَى الرَّحْمَنِ وَفْدًا (٨٥) وَنَسُوقُ الْمُجْرِمِينَ إِلَى جَهَنَّمَ وِرْدًا﴾** وعليه فالاستثناء في قوله **﴿إِلاَّ مَنِ اتَّخَذَ عِندَ الرَّحْمَنِ عَهْدًا﴾**: متصل. و ﴿من﴾ بدل من الواو في ﴿يملكون﴾.

* * *

س: اذكر آية في معنى قوله تعالى: ﴿لا يملكون الشفاعة إلا من اتخذ عند الرحمن عهدا﴾.

ج: في معناها قوله تعالى: ﴿وَلا يَمْلِكُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِ الشَّفَاعَةَ إِلاَّ مَن شَهِدَ بِالْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [الزخرف:٨٦].

* * *

س: من الذين قالوا اتخذ الله ولدًا؟

ج: هؤلاء طوائف:

منهم اليهود، قالوا: ﴿عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّهِ﴾ [التوبة:٣٠].

والنصارى قالوا: ﴿الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ﴾ [التوبة:٣٠].

وقبائل من العرب قالوا: الملائكة بنات الله.

قال الله تعالى ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّهِ وَقَالَتِ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ ذَلِكَ قَوْلُهُم بِأَفْوَاهِهِمْ يُضَاهِئُونَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَبْلُ قَاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ﴾ [التوبة:٣٠].

وقال تعالى: ﴿وَجَعَلُوا الْمَلائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبَادُ الرَّحْمَنِ إِنَاثًا﴾ [الزخرف:١٩].

وقال تعالى: ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ (٢٦) لا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ﴾ [الأنبياء:٢٦، ٢٧].

* *

الكفر سبب لخراب العالم

س: الكفر سبب عظيم من أسباب خراب العالم، دلِّل على ذلك.

ج: من الأدلة على ذلك ما يلي:

قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا (٨٨) لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِدًّا (٨٩) تَكَادُ السَّمَوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ الأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا (٩٠) أَن دَعَوْا لِلرَّحْمَنِ وَلَدًا﴾ [مريم: ٨٨-٩١].

وقوله تعالى: ﴿فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةً بِمَا ظَلَمُوا﴾ [النمل: ٥٢].

وقوله تعالى: ﴿فَأَهْلَكْنَاهُم بِذُنُوبِهِمْ﴾ [الأنعام: ٦] وأعظمها الكفر.

وقوله تعالى: ﴿فَكُلاًّ أَخَذْنَا بِذَنبِهِ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ الأَرْضَ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا﴾ [العنكبوت: ٤٠].

وقوله تعالى: ﴿وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ (١١٢) وَلَقَدْ جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْهُمْ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمُ الْعَذَابُ وَهُمْ ظَالِمُونَ﴾ [النحل: ١١٢، ١١٣].

* * *

س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿إِن كُلُّ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ إِلاَّ آتِي الرَّحْمَنِ عَبْدًا﴾.

ج: المعنى، والله تعالى أعلم، ما من أحدٍ في السموات ولا في الأرض من إنس وجن وملك ودابة وشيءٍ يحشر، إلا وسيأتي يوم القيامة خاضعًا ذليلاً مقرًا على نفسه بالعبودية لخالقه سبحانه وتعالى.

قال الطبري رحمه الله:

﴿إِن كُلُّ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ إِلاَّ آتِي الرَّحْمَنِ عَبْدًا﴾ يقول: ما جميع من في السموات من الملائكة، وفي الأرض من البشر والإنس والجنّ ﴿إِلاَّ آتِي الرَّحْمَنِ عَبْدًا﴾ يقول: إلا يأتي ربه يوم القيامة عبدًا له، ذليلاً خاضعًا، مقرًّا له بالعبودية، لا نسب بينه وبينه.

وقوله: ﴿آتِي الرَّحْمَنِ﴾ إنما هو فاعل من أتيته، فأنا آتيه.

* * *

س: هل لقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَنُ وُدًّا﴾ تأويل آخر غير المذكور؟

ج: نعم، ذكر القاسمي في تفسيره وجهًا آخر فقال:

﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَنُ وُدًّا﴾ أي يغرس لهم في قلوب عباده الصالحين محبة ومودة، من غير تعرض للأسباب التي تكسب الود.

كذا قالوا في تأويله.

وقال أبو مسلم: معناه أنه يهب لهم ما يحبون.

قال: والود والمحبة سواء.

آتيت فلانًا محبته. وجعل لهم ما يحبون وجعلت له وده.

ومن كلامهم: وددت لو كان كذا. أي: أحببت.

فمعناه سيعطيهم الرحمن ودهم أي محبوبهم في الجنة.

ثم قال أبو مسلم: وهذا القول الثاني أولى لوجوه:

أحدها: كيف يصح القول الأول مع علمنا بأن المسلم المتقي يبغضه الكفار، وقد يبغضه كثير من المسلمين؟

وثانيها: أن مثل هذه المحبة قد تحصل للكفار والفساق أكثر، فكيف يمكن جعله إنعامًا في حق المؤمنين؟

وثالثها: أن محبتهم في قلوبهم من فعلهم.

فكان حمل الآية على إعطاء المنافع الأخروية أولى. انتهى.

وقد حاول الرازي التمويه في اختيار الأول والجواب عن الثاني.

والحق أحق.

* * *

س: المحبةُ الموجودة في قلوب بعض العباد لبعض إنما هي من الله، دلِّل على ذلك.

ج: على ذلك جملة من الأدلة من الكتاب والسنة، وقد ذكرنا كمًّا كبيرًا منها في تفسير قول الله تعالى: ﴿**إِذْ قَالُوا لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَى أَبِينَا مِنَّا وَنَحْنُ عُصْبَةٌ**﴾ [يوسف: ٨].

ومن هذه الأدلة ما يلي:

١ - قوله تعالى لنبيه موسى عليه السلام: ﴿وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّي﴾ [طه: ٣٩].

٢ - قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَنُ وُدًّا﴾ [مريم: ٩٦].

وقول النبي ﷺ في شأن خديجة عليها السلام «إني رزقت حبها»[1].

وحديث: «إذا أحبَّ الله عبدًا نادى جبريل: إن الله يحب فلانًا فأحبه فيحبه جبريل.... ثم يوضع له القبول في الأرض»[2].

* * *

س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ لِتُبَشِّرَ بِهِ الْمُتَّقِينَ وَتُنذِرَ بِهِ قَوْمًا لُّدًّا﴾.

ج: المعنى، والله تعالى أعلم، فإنما سهلنا هذا القرآن، ويسرناه باللسان العربي المبين الواضح الفصيح حتى يفهموا عنك المراد، فتبشر أهل التقى وأهل الإيمان والتصديق بفسيح الجنان ورضا الرحمن، وتحذر الفجار العتاة الظلمة المجادلين من عاقبة عتوهم وظلمهم وكفرهم.

قال الطبري رحمه الله:

وقوله: ﴿فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ لِتُبَشِّرَ بِهِ الْمُتَّقِينَ﴾ يقول تعالى ذكره:

---

(١) مسلم (١٨٨٨).

(٢) البخاري (٦٠٤٠) ومسلم (٢٦٣٧).

فإنما يسَّرنا يا محمد هذا القرآن بلسانك تقرؤه، لتبشر به المتقين الذين اتقوا عقاب الله، بأداء فرائضه، واجتناب معاصيه، بالجنة. ﴿وَتُنذِرَ بِهِ قَوْمًا لُّدًّا﴾ يقول: ولتنذر بهذا القرآن عذاب الله قومَك من قريش، فإنهم أهل لدد وجدل بالباطل، لا يقبلون الحق، واللَّد: شدة الخصومة.

وقال الشنقيطي في «أضواء البيان»:

قوله تعالىٰ: ﴿فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ لِتُبَشِّرَ بِهِ الْمُتَّقِينَ وَتُنذِرَ بِهِ قَوْمًا لُّدًّا﴾ [مريم: ٩٧].

ذكر جل وعلا في هذه الآية الكريمة: أنه إنما يسر هذا القرآن بلسان هذا النبي العربي الكريم، ليبشر به المتقين، وينذر به الخصوم الألداء وهم الكفرة.

وما تضمنته هذه الآية الكريمة جاء موضحًا في مواضع أخر.

أما ما ذكر فيها من تيسير هذا القرآن العظيم فقد أوضحه في مواضع أخر، كقوله في سورة «القمر» مكررًا لذلك: ﴿ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾ [القمر:١٧]، وقوله آخر «الدخان»: ﴿فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ [الدخان: ٥٨].

وأما ما ذكر فيها من كونه بلسان هذا النبي العربي الكريم فقد ذكره في مواضع أخر، كقوله: ﴿ وَإِنَّهُ لَتَنزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٩٢) نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الأَمِينُ (١٩٣) عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ (١٩٤) بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ﴾ [الشعراء: ١٩٢ ـ ١٩٥]، وقوله تعالىٰ: ﴿الر تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ (١) إِنَّا

أَنزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [يوسف: ١، ٢]، وقوله تعالى: ﴿حم ۝١ وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ ۝٢ إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [الزخرف: ١-٣]، وقوله تعالى: ﴿لِّسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُّبِينٌ﴾ [النحل: ١٠٣]، إلى غير ذلك من الآيات.

وقوله في هذه الآية الكريمة: ﴿لِتُبَشِّرَ بِهِ الْمُتَّقِينَ﴾ الآية - قد أوضحنا الآيات الدالة عليه في سورة «الكهف» وغيرها فأغنى ذلك عن إعادته هنا.

وأظهر الأقوال في قوله: «لدا» أنه جمع الألد، وهو شديد الخصومة؛ ومنه قوله تعالى: ﴿وَهُوَ أَلَدُّ الْخِصَامِ﴾ [البقرة: ٢٠٤] وقول الشاعر:

أبيت نجيًّا للهموم كأنني ... أخاصم أقوامًا ذوي جدل لدا

* * *

س: وضح معنى قوله تعالى ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هَلْ تُحِسُّ مِنْهُم مِّنْ أَحَدٍ أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزًا﴾.

ج: قال الطبري رحمه الله تعالى:

يقول تعالى ذكره: وكثيراً أهلكنا يا محمد قبل قومك من مشركي قريش.

من قرن، يعني من جماعة من الناس، إذ سلكوا في خلافي وركوب معاصيّ مسلكهم، هل تُحسّ منهم من أحد؟ يقول: فهل تُحسُّ أنت منهم أحدًا يا محمد، فتراه وتعاينه ﴿أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزًا﴾ يقول: أو تسمع لهم صوتًا، بل بادوا وهلكوا، وخَلت منهم دورهم، وأوحشت منهم منازلهم، وصاروا إلى دار لا ينفعهم فيها إلا صالح من عمل قدَّموه، فكذلك قومك

هؤلاء، صائرون إلىٰ ما صار إليه أولئك، إن لم يُعاجِلوا التوبة قبل الهلاك.

وقال الشنقيطي رحمه الله تعالى:

﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا﴾ في هذه الآية الكريمة هي الخبرية، وهي في محل نصب لأنها مفعول ﴿أَهْلَكْنَا﴾؛ و «من» هي المبينة «كم» كما تقدم إيضاحه.

وقوله: ﴿هَلْ تُحِسُّ مِنْهُم مِّنْ أَحَدٍ﴾ أي هل ترىٰ أحداً منهم، أو تشعر به، أو تجده ﴿أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزًا﴾ أي صوتًا.

وأصل الركز: الصوت الخفي؛ ومنه ركز الرمح: إذا غيب طرفه وأخفاه في الأرض.

ومنه الركاز: وهو دفن جاهلي مغيب بالدفن في الأرض.

ومن إطلاق الركز علىٰ الصوت قول لبيد في معلقته:

فتوجست ركز الأنيس فراعها ... عن ظهر غيب والأنيس سقامها

وقول طرفة في معلقته:

وصادقتا سمع الترجس للسرى ... لركز خفي أو لصوت مندد

وقول ذي الرمة:

إذا توجس ركزاً مقفر ندس ... بنبأة الصوت ما في سمعه كذب

والاستفهام في قوله ﴿هل﴾ يراد به النفي.

والمعنىٰ: أهلكنا كثيراً من الأمم الماضية فما ترىٰ منهم أحداً ولا تسمع لهم صوتًا.

وما ذكره في هذه الآية من عدم رؤية أشخاصهم، وعدم سماع أصواتهم-

ذكر بعضه في غير هذا الموضع؛ كقوله في عاد: ﴿فَهَلْ تَرَى لَهُم مِّنْ بَاقِيَةٍ﴾ [الحاقة: ٨]، وقوله فيهم: ﴿فَأَصْبَحُوا لا يُرَى إِلاَّ مَسَاكِنُهُمْ﴾ [الأحقاف: ٢٥]، وقوله: ﴿فَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ فَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا وَبِئْرٍ مُّعَطَّلَةٍ وَقَصْرٍ مَّشِيدٍ﴾ [الحج: ٤٥]، إلى غير ذلك من الآيات.

* * *

وختامًا

فقد تم بحمد الله تفسير هذه السورة المباركة الكريمة .

سورة مريم في (سؤال وجواب) أسأل الله تبارك وتعالىٰ أن ينفعني بها والمسلمين، كما أسأله سبحانه أن يغفر لنا خطايانا، وأن يُقل عثراتنا ويغفر زلاتنا، ثم ما كان في هذا التفسير من صواب فمن الله تبارك وتعالىٰ وحده فله النعمة وله الفضل وله الثناء الحسن .

وما كان فيه من خطأ فمن نفسي ومن الشيطان، وأتوب إلىٰ الله وأستغفره من كل زلل وكل شطط .

وصل اللهم علىٰ نبينا محمد وسلم، والحمد لله رب العالمين .

سبحانك اللهم وبحمدك، أشهد ألا إله إلا أنت، استغفرك وأتوب إليك .

كتبه

أبو عبد الله

مصطفى بن العدوي

فهرست أطراف الأحاديث

الحديث	الصفحة
- أ -	
إذا أحب الله عبداً نادىٰ جبريل : إن الله يحب فلانًا فأحبه	٢٩٣
إذا رقد أحدكم عن الصلاة أو غفل عنها فليصلها	١٩٤
إذا صلىٰ أحدكم إلىٰ شيء يستره	٩١
أرأيت لو كان عليها دين أكنت تقضينه	١٩٠
ارجع فصل فإنك لم تصل	١٨٩
استأذنت ربي أن أزور قبر أمي فأذن لي	١٥٧
اعلم أبا مسعود أن الله أقدر عليك .	٩٠
اعلم أبا مسعود! اعلم أبا مسعود!	٨٩
ألا أخبرتهم أنهم كانوا يسمون بأنبيائهم	١٠٩
أما أهل النار الذين هم أهلها فإنهم لا يموتون	٢٢٦
أما بعد يا عائشة ، فإنه قد بلغني عنك كذا	١٠٨
أما ترضىٰ أن تكون مني بمنزلة هارون من موسىٰ	٤٩
أمك . قال : ثم من؟ قال : ثم أمك	١١٦
إن الكريم ابن الكريم ابن الكريم ابن الكريم	١٦٠
إن الله ليملي للظالم حتىٰ إذا أخذه لم يفلته	١٣٠
إن الله يعلم أن أحدكما كاذب	٩٠
إن أول ما يحاسب به العبد يوم القيامة	١٩١
إن من الشجر شجرة لا يسقط ورقها	١٠١
إن هذا أتاني وأنا نائم	٨٩
إنكم تختصمون إلي ولعل بعضكم أن يكون ألحن بحجته	٩٠
إنكم محشورون إلىٰ الله عزّ وجلّ حفاة	٢٢٦
إني رزقت حبها	٢٩٣
آية المنافق ثلاث : إذا حدث كذب	١٧٧
أين المتألي علي الله لا يفعل المعروف	٩١

- ب -

بيت لا تمر فيه جياع أهله ١٠١
بينما ثلاثة نفر ممن كان قبلكم إذ أصابهم مطر فأووا إلىٰ غار ٨٨

- ت -

تتبع كل أمة ما كانت تعبد ٢٧٨

- ث -

ثم عرج بنا إلىٰ السماء الرابعة ١٨٥

- ح -

حدثني فصدقني ووعدني فوفَّىٰ لي ١٧٦
حدثوا الناس بما يعرفون أتحبون أن يكذب الله ورسوله ٣٠
الحمَّىٰ من فيح جهنم فأبردوها بالماء ٢٣٠، ٢٣٤

- خ -

خمس صلوات في اليوم والليلة. ١٩٢

- د -

دين الله أحق أن يُقضىٰ ١٩١

- ذ -

ذكِّره بالله. ٨٩

- ص -

الصلاة علىٰ وقتها. ١١٧

- ف -

فأخاف أن تنكر قلوبهم ٣١
فألفىٰ ذلك أم إسماعيل وهي تحب الإنس ١٧١
فإنه من يعش منكم بعدي فسيرىٰ اختلافًا كثيراً. ٤٩
فذلك سعي الناس بينهما. ١٧٠
فقدت رسول الله ﷺ في الفراش. ٣٢
فيكون خيرهم يومئذ من يقول: لو واريتها. ١٨٧

- ك -

كان رجل يسرف علىٰ نفسه. ١٢٢

كان زكريا عليه السلام يعمل نجاراً ٢٨
كل أهل الجنة يرىٰ مقعده من النار فيقول ٢١١

- ل -

لا أحد أصبر علىٰ أذىٰ سمعه من الله ١٣٠
لا تقوم الساعة حتىٰ يتسافدوا الطريق ١٨٧
لا نورث ما تركنا فهو صدقة ٥٠، ٥٥
لا يبقىٰ بر ولا فاجر إلا دخلها. ٢٣٥
لا يتمنين أحدكم الموت من ضر أصابه ٩٨
لا يجوع أهل بيت عندهم التمر ١٠١
لا يدخل النار إن شاء الله من أصحاب الشجرة أحد ٢٢٧
لا يصلين أحد العصر إلا في بني قريظة ١٩٧
لا يموت لأحد من المسلمين ثلاثة من الولد فتمسه النار إلا تحلة القسم. ٢٣٩، ٢٢٧
لا يموت لإحداكن ثلاثة من الولد فتحتسبه إلا دخلت الجنة ٢٢٧
لا يموت لأحدكم ثلاثة من الولد فيحتسبهم إلا كانوا له جُنة ٢٤١
لا يموت لمسلم ثلاثة من الولد فيلج النار إلا تحلة القسم ٢٣٨
لولا حداثة عهد قومك بكفر لنقضت الكعبة ٣٠
لما نزلنا أرض الحبشة جاورنا بها خير جار. ٢٢
ليس هناك ليل إنما هو ضوء ونور. ٢٠٨

- م -

ما بعث الله نبيًّا إلا يرعىٰ الغنم. ٢٩
ما من أحد يلقىٰ الله يوم القيامة إلا ذا ذنب إلا يحيىٰ بن زكريا ٧٤، ٨٦
ما من مسلمين يموت لهما ثلاثة من الولد ٢٤١
ما من مولود يولد إلا نخسه الشيطان فيستهل صارخًا من نخسه ٧٤
ما يمنعك أن تزورنا أكثر مما تزورنا ٢١٣
مره فليتكلم وليستظل وليقعد [illegible]
ملأ الله بيوتهم وقبورهم ناراً [illegible]
من أدرك من الصبح ركعة قبل أن تطلع الشمس ١٩٢
من تصبَّح بسبع تمرات عجوة ١٠٩

من نام عن صلاة أو نسيها فصلاتها ١٩٧
من نام عن صلاة أو نسيها فليصلها ١٩٦
من نسي الصلاة فليصلها إذا ذكرها ١٩٥
من نسي صلاة أو نام عنها فكفارتها ١٩٤
من نسي صلاة فليصلها إذا ذكرها ١٩٥

- و -

وإذا أردت فتنة في قوم فتوفني غير مفتون ٩٨
والذي نفسي بيده لأن يأخذ أحدكم حبله فيحتطب على ظهره ٢٩
والله لله أقدر عليك منك عليه ٩٠
والله ما صليتها . ١٩٧
الورود: الدخول لا يبقى بر ولا فاجر إلا دخلها ٢٢٨
ولد لي غلام فأتيت النبي ﷺ فسماه إبراهيم ٥٦
ولم يكن لهم يومئذ حب ١٧٢

- ي -

يؤتى بالموت كهيئة كبش أملح . ١٣٨
يدخل الله أهل الجنة الجنة . ١٣٩
يرحم الله أم إسماعيل لو تركت زمزم ١٧٠
يقول الله تعالى لآدم يوم القيامة ٢٢٥
يوسف نبي الله ابن يعقوب نبي الله ١٥٩

فهرست الموضوعات

الموضوع	الصفحة
المقدمة	٥
كلمة مجملة عن سورة مريم	٧
الآيات من (١ ـ ١٥)	١٥
بعض الكلام على الحروف المقطعة	٢١
شيء من قصة زكريا عليه السلام، وكذا ولده يحيى عليه السلام	٢٨
سبب إخفاء الدعاء	٣٠
استحباب إخفاء الدعاء	٣٢
بعض فوائد النداء الخفي	٣٣
أنواع من التوسلات بين يدي الدعاء	٤٤
بعض آداب الدعاء المستنبطة من دعاء زكريا عليه السلام	٥٤
شيء من قصة مريم عليها السلام	٧٦
أدلة على مشروعية تذكير المعتدي بالله ـ عزَّ وجلَّ ـ	٨٨
تكلم عيسى عليه السلام في المهد	١١٣
القول الحق في شأن عيسى عليه السلام	١٢٠
يوم الحسرة	١٣٨
ذكر طائفة من أنبياء الله عزَّ وجلَّ	١٤٢
ذكر إبراهيم عليه السلام	١٤٥
ذكر موسى عليه السلام وذكر أنبياء آخرين	١٦٢
شيء من الحديث عن إسماعيل عليه السلام	١٦٩
نبي الله إدريس عليه السلام	١٨٤
المراد بإضاعة الصلاة	١٨٨

بحث في تارك الصلاة عمداً هل يُلزم بإعادتها؟ ١٩٠
فتح أبواب التوبة للتائبين ١٩٩
بعض الحديث عن منكري البعث ٢١٤
بعض الاستدلالات على البعث ٢١٨
مبحث حول قوله تعالى: ﴿وإن منكم إلا واردها﴾ ٢٢٤
وهذه بعض الأحاديث التي قد يُستعان بها في تفسير الورود ٢٢٧
الباقيات الصالحات ٢٦٤
الآيات من (٧٧-٩٨) ٢٦٧
تبرُّؤ المعبودين من دون الله ممن عبدهم ٢٧٧
الكفر سبب لخراب العالم ٢٩٠
وختامًا ٢٩٨
فهرست الأحاديث ٢٩٩
فهرست الموضوعات ٣٠٣